الجاسوسية من أجل السلام

جون كيمشى

جاسوسية من أجل السلام

SPYIN FOR PAECE

JON KIMCHE

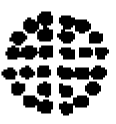


SPYING FOR PEACE

جاسوسية من أجل السلام

بقـلم

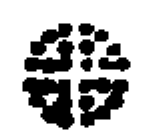
چــون كيمشى



SPYING FOR PEACE

By:

JON KIMCHE



═══ ١٩٦٢ ═══

فهرس

هـــــذا الـــكتاب

بعد سقوط فرنسا واستسلامها في ١٦ من يونيو سـنة ١٩٤٠ كانت سويسرة أشبـه بجزيرة في خضم بحر متـلاطم يسيطر عليه النظام النازى الجديد ٠

وكان هتلر فى أشـد الحاجـة الى طرق سويسرة ، الى خطوطهـا الحديدية ومعابرها التى تخترق الجبال الوعرة ، كان أحوج ما يكون لأن يضم سويسرة التى عـاشت فى استقلالها الحيـادى منـذ فجر تاريخها الحديث ٠٠٠ لأن يضمها الى امبراطورية الرايخ ٠

فكيف استطاعت سويسرة أن تنجو من قبضة هتلر ؟ ! ٠

ان الاجابة على هذا السؤال لاتتطلبأكثر من كلمتين اثنتين هما : هنرى جيسان

وهنرى جيسان أو بمعنى أصح الجنرال هنرى جيسان هو القائد السويسرى الذى وحد الأمة المنقسمة وعبأ تسعماية ألف مواطن من جملة السكان الذين لا يزيدون على الأربعة ملايين ، واستطاع هؤلاء الذين عبأهم جيسان أن يقطعوا كل طريق علىرجال الحكومة الفدرالية الذين كانوا يميلون لتهدئة هتلر ، واستطاعوا هم أيضا أن يخدعوا وأن يضللوا المستشار المنتصر فى برلين ٠

لقد كان جيسان يقامر لا بعنقه بل بوطنه وكسب الشوط ذلك لانه لم يقامر مغمض العينين ، لقد خدع هتلر لسنتـين كاملتين بنى طوالهما تحصينات جبلية على الالب ، وعند ما بدأت الحرب كان قد نظم المخابرات السويسرية التى استطاعت أن تصل الى قلب القيادة الالمانية ٠

ومع تقدم الحرب بدأ الحلفاء ينتفعون من التدابير التى قام بها جيسان ، وفى سنة ١٩٤٢ حل آلان دلاس فى برن ، ومنها استطاع أن يقوم بكل مؤامراته التى شملت فيما اشتملت على محاولة اغتيال هتلر فى أغسطس سنة ١٩٤٤ ، وفى برن أيضا أقام آلان دلاس الاذاعة السرية التى كانت تنقل كل تفاصيل التحركات العسكرية الالمانية ، وقصة أعمال آلان دالاس فى سويسرة من أعظم قصص الجاسوسية فى تاريخ الحرب العالمية الثانية كلها وهى تعرض هنا لأول مرة ٠

والمؤلف جون كيمشى صحفى يهودى ولد فى سويسرة وعمل فى تحرير :

Jewish Observer & Middle East Review

L'Observateur du Moyen Orient

وكان فى بعض الوقت مراسلا لرويتر ولجريدة الاوبزرفر البريطانية، كما كان أثناء الحرب مراسلا عسكريا لجريدة ايفننج ستاندارد Evening Standard وهو عمل مكنه بالاضافة الى أنه سويسرى المولد أن يحقق كل الحوادث التى جاءت فى هذا الكتاب ٠

على أن المهم هنا أن كمشى فى الواقع فى كتابه هذا قد استطاع أن يلقى على قصة الجنرال جيسان ومجهوداته أن يلقى ضوءا جديدا يمكن معه الوصول الى اجابة الكثير من الأسئلة الخاصة بموقف سويسرة من الحرب العالمية الثانية وأثر حيادها فى معركة الجاسوسية طوال الحرب ، وهى الأسئلة التى لم تكن من اجابة لها فيما قبل ٠

وليس جون كيمشى بغريب علينا فقد قدمنا له عدة دراسات آخرها كتابه « من كلا جانبى التل » ٠

ويقول الناشر (ويدنفيلد أند نيكلسون) بأن ترتيبات جيسان للحياد المسلح تعتبر درسا لكل الذين يتحدثون اليوم عن « الحياد » ، وعلى أية حال فانه مالم تتوافر الزعامة القومية فى اللحظات الحرجة وفى الازمات فلا يمكن أن تتوافر السيكلوجية الحقة للدفاع والتأهب الكامل لمواجهة الاخطار .

ان الكتاب قد يكون تأريخا لرجل ، ولكن تاريخ الرجل هو تاريخ لحقبة من تاريخ العالم .. ثم هو الى أبعد من هذا تاريخ لمرحلة من مراحل الجاسوسية .. ولكنها فى هذه المرة « جاسوسية من أجل السلام » ... ثم أن الكتاب يقدم مجموعة من الدروس المستفادة التى تستحق التفهم والبحث .

سير الحوادث

١٩٣٩

١٤ أغسطس	: اخبر هتلر قادته بتخطيطه للحرب .
٢٢ «	: هتلر يحسم من تخطيطه بعد توقيع اتفاقية الحلف النازى السوفيتي
٢٥ «	: جورث يذكر العوامل التى تبين عدم امكان قيام الحرب .
٣٠ «	: جيسان يختار قائدا للجيش السويسرى .
أول سبتمبر	: غزو الألمان لبولنده .
٢ «	: التعبئة العامة فى سويسره .
٣ «	« بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب على المانيا .
٩ «	: اعتراف بريطانيا بحياد سويسره .
٢٧ «	: استسلام وارسو .
١١ نوفمبر	: جزع سويسره ـ الغاء الاجازات .

١٩٤٠

٩ أبريل	: غزو الدنمارك والنرويج .
١٨ «	: الحكومة السويسرية تأمر بتدابير خاصة ضد الغزو .
١٠ مايو	: الألمان يهاجون هولنده والبلجيك وفرنسا .
١١ «	: تعبئة جيش سويسره ، الأهالى يفرون من مدن الحدود .
١ ـ ٨ يونيو	: المقاتلات السويسرية تصطدم بالمقاتلات الألمانية على حدود سويسره .
١٧ «	: فرق البانزر الألمانية تصل الى الحدود السويسرية الفرنسية .
١٩ «	: الفيلق ٤٥ الفرنسى يتقهقر لداخل ارض سويسره وينزع سلاحه .
٢٢ «	: فرنسا تقبل شروط الهدنة .
٢٥ يوليو	: جيسان يتحدث لقادة الجيش على « الروتلى » .
٢ نوفمبر	: ادخال نظام السيطرة على التموين فى سويسره .
٧ «	: فرض الاظلام فى سويسره بعد الاحتجاج الألمانى .

١٩٤١

٦ أبريل : الألمان يغزون يوغوسلافيا واليونان .
٥ مايو : جنود المظلات الألمان ينزلون كريت .
٢٢ يونيو : غزو الألمان للروسيا .
٧ ديسمبر : الهجوم الياباني على بيرل هاربور .
١١ » : الولايات المتحدة تعلن الحرب على المحور .
١٨ » : أول تقهقر ألماني فى الجبهة الروسية .
١٩ » : هتلر يتولى القيادة العامة للقوات الألمانية .

١٩٤٢

١٥ فبراير : استسلام سنغافورة لليابانيين .
٢٠ يونيو : طبرق تسقط امام قوات روميل .
١٩ أغسطس : اغارة الانجليز والكنديين على دييب لمحاولة اختبار الدفاعات الساحلية
٢١ » : وصول القوات الألمانية لحرب الجبال الى القوقاز .
٢٤ » : بدأ معركة ستالينجراد .
٢٠ أغسطس : الهجوم المضاد الروسى فى كل الجبهات .
١٦ أكتوبر : توزيع الخبز بالبطاقات فى سويسره .
٢٤ » : الهجوم الانجليزى فى العلمين .
أول نوفمبر : توزيع اللبن بالبطاقات فى سويسره .
٢ » : آلان دالاس يبدأ عمله فى سويسره .
٨ » : نزول قوات الحلفاء فى شمال افريقية .

١٩٤٣

٢٦ ينـاير : اتفاق روزفلت وتشرشل فى الدار البيضاء على ضرورة استسلام قوات المحور دون قيد او شرط .
٢٧ » : بدأ الهجوم الجوى الأمريكى على ألمانيا .
٢٨ » : التعبئة العامة فى ألمانيا (بصفة شاملة لكل الأمة) .
٣١ » : استسلام الألمان فى ستالينجراد .

٣ مارس : جيسان يقابل شلنبرج فى بيجلين .
١٣ » : فشل محاولة اغتيال هتلر .
١٨ » : تحذير سويسره من احتمال غزو ألمانيا لها .
١٢ مايو : لا وجود لقوات المحور فى شمال افريقية .
٢٥ يونيو : اسقاط موسولينى ــ بودوليو يكون الحكومة الجديدة .
٣ سبتمبر : الحلفاء ينزلون بجنوب ايطاليا .
٨ » : ايطاليا تستسلم .
١٢ » : جنود المظلات الألمان يطلقون سراح موسولينى .
١٥ » : تعبئة جزئية فى سويسره .
٦ ديسمبر : اجتماع ستالين وروزفلت وتشرشل فى طهران .
٢٤ » : تعيين أيزنهاور قائدا للجبهة الثانية فى أوروبا .

١٩٤٤

٣٠ مارس : ألمانيا تحتل المجر .
٢٩ أبريل : طائرة نفاثة ألمانية تنزل سرا فى سويسره .
٤ يونيو : الحلفاء يحتلون روما .
٦ » : الحلفاء ينزلون على ساحل نورماندى .
جيسان يصطدم بالحكومة السويسرية على أوامر التعبئة .
١١ » : تعبئة جزئية جديدة .
١٦ » : اول قنبلة طائرة تسقط على لندن .
٢٠ يوليو : محاولة جديدة لاغتيال هتلر .
٢١ » : هملر يتولى قيادة الجبهة الداخلية .
٢٣ أغسطس : تحرير باريس .
٨ نوفمبر : اول صاروخ ألمانى يسقط على لندن .
١٩ » : الاتحاد السوفييتى يرفض استئناف العلاقات الدبلوماسية مع سويسره
١٦ ديسمبر : الهجوم الألمانى المضاد فى الأردن . ARDENNE بفرنسا .

١٩٤٥

١٢ ينـــاير	:	الروس يحتلون وارسو ٠
٨ فبــراير	:	مؤتمر يالتـا ٠
١٣ »	:	الروس يحتلون بودابست ٠
٢١ »	:	باريللى يصل الى سويسره مقترحا استسلام الألمان فى ايطاليا ٠
٢٤ مارس	:	الحلفاء يعبرون الرين ٠
٢١ أبريل	:	الروس يدخلون برلين ٠
٢٨ »	:	اعدام موسولينى ٠
٣٠ »	:	انتحار هتلر ٠
٢ مايو	:	ايقاف اطلاق النار فى الجبهة الايطالية ٠
٧ »	:	ايقاف اطلاق النار فى باقى أوروبا ٠
٣٠ يونيـو	:	جيسان يسلم مكتبه للبرلمان السويسرى ٠
٢٠ أغسطس	}	تسريح الجيش السويسرى ٠ انتهاء عمل جيسان ٠

مقدمة المؤلف

جيسان « GUISAN » المقامر

فى أواخر صيف سنة ١٩٤١ كنت بصدد اتمام اجراءات رحلتى من لندن الى جنيف . وكنت مسافرا كأحد المدنيين بمقتضى جواز سفرى العادى المستخرج من سويسرا واعتزمت البقاء فى سويسرا لمدة اسبوعين أعود بعدهما الى لندن ، وساعدنى الوزير السويسرى فى الحصول على تأشيرات من البرتغال وأسبانيا • كما هيأ لى الحصول على تصريح فرنسى من فيشى• وكان ذلك أمرا أكثر تعقيدا حيث لم يكن هناك فى لندن مندوب رسمى لفيشى بل كان هناك قنصل غير راض عن عمله •

وكانت المرحلة التالية هى الحصول على صك الامان من السلطات البريطانية والاسبقية فى حجز مقعد على طائرة .K.L.M المسافرة الى لشبونة • وكان من المفهوم أن تبدى وزارة الحرب اهتماما برحلتى (وكذلك الاذاعة البريطانية حيث نفد ما لديهم من المعاجم الألمانية ـ الانجليزية واحتملوا أن أحضر اليهم بعضا منها) • ووجدتنى أمام مجموعة متنوعة من الموظفين المدنيين والعسكريين يخيم عليهم جو من السرية ، وأخذوا يناقشون مقاصدى ويراجعون ملفى لمدة تزيد عن بضعة أسابيع ، وقدم بعضهم مقترحات بعضها يسهل فهمها والبعض الآخر يصعب ادراك كنهها • من حيث قيامى بمساعدة ادارة العمليات الخاصة بهم (وكان أحدهم وهو كولونيل يتميز بالعزم مقتنعا بأنه لن يكون من العسير على أن أدبر توريد عددا وادوات سويسرية الى مصانع الطائرات الالمانية • على أن تشمل مقدارا مناسبا من العدد المجهزة خاصة للمتفجرات •) وكان هذا لسوء الحظ ـ من الصعب أن يتفق مع ما اعتزمته من اجراءات فى رحلتى • وكان لآخرين آراء تنطوى على آمال مماثلة ـ وان كانت شاذة ـ حول ما أستطيع

القيام به خلال تنقلاتي • وأدى بي تفكيري الى أن أبدأ في مراجعة الرأى الحديث الذى ساورني حول اجهزة الامن البريطانية « الخدمة السرية ـ المخابرات » وحكمتها السياسية ومبلغ ادراكها للأمور وذلك عند ما أخذت لمقابلة أحد كبار الضباط هناك •

وكان هذا الرجل يتميز بالاعتدال والذكاء والوعي ويميل الى الجدل « السفسطائي » • فأوضح لى أن في ملفي عقبة تتعلق بالامن حيث تبين أنى قارىء منتظم لصحيفة « نيو ستيتسمان » وبذلك لزم الامر أن يكون البحث عنى أكثر دقة • ثم أخذ في مناقشة وجهة نظره في مهمته الخاصة التى يضطلع بها • وأوضح أنه رجل معارض لنظام الحكم الفوضوى « Anarchist » • ولو كان غير ذلك لجن جنونه في تلك الهيئة السرية المحافظة التى يعمل بها والتى تمتاز بالاجلال والاحترام •

وسرعان ما تمت الاجراءات لمغادرتي في الحال وطلب أن يطلع على جواز سفرى وعليه التأشيرات اللازمة • فتسلمه في عناية وفحصه بدقة وأخذ يقلب صفحاته في شغف ثم قبل الجواز وأعاده الى • وسألته عن سبب هذه المحبة المدهشة فقال ضاحكا : « لم أمسك في يدى جوازا سويسريا جديدا على الاطلاق • ولانه جواز حقيقي وهذا أمر نادر جدا • »

وقبل مغادرتي أخبرني مساعده أن أكون في محطة بادنجتن في وقت محدد ومكان معين حيث تسلم الى تذكرة واعلم أية جهة أقصد اليها • واتخذت الاجراءات في بادنجتن وتسلمت مظروفا بداخله تذكرة سكة حديد الى بريستول وتذكرة للسفر بالطائرة • وحق الاسبقية للسفر على طائرة K.L.M. المغادرة في اليوم التالى من بريستول الى لشبونة• وثبت لدى أن اتخاذ طريق بريستول كان اجراء سريا يتعلق بالامن حتى لا يتسرب لخارج البلاد أى نوع من الاوراق أو الكتب أو أية مادة مكتوبة . وأغلب الظن أن هذا لم يعد سرا أمام الموظفين البرتغاليين والاسبان (والالمان) والفرنسيين والسويسريين الذين قاموا بفحص أوراق سفرى فحصا دقيقا • وهكذا مضيت في رحلتي من لشبونة الى مدريد حيث حصلت على مكان في القطار الى برشلونة بطريق الرشوة (اذ باع

محصل القطار نفس المقعد ـ بدولارات فقط ـ الى خمسة مسافرين آخرين) • وأخيرا سافرت من برشلونة الى جنيف • واستغرقت الرحلة من لندن أربعة أيام غير المحطات المعدة للتوقف • واكتشفت فيما بعد أن طريق العودة سيكون أكثر تعقيدا • حيث يستغرق واحد وعشرين يوما لمسافر عادى من جنيف عن طريق اسبانيا الى لشبونة ومنها الى لندن •

هذه الفجوة الجديدة من حيث الوقت والمسافة بين لندن وجنيف كانت دليلا أكثر وضوحا من طرق السفر الملتوية وقت الحرب • فقد كانت الدولتان ـ انجلتره وسويسرا ـ منعزلتين عن بعضهما بمقدار رحلة الثلاثة الاسابيع المقدرة بينهما • فقد كان للسويسريين أفكار غريبة حول الظروف فى لندن بعد الغارات الجوية . لأننا لا نستطيع اليوم أن نتخيل كيف تكون الحال لان تنقطع عن دولة لا يمكن الوصول اليها • ولم يتيسر الاتصال بها فى سنة ١٩٤١ • الا عن طريق فئة قليلة جدا من المسافرين يقضون أياما أو أسابيع من دولة الى الاخرى • ولم يكن هناك اتصال آخر فلا تليفون ولا برقيات سوى النشرات الاذاعية فى اطار من الحرص والرقابة وتعدد الانقطاع • فأى مكان فى أظلم أركان أفريقيا أو فى أبعد أرجاء آسيا أقرب منالا اليوم عن سويسرا بالنسبة للبريطانيين أو المملكة المتحدة بالنسبة الى السويسريين فى سنة ١٩٤١ • فقد كان هناك واد سحيق يتمثل فى الوقت والمسافة بين البلدين • وأكبر فجوة بينهما كانت المعلومات التى تدركها كل دولة عن الاخرى •

ومن المؤكد أن القيادة العليا البريطانية ـ على نقيض القيادة الفرنسية ـ لم تكن فى مرحلة ما مشغولة البال بموقف سويسرا • فقد كان لديها مهام أخرى منذ نشوب الحرب •

وكان من النادر أن ترى فى الصحافة البريطانية ما يشير الى سويسرا وحيادها • وكانت وزارة الحرب ـ فى خصائصها ـ تلم بالدولة وسياستها الماما عابرا فى احيان قليلة متفرقة • ولم يكن الامر يختلف كثيرا فى سويسرا حيث وصلت الى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٤١ . واستقبلت بمظاهر تنم عن شىء من الارتياب ـ تلك المظاهر التى تترقب هبوط أول

رجل من كوكب المريخ Mars دون شك . فقد كان هناك عالم آخر . حيث بدت الحرب تختلف اختلافا كبيرا . وكان ما يشغل الاذهان وعوامل القلق مختلفة أيضا . وظهرت لندن فى ضوء متغير تماما عما كانت تبدو عند مغادرتى اياهـا . ولـكن بمجرد أن بدأت اتحـدث مع السويسريين وجدتهم يرددون اسما معينـا وكلهم فى ذلك سـواء . ويدور الاسم على السنتهم بلهجة الـكبرياء والثقة والاخـلاص العميق التى احتفـظ بهـا البريطانيون لونستون تشرشـل . وينطقون باسم جيسـان . وسرعان ما تناهى الى سمعى الشىء الكثير عن هذا الرجل المرموق . والآن ـ بعـد انقضاء عشرين سنة يحين الوقت لكى يعرفه العالم . ذلك الجنرال الذى أنشأ هارى لايم ـ وأدولف هتلر .

فى تلك السنة حيث كان تقرير المصير وكانت أوروبا فى أوج أزمتها بين ربيع سنة ١٩٤٠ وصيف سنة ١٩٤١ عند ما بدا أودولف هتلر يبتلع الجميع . وعند ما وقعت بولندة والنرويج والدينمارك وبلجيكا وهولندة وفرنسا ويوجوسلافيا واليونان بين براثن جيوشه وفريسـة لهجومهـا الوحشى . وعند ما خضعت لشروط هتلر كل من روسيـا وعلى رأسـها ستالين وايطاليا تحت حكم موسولينى وأسبانيا وحاكمها فرانكو وبلغاريا ورومانيا والمجر . وهناك برز من القارة القديمة زعيمان بقيا وعملا على تكتل شعوبهما ضد مجموعة الشعوب التى خضعت لنفوذ هتلر : تشرشل فى بريطانيا وجيسان فى سويسرا . فقد كانتا الجزيرتين اللتين عجز هتلر عن اخضاعهما أو اجبارهما على قبول قسطهمـا من التعـايش تحت نفوذ الحكم الاشتراكى الوطنى المفروض على أوروبا . وبقيت بريطانيا تحيط بها المياه من كل جانب . وأحيطت سويسرا بنظام هتلر الجديد . ولم تكن ثمة ثغرات يمكن الافلات منها .

نحن نعلم لماذا وكيف تم بقاء البريطانيين . ولكن كيف ولماذا اتيحت النجاة للسويسريين ؟ كيف حدث فى حالة سويسرا فقط (من دون الدول القائمة على حدود الريخ) ان لم يلجأ الالمان لنقض عهودهم ؟ ما الذى حدا سويسرا لارغام حتى هتلر على احترام استقلالها ؟ هل كان حسن طالعها

الجغرافى أو قلـة أهميتهـا من الوجهـة الاستراتيجيـة أو كانت ملاءمة سياسيـة • أم كان أمرا آخر أكثر خفـاء أو أمرا أوضح دلالة على وقوع الشر ـ أو كان أمرا غاية فى البساطة وعلى صراط مستقيم ؟

كان هناك فى الواقع اجابات شتى وكثير من الايضاحات • ولم يكن فى استطاعة السويسريين البقاء على قيد الحياة لكى يقصوا قصتهم • ولم تتوافر هناك أية ايضاحات لولا ذلك الرجل الفريد الذى أتاح لهم ذلك • والذى أغلق الطريق فى قلب جبال الالب الاوروبية أمام جحافل النازى والفاشيست الظافرة • ذلك الفلاح البالغ الخامسة والستين من عمره من مزيرس فى اقليم فود • والذى انتخب فى ٣٠ منأغسطس سنة ١٩٣٩ أثناء دورة مشتركة من مجلس البرلمان السويسرى ليكون قائدا لسويسرا ابان فترة الطوارىء ـ وهو هنرى جيسان • وكانت الامور قد تعقدت أمامه وتراصت فى غير صالحه • ولكنه أعمل رويتـه فى الحـال وأدرك أنه من واجبه أن يقوم بهذا النوع من المقامرة الذى يلعبه هتلر • وكان الوحيد ـ باستثناء تشرشـل ـ من بين الساسة والقـادة العسـكريين المعـارضين للعملاق النازى • الذى فهم كيف يبارى هتلر بسلاحه الخاص النـاجح كأحسن ما يكون النجاح • فكان هتـلر كلما رفع سـعر أوراقه تتبعـه جونسان ورفع القيمة السويسرية • وبذلك انهمك فى مقامرة من كبرى مقامرات الحرب التى لا يعلمها أحد سواه • وربح جويسان القائد المقـامر وقدرت النجاة للسويسريين • وهذه هى قصته كيف فعل ذلك •

١

انتخاب الجـنرال

هطلت الامطار غزيرة خلال الاسبوع الاخير من أغسطس سنة ١٩٣٩ وهو آخر أسبوع فى عهد السلام • وسبب الفيضان خسائر جسيمة فى المنطقة الريفية حول زيورخ وفى سائر أنحاء البلاد • وتواردت الانباء من أوروبا مزعجة ولكن فى غير تأكيد • وقطع السواح أجازاتهم عائدين الى بلادهم • ولكن كان يلوح فى الافق دلالات قليلة تنذر بالخطر • ولو اطلع الانسان على الصحف السويسرية ذات المصادر الوثيقة والتى تكتب مادتها فى شتى الموضوعات دون ما تحيز • فى ذلك الاسبوع المشوب بالحرج لاخذته الدهشة من طابعهـا العجيب والتزامهـا العزلة • وكانت الدول الاخرى تقوم بتعبئة جيوشها • متخذة انواعا من اجراءات الطوارىء • وجاء ذلك فى الصحف جملة وتفصيلا • ولكن لم يكن هناك صدى من أى نوع فى سويسرا ولم تذكر الجرائد شيئا من ذلك فى صفحاتها الاولى • وكل دولة أخرى فى أوروبا كانت مشغولة البال بموقفها عدا سويسرا التى بقيت ـ أو بدت كأنها بقيت ـ نائية بجانبها بشكل خارق للعادة •

ولم يظهر أول رد فعل رسمى فى سويسرا ونشر فى أبرز مكان من صحفها حتى صباح ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٩ وهو اليوم التالى لآخر يوم أحد فى وقت السـلام • وكان لا يزال يرمى الى بث الثقة فى النفوس • حيث اجتمع المجلس الفدرالى المكون من سـبعة أعضـاء فى برن فى يوم الاحد وجاءته أنباء تبعث على ارتياح أكثر من السفير السويسرى فى برلين ـ وربما كان وحده المبعوث الاجنبى الكبير لدى العاصمة الالمانية الذى واصل ثقته فى قبول جميع التفسيرات والتأكيدات الالمانية كما يبدو من مظاهرها مما كان موضع احراج شـديد لـكثير من كبار موظفى وزارة الخارجيـة الالمانية •

وقبل اجتماع يوم الاحد هذا بيومين كان السفير السويسرى قد قام بزيارة أرنسـت فيرمان Woermann رئيس القسم السيـاسى بوزارة الخارجية الألمانية • وأخبره (السفير فروليتشر) رئيس القسم فيرمان بأنه

استنتج من معلومات جاءته من الملحق العسكرى السويسرى بأنه ليس هناك تهديد عاجل بقيام الحرب • وحول هذا الاعتقاد أضاف فيرمان فى مذكرة مكتبه « لقد تركته » وأبرق فروليتشر أنباء الثقة هذه الى رئيس القسم السياسى فى برن ـ وزير الخارجية موتا Motta الذى أنبأ المجلس الفيدرالى فى جلسة يوم الاحد وبعدها أدلى الى الصحف بأنباء مؤكدة بأنه « لن تكون هناك حرب » • وفى اليوم التالى لاحظت الصحف أن القطارات لا تزال مواظبة على الوصول من المانيا وفرنسا • ولو أن خط الطيران الاهلى السويسرى ألغى سيره الى باريس ولندن • ولكن ليس الى برلين •

ولكن الاخبار التى كانت ترد فى تلك الليلة أثبتت أن هذا التفاؤل الرسمى غير صادق • فقد تم استدعاء ما يزيد على ثلاثة ملايين من الفرنسيين • وعلم أن ألف طائرة ألمانية قد رابطت فى مطارات فى سلوفاكيا • وأخذت بولندة فى تعبئة رجالها • كما زادت بريطانيا من عدد المجندين • وبعد ظهر يوم الاثنين اجتمع المجلس الفدرالى وأمر باستدعاء القوات الخاصة بحراسة الحدود وتبلغ نحو مائة ألف رجل . ولكن كان أوضح دلالة على تغير الاحوال هو اذاعة أن مجلسى البرلمان السويسرى سوف يجتمعان يوم الاربعاء القادم ٣٠ أغسطس حيث تتخذ الاجراءات لانتخاب أحد القادة ، وكان هذا نذيرا بالعاصفة • فأصبح عبور الحدود مقيدا • ومنعت الطائرات الاجنبية من التحليق فى سماء سويسرا •

ونحن اذا أعدنا النظر فى التنقيب عن الاحداث كما كانت تبدو لنا فى برن ولندن أو فى برلين فاننا نستطيع أن نرى أنه ليس قلة المعلومات التى كانت تطالع بها الصحف عامة الجماهير فحسب بل أيضا قلة أدراك الحكومات والقادة لما كان مخبأ لهم • وينطبق هذا الاتجاه على الحكومة الفدرالية فى برن بنوع خاص • فلم يكن ثمة معنى حقيقى للتنبؤ بطبيعة الحرب الوشيكة الوقوع • حتى فى الجرائد المستقلة ذات الطابع الجدى والتى كانت تفخر بمصادرها المطلعة وانها أفضل من الحكومات الغربية من حيث تقديرها للموقف • فقد كانت كل الحكومات والقوات والصحافة ترى أن الحرب القادمة اما أن تكون عوامل لنكبات متوالية واغارات تلقى قذائفها على المدنيين فتلحق بهم الكوارث التى تعد بمئات الالوف • أو أن تشتمل على معارك لها طابعها التقليدى • ولكن كانوا جميعا ـ عدا هتلر ـ مستعدين فى قرارة أنفسهم ويظنون أن الحرب القادمة سوف تتخذ سبيلها التقليدى • وشجعهم هتلر فى ظنهم هذا حيث كان ذلك مما تتطلبه خططه الاستراتيجية •

وهكذا كانت الحال في كل من لندن وباريس حيث كانت الشكليات هي السابقة للماديات • وكان على بريطانيا وفرنسا أن تعلنا عزمهما على مساندة بولندة • الامر الذى يزيد في أهميته عن استعدادهما الفعلى للتوجه لمساعدتها • وعلى أية حال فأن زعماء الحلفاء لم يتوقعوا أن يصلوا الى هذه النتيجة الا بعد بضعة أشهر من نشوب الحرب • وكان الاقدام على اتخاذ اجراءات ترسم خطوطا خاصة بمعرفة كل من حكومات الحلفاء ومستشاريهم العسكريين • وكشف الغموض حادث في رئاسة الحكومة في برلين في نفس يوم الاثنين عند ما قرر المجلس الفدرالى استدعاء الحرس السويسرى على الحدود • فقد كان هتلر وريبنتروب يواصلان الحديث حول تحالف المانيا مع انجلتره عند ما قال هتلر للسفير البريطانى أن تشامبرلين سوف يتلقى رد ألمانيا على المذكرة البريطانية في اليوم التالى - الثلاثاء ٢٩ أغسطس - وهنا قال السفير البريطانى لهتلر أن يأخذ الوقت الكافى له « فلست في عجلة من أمرى » وأجاب هتلر « ولكنى متعجل • » فكان هذا هو الدليل على حقيقة الموقف في ذلك الاسبوع الاخير من أغسطس • ولم يدرك تلك الحقيقة سوى هتلر لان أجهزة المخابرات في بريطانيا وفرنسا وبولندة والبلاد المحايدة لم يتمكنوا من اقناع حكوماتهم بما تدل عليه معلوماتهم السرية حول مقاصد هتلر •

ذلك لانه حدث قبل أسبوعين في ١٤ أغسطس أن تحدث هتلر الى كبار ضباط القوات المسلحة (وكان هناك قليل من الزعماء المدنيين) في غرفة الجلوس في « وكر النسر » في أوبرسالزبرج • وعرض عليهم - خلال جلستين طويلتين - تخطيطا كاملا لمقاصده وهو حول مهاجمة بولندة وهزيمتها في مدى اسبوعين قبل أن تتمكن فرنسا أو انجلترا من القيام بأى شيء لمساعدتها • وكان يساوره الشك في أن تدخل أى منهما في حرب مع ألمانيا في مثل هذه الظروف الشائكة • ولو أن فئة معلومة من الرجال قد استمعوا الى هتلر • الا أن أنباء حديث أوبرسالزبرج سرعان ما وصلت الى مسامع زعماء خصومه من الالمان • وفي مدى أربع وعشرين ساعة كان أحد رجال الجستابو السابقين هانز جسيفيوس Hans Gisevius قد أدلى ببيان محكم شامل لما ذكره هتلر لاولرخ هاسل Ulrich Von Hassel أحد كبار موظفى الخارجية وكان معارضا لهتلر وغير راض عن الحرب • وقام بنقل المعلومات على الفور الى آخرين تابعين لحلقته من خصوم هتلر •

ولكن ماذا تم فى هذه المعلومات الحيوية ؟ فقد كان هاسل من المخلصين المقربين للسفير البريطاني والتقى به فى نفس اليوم عند ما وصل اليه بيان جسيفيوس • وكان جسيفيوس نفسه على صلات ذات نفوذ مع أجهزة المخابرات البريطانية والسويسرية • وأكثر من ذلك فان ادميرال كانارس رئيس الجاسوسية الالمانية المضادة كان حاضرا وقام بتسجيل كامل لحديث هتلر • ثم ان كانارس كان مدعى عليه بأنه أحاط البريطانيين علما بمقاصد هتلر • ولكن هل فعل ؟ وهل فعل جسيفيوس أوهاسل ؟ فاذا كان كذلك فمن الذى وصلت اليه المعلومات وعلى أى وجه ؟ فليس هناك فى سجلات الحكومة البريطانية أو الفرنسية أو السويسرية ما يدل على أنهم كانوا يدركون كنه التورطات البعيدة المدى التى انطوت عليها الاستراتيجية المقترحة التى رسم هتلر خطوطها فى حديثه • فماذا حدث ؟ هل لم تنقل المعلومات ؟ أو هل وصلت الى لندن وباريس وبرن (١) وتجاهلها القوم هناك ؟ وفى أية حال من هذه ـ كما سوف نرى ـ كان الامر يعد أكبر فشل ذريع للمخابرات وقت الحرب •

ولكن كان هناك فرصة أخرى • فبعد مضى أسبوع قام هتلر مرة أخرى باستدعاء قواده الى أوبرسالزبرج « وكان قد عقد اتفاقية مع ستالين وأصبح فى استطاعته ان يدلى بتفصيلات أكثر • هى الاسراع فى تدمير بولندة « دون شفقة » ثم التحول الى الغرب اذا لم تنأى بجانبها عن الحرب كل من انجلتره وفرنسا • وللمرة الثانية أصبحت هذه الانباء معلومة لدى كثير من الزعماء العسكريين والدبلوماسيين وكبار الموظفين الذين كانوا يعارضون هتلر واشعاله نار الحرب • ولكن ـ للمرة الثانية أيضا ـ لم يكن هناك دليل على أن هذه المعلومات (كما وصل الى علم وزارة الخارجية فى ٢٥ أغسطس) وخاصة تورطاتها الاستراتيجية المضطربة كان لها أدنى تأثير على الدوائر المسئولة سواء فى لندن أو باريس أو برن • وفى ٢٥ أغسطس كان فيكونت جورت رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية لا يزال يراهن ضد نشوب الحرب • وكذلك فعل نائبه سير رونالد آدم • وكان رهان جورت بنسبة ٥ الى ٤ وآدم ٦ الى ٤ •

ثم أن فشل العسكريين والساسة والدبلوماسيين فى العناية بتقارير المخابرات كان له صدى متصل الحلقات وأفضل تقدير له كان فى طابع

---

(١) نحن نعرف ان المخابرات السويسرية كانت على علم بها • وانها قامت بابلاغ الحكومة ولكن المجلس الفدرالى ظل فى ريب منها •

المحادثة التى دارت وقت الغذاء فى باريس فى ٢٦ أغسطس بين جنرال جورج الذى كان عليه تولى قيادة الجيش الفرنسى فى القطاع المحدد فى الشمال الشرقي وونستون تشرشل • حيث قدم جورج بيانا بعدد الفرق الفرنسية والالمانية • وكما نعلم الان • أسرف كثيرا فى تقدير القوة الفعلية للالمان ـ وقسم الفرق الى أقسام حسب حالة كل منها • وكانت النتيجة أن تأثر تشرشل كثيرا لدرجة أنه تحول الى جورج وقال له « ولكنكم سادة الموقف » • وبطبيعة الحال أكد جورج العقبات السياسية التى كان عليه أن يواجهها • وأضاف قائلا « لن يسمح لنا أبدا بتوجيه الضربة الاولى • » وكما أوضح تشرشل فيما بعد كان الفرنسيون فى حاجة الى ثلاثة أسابيع للقيام بهجوم كبير على الالمان ـ ولكن فى نهاية الاسبوع الثالث كانت عملية بولندة قد انتهت . وكانت هناك سبعون فرقة ألمانية تزحف نحو الغرب لتعزيز خط سيجفريد •

وكان من الممكن أن يختلف هذا الأمر أشد الاختلاف لو أن هيئات أركان الحرب البريطانية والفرنسية أقدمت على عمل بعد اخطارها مباشرة بالتوجيه الذى القاه هتلر على قواده فى ١٤ أغسطس • فبعد ذلك الحديث الاول فى أوبرسالزبرج كان هناك وقت ـ ثلاثة أسابيع لاعداد قوة فرنسية كافية وارسالها لمهاجمة خط سيجفريد بينما كان الالمان يخوضون غمار معركة بولندة وربما كان في مقدرة الفرنسيين ان يصلوا الى نهر الراين وحتى أن يعبروه فى الثلاثة الاسابيع الاولى من شهر سبتمبر • كان ذلك فى استطاعتهم ولكنهم لم يفعلوا • ولم يدر بخلدهم مجرد التفكير فى مثل هذا الامكان • كما لم يتبادر الى أذهان القادة العسكريين البريطانيين •

واذا لم يكن قواد هتلر على دراية بهذا الامر فان هتلر نفسه كان على يقين من ذلك • والنتيجة ان كان مقتنعا بترك النذر اليسير من القوات الالمانية للوقوف على الخط أمام الغرب والاهتمام بالجيش الفرنسى بأكمله• وظن القادة ـ وخاصة وتزلين ووستفال ـ Witzleben and Wes phal أنه أصابه الجنون فقامر بهذه الطريقة ولكن هتلر كان يعلم أنه لم يكن مقامرا • فقد وصلت اليه معلومات من السفارة الالمانية فى لندن تفيد بأنه لم يكن هناك النية لترحيل قوات بريطانية الى القارة حتى أن يتم اعداد سبع فرق على الاقل وان ذلك لن يحدث حتى ربيع سنة ١٩٤٠ أو حتى بعد ذلك • وقد ترسل قوة رمزية عاجلة الى فرنسا لتهدئة الرأى العام • وكذلك جاءته معلومات أخرى عن طريق سفارة لندن تصلح ليتخذها هتلر مادة لمجادلاته • وتقول الرسالة أن الحكومة الفرنسية

أخطرت الحكومة البريطانية بأن القوات الفرنسية لن تقوم بأعمال عدوانية ضد ألمانيا الا اذا وصلت قوات الحملة البريطانية الكاملة الى الاراضى الفرنسية واصبحت على أهبة الاستعداد • وبذلك استطاع هتلر أن يولى وجهه نحو بولندة دون أن يخشى شيئا من ناحية حليفتيها قد يزعجه أو يعرقل سيره فى القيام بغزو البولنديين •

فى هذا الوضع الراهن ـ وان كانت تفاصيله فى زاوية النسيان ـ اجتمع مجلسا البرلمان فى برن بعد ظهر الاربعاء ٣٠ أغسطس فى هيئة خطيرة جدية لانتخاب القائد العام للقوات المسلحة السويسرية [١] ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن أن مصير بولندة وفرنسا ومعظم دول أوروبا قد بات مقررا • وعن المهام الجسام غير المتوقعة والتى سوف يلاقيها الرجل وهو على أبواب الانتخاب لتولى قيادة الجيش السويسرى • ولذلك رأوا عدم التورط فى حرب تهددهم ولزموا جانب الحياد والاحتفاظ بسيادة الاراضى السويسرية •

ومرة أخرى اتبعت التقاليد السويسرية • فقد كانت القوات المسلحة لا يتولى قيادتها قائد عام عسكرى الا وقت الحرب أو فى حالة الطوارىء التى تهدد البلاد وأما فى الاوقات الاخرى تظل تحت أوامر مدنية يصدرها

---

(١) ينص الدستور السويسرى على انه فى حالة الطوارىء الوطنية فقط يجب على البرلمان ان ينتخب قائدا عاما يمنح رتبة الجنرال ولكن فى فترة الطوارىء فقط • وهو الجنرال الوحيد فى الجيش السويسرى •

وكانت القوات المسلحة سنة ١٩٣٩ تضم افراد المليشيا الوطنية القائمة على التجنيد وشمل هذا جميع السكان من الذكور من سن ٢٠ ـ ٦٠ وسمح للنساء المتطوعات باداء مهمات خاصة • وكانت القوات تنقسم الى قوات الجبهة الامامية • وجيوش اليت ELITE التى كانت تضم مجموعات من سن ٢٠ ـ ٣٦ وقوات لاندوفير LANDWEHR الاحتياطية وتضم الأفراد من سن ٣٦ ـ ٤٨ وقوات لندستورم LANDSTURM ـ الحرس الوطنى ـ وتتكون مجموعاته من سن ٤٨ ـ ٦٠

وكان المجندون يتلقون تدريبات واسعة النطاق لمدة سبعة عشر اسبوعا ويستدعون سنويا لتلقى دراسات تزيد فى قوتهم • وكانت هناك تدريبات خاصة اضافية للاعمال الفنية كالمدفعية والمدرعات والسلاح الجوى • واتخذت اجراءات خاصة لتغطية حاجات المليشيا اثناء فترة التعبئة • وللاطلاع على تلخيص رائع انظر MEN IN UNIFORM لمؤلفه م•ر•د• فوت الصفحات ٦٣ ـ ٧١

رئيس الادارة العسكرية الفدرالية · وقد حان الان مثل هذه الاونة · وتجمع جمهور كبير خارج مبنى البرلمان وبداخله جمع تسوده الجدية استدعاه رئيس مجلس الامة ـ الجمعية الوطنية ـ وكانت الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الاربعاء ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ حيث قررت الجمعية بالاجماع باستثناء صوتين منح الحكومة سلطة الحكم بمقتضى قوانين الطوارىء وبذلك خولت للحكومة السلطات الدكتاتورية الحقة · ولكن لم تكن هناك اثارة لنزاع خطير ·

ثم جاء بعد ذلك انتخاب الجنرال · وكانت له السلطة التامة على السياسة بكافة نواحيها وكذلك التعيينات وقيادة القوات المسلحة · وتعثرت الاجراءات لفترة قصيرة عند ما اخطرت الحكومة زعماء الحزب باسم مرشحها المقترح لتولى المنصب وهو كولونيل هنرى جيسان قائد الالاى الاول · ولم يكن هناك مجال للجدال · فقد تم توزيع الاوراق وانتخب جيسان بأغلبية ٢٠٤ من الاصوات ونال منافسه بورل قائد احدى الفرق ٢١ صوتا من بينهم بعض أراء لرجال لم يكن لديهم فكرة صادقة عن مؤهلات جيسان · ولكنهم أصبحوا فيما بعد أنصارا له وعضدوه فى اشتباكاته التالية مع الحكومة المركزية ·

وبنوع خاص كان بعض الفئات التقدمية من الديمقراطيين الاشتراكيين يساورهم الشك حول جيسان · فقد بلغ الخامسة والستين من عمره · وهو من سلالة الاشراف فى القطاع السويسرى حيث تسود اللغة الفرنسية ولا يعرف من اللغة الالمانية شيئا · وكانوا يؤثرون الرجل الذى يعتقدون أنه أقوى حزما واكثر اقداما فى علاقاته بالالمان · وهو كولونيل بورل Borel ولكن كان جيسان ذلك الرجل الهادىء ضابط المليشيا المحتفظ به من مزيرس هو الذى استدعى للحضور أمام الجمعية العمومية · وكان مجرد اسمه وشخصه معروفين ولكن حقيقة أمره لا يدركها الا الذين عملوا معه · ولما دخل من باب المجلس بنشاطه المعهود وقف له الاعضاء المجتمعون على أقدامهم يخيم عليهم الصمت المطلق · واتخذ جيسان موقفه أمام مقعد الرئيس وقبعته فى يده · وتلوح عليه امارات الشباب مما يدعو الى الدهشة · ثم نطق الرئيس بصيغة القسم بصوت مسموع « اعمل باخلاص على ضمان استقلال وحياد الجمهورية الفدرالية · » وسأل الجنرال أن يرفع يده اليمنى ويقسم Je La Jure وهكذا وضع الرئيس القوات المسلحة السويسرية فى عهدة الجنرال · وانتهى الحفل بتقديم باقة من

الزهور الحمراء والبيضاء اليه • وحلت الحقائق مكان التقاليد عند ما انسحبت الحكومة والجنرال من أول اجتماعات مشتركة لهم • وكان أمامهم جلستان مشتركتان لمناقشات اخرى فى مدى الست السنوات التالية •

لماذا انتخب هذا الرجل جيسان لمثل هذا المنصب القوى النفوذ ؟ ومنذا الذى كان يهمه تعيين ضابط المليشيا المجهول والعالم فى غمرة الوقوع فى هاوية الحرب ؟ ففى برلين قام السفير السويسرى باخطار وورمان Woermann رسميا فى وزارة الخارجية وأوضح له أنه القوى الجديدة لاتى أسندت للحكومة الفدرالية « سوف تكون سويسرا دولة ذات حكم مطلق » • وردا على هذا الاتصال الودى أجاب وورمان فى شىء من الخشونة أنه يأمل بهذه المناسبة أن تتاح للحكومة الفدرالية الفرصة المطلوبة لفرض رقابة صارمة على الصحف السويسرية • ولكن من حيث هذا الجنرال السويسرى فقد كان الوحيد الذى ندر أن يعرض عليه الالمان أفكارا أخرى من هذا القبيل • وكان هتلر على يقين من أن السلطات السويسرية لن تلتزم الشدة فى معاملتها • ولو أن الصحف السويسرية المستقلة والمحررة باللغة الالمانية والتى كان طابعها النقد • كانت شبحا مخيفا له شخصيا • ولمعظم الزعماء النازيين الآخرين •

وفى سويسرا انقسمت الآراء الى اقسام • فظهرت الصحف تحمل الترحيب المعتاد بالجنرال الجديد والثناء عليه• ولكن فى محيط السياسيين ورجال الجيش كان هناك الكثيرون ممن ساورهم الشك فى حكمة ذلك الاختيار • ولم يساور الرجل الذى صنع الجنرال أية شكوك• وهو الرجل الذى أدان أوروبا أثقل الدين بصنعه هذا! • وهو رودلف مينجر رئيس الادارة العسكرية والذى يعد وزيرا للدفاع • فقد كان يعرف الجيش السويسرى وكبار ضباطه أفضل من أى فرد آخر • وبتقدير من تلقاء نفسه ادرك أن ما تحتاجه البلاد هو شىء أكثر من الجندى القدير • وأنها فى حاجة الى رجل يكون مركزا لاشعاع الوحدة القومية ويتميز بالايمان العميق بالصواب والخطأ من الوجهة الاخلاقية • والى رجل عسكرى‌سياسى يفضل هذا الاتجاه عن التصرفات السياسية أو العسكرية المحضة • رجل يؤمن بالديمقراطية فى أعماقه ولا يخشى أن يوفر للأمة زعامة قد تكون فى حاجة ماسة لها فى القريب العاجل • وكان مينجر يعرف ذلك أكثر من غيره وكان اختياره فى اطار من الحكمة والعناية • حيث لم يكن فى حاجة الى جندى محترف • بل الى رجل المليشيا من صميم الشعب يكون موضع ثقة من الامة ويمتاز بالاحترام من جيران سويسرا من صانعى الحرب • ولم

تكن له ثقة في زملائه الوزراء للقيام بهذه المهمة لاعتقاده أنهم أول من يرتكبون الاخطاء•ذلك لانه استطاع أن يلاحظ جفاء الالمان وسوء معاملتهم للحكومة الفدرالية السويسرية طيلة الست السنوات الماضية • وكان يتلهف لادخال عنصر أقوى أثرا في ذلك النزاع ويفوق ما يستطيع السياسيون القيام به • فرأىأن جيسان هو الرجل المناسب لما كان يجول بخاطره • وقليل من أعضاء المجلس الـ ٢٠٤ الذى انتخبوا الجنرال كان يساور أذهانهم شيء من الارتباك • وكانوا على استعداد لقبول رأى مينجر ونصيحته بالرغم من وجود كثيرين احتفظوا بآرائهم الشخصية حول صلاحية جيسان •

وهكذا انتخب جيسان وتسلم مهام منصبه كما تسلم توجيهاته من المجلس الفدرالى بأوسع حدود ممكنة وكان رائده ومستشاره فى تلك المرحلة الحرجة رئيسه المدنى رودلف مينجر • ففى أول مشاورات لهما برز الاتجاه الاساسى الذى كان على جيسان أن يسلكه تجاه أى تهديد يوجه الى سيادة سويسرا أو استقلالها أو حيادها والتخلى الملحوظ عن تلبية مطالب الالمان العديدة كلما استطاع الى ذلك سبيلا • والتى اعتادت الحكومة أن تتلقاها لعدة سنوات •

وأوضحتالحكومة السويسرية هذا الاتجاه الجديد فى اعلانها للحكومات الفرنسية والالمانية والايطالية فى اليوم التالى لتعيين جيسان • وأعلنت الحكومة السويسرية فى جرأة أنها سوف تعمل بنفسها على ضمان حيادها فى جميع الظروف•وغضب هتلر لهذا الاعلان المحدد المعالم غضبا شديدا• وأخذ يتساءل : ألم يقنع السويسريون بتأكيداته المتكررة بأنه سوف يقوم بحماية حياد بلادهم • وهل لم يثقوا فى قوله ؟ وكذلك الوزير السويسرى فى برلين لم يكن مسرورا لهذه النغمة الجديدة التى كانت موضع اثارة واستياء لدى الالمان •

ولكن كان هذا الآن فى يوم ٣١ أغسطس وفى اليوم التالى بعد أن جاءت أنباء الغزو الالمانى لبولندة أسرعت الحكومة الفدرالية والجنرال جيسان باصدار الاوامر بالتعبئة العامة لجميع السكان من الذكور• وكانت هذه ـ ولو أن قليلا من الناس أدركوا ذلك ـ أول رمية فى حلبة المقامرة التى لجأ اليها جيسان لمعرفة وسائل التمويه التى اتخذها هتلر وأصحابه•

وبدأ يوضح رأيه الجديد فى ايجاز حول دور الجيش السويسرى لكى يتحول الامر الى مناقشة عسكرية حامية ترهب الامم المحاربة وخاصة هتلر وتصرفهم عن المساس بحياد سويسرا ٠

ولكن عند ما بدأ جيسان فى تطبيق الصيغة التى قر رأيه عليها قوبل بصدمتين قلبتا جميع تقديراته الاولية ٠ وكان أن أرغم على السير موفقا فى طريق التمويه على هتلر والالمان حول مقدرة السويسريين على الدفاع عن حيادهم ٠ وقد كان فى حاجة الى فترة من الوقت ــ فترة طويلة ومع ذلك كانت أمامه مفاجأة غير متوقعة وغير سارة مخبأة له فى طيات الزمن٠

٢

صدمة السويسريين

كانت حالة الطقس قد تحسنت • وفي أواخر الصيف صادفت نهاية الاسبوع يوما لطيفا تهب فيه نسمات رقاق عندما تقدم الاربعمائة ألف رجل من رجل من المليشيا السويسريين الى وحداتهم مزودين بالعتاد والبنادق والذخيرة وكذلك الفرسان ومعهم خيولهم • وللمرة الثانيةلاحظ المراقبون الاجانب كيف تمت التعبئة العامة لسكان سويسرا من الذكور ممن هم فى سن التجنيد فى سرعة وبنظام دقيق • وشمل الاعفاء من الخدمة عددا قليلا • حتى اذا اقبل الليل كانت سويسرا ــ أكثر من أى دولة أخرى من الدول المحاربة ــ قد تحولت من مقر ليقصده السائحون الى تكنات عسكرية • أو هذا ما كان يبدو ــ على الاقل ــ فى نظر ذلك الجزء من العالم . حيث القوم لم تكن قد شغلتهم شئونهم الخاصة كثيرا • وكذلك كان هذا مابدا أو لمعظم سكان سويسرا • وفى برن كان الجنرال مع أركان حربه منهمكين فى مشاكل التعبئة العاجلة • ولم يتسع لهم الوقت لتقدير الاهداف البعيدة ولم يشغلوا اذهانهم كثيرا بالتفكير فى هذا الصدد •

ولم يمضى وقت طويل حتى تبين لجيسان وجود فجوة رهيبة فيما قام به من عرض رائع لاستعداد السويسريين • وسرعان ما أدرك ــ من حيث الدفاع الوطنى العاجل ــ أن الاجراءات العسكرية الخاصة بالتعبئة التى نالت ثناء كبيرا لم تكن سوى ضرب من الاوهام أو تزيد قليلا • فقد كان الجيش بالرغم من تعبئته وتسليحه التام ليس على أهبة الاستعداد لخوض غمار الحرب • فيما عدا الوحدات الخاصة المكونة من مائة ألف من القوات القوية على الحدود • ولكن حتى هؤلاء وبقية أفراد الجيش كانوا فى حاجة الى التوجيه العملى • وفى الواقع كانت التعبئة بأكملها قد تمت فى مدار واسع من وحى عقائدهم • ولو أن الالمان أو الفرنسيين جاسوا خلال الاراضى السويسرية وقت نشوب الحرب لما تمكن الجيش السويسرى الكامل التعبئة بسبب ظروفه وأعداده للقتال من الاشتباك فى حرب ولم تكن فىاستطاعته مقاومة الغزاة •

وكانت صدمة كبيرة شعر بها جيسان فى اعماقه عندما اكتشف انليس هناك خطة واحدة للسير بمقتضاها ـ ولاحتى مسودة لها ـ أمام الجيش السويسرى • ولم يكن هناك مجال لاعداد خطط مرسومة لمواجهة الطوارىء المحتملة • ولم يوفقوا الى نظريات أو فروض للاجراءات التى يجب اتخاذها اذا أقدم الالمان على مهاجمة الفرنسيين من خلال ثغرة بال Basle فى نهاية الارض السويسرية على خط ماجينو • وتوقع أركان حرب الجيش الفرنسى مثل هذا الهجوم واتخذوا الاحتياطات اللازمة لذلك على وجه السرعة • وكان السويسريون على النقيض من ذلك •

وفى الحال أمر جيسان أركان حربه باعداد خطط مرسومة لمواجهة أمرين اساسيين من الممكن وقوعهما : أحدهما «القطاع الغربى» حيثتوجه القوات ضد محاولة فرنسية ممكنة لاغاثة بولندة فيما تعانيه من وطأة شديدة • وذلك بالقيام بهجوم مفاجىء على قلب الاراضى الالمانية • وتزحف القوات على طول المحور من ليون الى ميونخ • ثم يخترق الفرنسيونالاراضى السويسرية المنخفضة لمد جناح جيشهم بعيدا عن مراكز دفاع «السور الالمانى» الغربى • ولما مضى وقت لم يضع الفرنسيون فيه شيئا من هذا صرف السويسريون النظر عن هذا الاتجاه واعتبروا الامر تطوراتمحتملة • ووجهوا عناية كبيرة الى الاحتمال الثانى : وهو القطاعالشمالى ، حيثيخترق الالمان الاراضى السويسرية بقصد الوصول الى مؤخرة خط ماجينو وهى المنطقة الخالية من قوات تحميها • وهكذا كانت الاسس المشتركة لكل من الفرضين • حتى لايؤدى الغرض من الهجوم الفرنسى أو الالمانى الى التغلب على سويسرا واخضاعها باستخدام أراضيها لتحركات الجيوش نحو المناطق غير المحمية والواقعة على كل من خطى ماجينو وسيجفريد •

وبينما كان جيسان يمعن فى التفكير فى شئون الدفاع وحالته المحزنة بدأت تصل اليه تقارير المخابرات عن سرعة تقدم الألمانيينفىبولندة وحقيقة أمره • وعلى ضوء هذه التطورات الجديدة بدأ يعمل فى الحال مع أركان حربه وأعادة النظر فى تقدير موقف سويسرا • وكان قد انتهى من الاعدادات الاولية لارسال الجيش • ولكنه أدرك الآن عدم كفاية الجيش وخيبة آماله اذا ما واجه هجوما على نحو ماحدث فى بولنده • ذلك الهجوم الذى اشترك فيه الجيش وسلاح الطيران •

هذا وان كان الجندى السويسرى ـ وخاصة ضابط الصف ـ يعادل فى خشونته وتدريبه من أفضل جنود العالم الا انه كان ينقصه العتاد والسلاح ووسائل الدفاع المعدة • ولم تكن لديه العقيدة للاضطلاع بأساليب القتال

التى كشف عنها الالمان فى الشرق • وعلى ذلك لم تكن صدمة جيسان بسبب عدم استعداد أركان حربه واحتياجهم الى خطط مرسومة فحسب • بل كان أشد ازعاجا للحالة العامة للجيش وعدم استعداده لخوض غمار الحرب ومواجهة الموقف فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ • فما هى الفائدة من تعبئة سريعة كافية اذا لم تسفر عن جيش على استعداد للقتال ؟

ولكن جيسان لم يتحدث عن ذلك علنا فى هذا الوقت • وانتظر حتى بعد قيام الحرب مباشرة ، وكان عدم استعداد الحكومة وأركان حربه قد أصبح بمثابة صدمة كبيرة ومفاجأة محزنة له •

وزيادة على ذلك عندما بدأ جيسان فى معالجة هذه الازمة الدولية وجد أن عليه أيضا ان يكافح مع الحكومة الفدرالية حول وصفها لحياد سويسرا • ذلك التعريف المحكم الضيق الافق الذى كان السبب الحقيقى لعدم استعداد الجيش لميدان القتال • كما كان السبب فى عدم استعداد أركان الحرب من الوجهة النفسية والعملية • ولاسباب يعرفها هو أكثر من غيره لم يرتكن على هذه الصعوبة الكبرى فى «تقريره» الى المجلس الفدرالى بعد قيام الحرب وربما كان ينقصه الدليل اللازم لدعم حجته بالاسانيد • بينما أصبح من التقاليد تفسير هذا النزاع بين جيسان والحكومة على أنه أثير بين طرفين التزم كل منهما الامانة فى التمسك به • ولكن اختلفت العقائد اختلافا كبيرا حول الدور الذى قام به القائد العام • حتى ان بعض انصاره والاكثر ولاء له كانوا يظنون انه مخطىء فى دوره هذا • وأصبح من الواضح الآن فعلا ان امتناع الحكومة عن وضع أية خطط لم يكن راجعا الى أية اعتبارات عقائدية بل بسبب خوفها من ان يتهمها الالمان أو اصدقاؤها وعملاؤها فى سويسرا بانها لم تتخذ سبيل الحياد • وبالسبب ذاته توصلت الحكومة الى نتيجة منطقية من حيث ان الالمان سوف ينصبون لها العداء اذا أقدم السويسريون علنا على أقامة مراكز اخرى للدفاع على طول الحدود الالمانية والنمساوية • وعلى ذلك لم يفعل السويسريون شيئا فى هذا الصدد •

وهكذا كان الايمان العميق لمعظم اعضاء الحكومة الذى قيد حرية جيسان فى التصرف فى خريف سنة ١٩٣٩ بعد استيلاء الالمان على بولندة • لانه كان يعتقد اذ ذاك أن مراكز الدفاع الهامة الوحيدة هى التى تقام فى وجه أية غزوة المانية ممكنة • ولكن بسبب عقدة حياد الحكومة كان عليه أن يخفى تحركات قواته • وبذلك يقيد انشاء مراكز الدفاع التى وضعت تصميماتها ظاهرة لمواجهة هجوم ألمانى محتمل الوقوع • وكان الجيش

السويسرى فى ذلك الوقت لايستطيع منع الغزو الالمانى أو مقاومته مقاومة فعلية • وكل ما كان فى استطاعته أن يعرقل سير الالمان عبر الاراضى السويسرية • وحتى ذلك كان أمرا يعتوره الشك •

وعلى ذلك قرر جيسان – من حيث الوضع الخارجى – ان يوسع دائرة تفسيره العسكرى لحياد سويسرا بأكثر مما كانت الحكومة على استعداد لقبوله فى المجال السياسى • وطبقا لهذا قام بوضع الخطط واتخاذ الاجراءات التى تمكن القوات المسلحة الفرنسية من المبادرة فى الحال لمساعدة سويسرا اذا ما أقدم الالمان على انتهاك حياد البلاد • ثم أقام الاعدادات كلها فى القطاع الشمالى وجعل وجهة الجيش أولا نحو الشمال والشمال الشرقى • وامتدت القوات من حصن سارجان Sargans وهو المنفذ الشرقى الى جبال الالب وعلى طول Wallensee وبحيرة زيورخ الى جمبن Gempen فى خارج بال حيث تستطيع الاتصال بالجيش الفرنسى الثامن • واتقى جيسان شر الانتقادات فى برن بمشاورة السلطات الدستورية والدخول فى مناقشات شاملة لوضع الحدود للمساعدة الفرنسية دون انتهاك حياد سويسرا الذى لايتجزأ • ولكن قادة ألمانيا – لو كانوا يعلمون – لكان من الصعب أن يقبلوا فكرة هذا الحياد السويسرى (١) •

وقبل أن تسير هذه المناقشات شوطا بعيدا بدأ جيسان يعانى صدمته الخاصة الثانية – وهى الصدمة الكبرى التى أدت – أكثر من أى شىء آخر – الى ماكان يعده أمرا جوهريا وهو أعادة النظر فى الاستراتيجية السويسرية فقد كان فى مبدء الامر يشعر باحترام كبير للجيش الفرنسى وقادته • وبعاطفة عميقة نحو الفرنسيين مهما كثرت العقبات التى يستلزمها الحياد السويسرى • ولكنه عند مابقى فى مقر قيادته فى سبيز Spiez خلال الايام الاولى من سبتمبر انتظارا لاول تحركات الفرنسيين لمساعدة بولندة التى تعانى وطأة شديدة بدأ الجيش الفرنسى يبدو له فى ضوء جديد يكشف عن حقيقة موقفه حيث ظل – كما أوضح جيسان ذلك فيما بعد – مكتوف اليدين – فى تلك الآونة الشديدة الحرج ولم يقدم على فعل شىء لمساعدة حليفته بولندة • وتمكن جيسان فى آخر سبتمبر من الوصول الى معرفة النتائج وبدأ يدخل عدة تعديلات حاسمة عى طريقة تفكيرة حول الحرب •

---

(١) تبين للالمان كثير عن فكرة الحياد بعد سقوط فرنسا •

فقد وصلت اليه معلومات دقيقة حول الحالة في الجبهة الغربية ورأى ان الفرنسيين كانوا اسياد الموقف في الغرب كما تبين ذلك لتشرشل فيباريس قبل اسبوعين ٠

وفي الواقع كان تفوق الفرنسيين مذهلا أكثر مما تصور تشرشـل أو جيسان ٠ حيث كان مجموع ما لدى الالمان من الفرق خلال سبتمبر سنة ١٩٣٩ ـ ٣٣ فرقة بين آخن Aachen وبال لتغطية الجبهة الغربية ، ومن بينها كانت ثمانية فقط من الدرجة الاولى ، واحدى عشرة فرقة من الثلاث والثلاثين صالحة للعمل ، كما كان ينقصهم العتاد اللازم ، ومعظم القوات الاحتياطية من المشاه والمدفعية لم يسبق لها استخدام الذخـيرة الحية ، وكان معظم الضباط من المحاربين القدماء في الحرب العالمية الاولى وممن تزيد اعمارهم على أربعين سنة ٠ وكانت جملة الذخيرة الالمانية تكفي للقتال مدة ثلاثة أيام فقط ٠

وأمام هذه القوات التي تكونت في شيء من السرعة كان لدى الفرنسيين ٥٧ فرقة من المشـاة من الدرجة الاولى وخمس فـرق من الفرسـان وفرقتين من القوات الميكانيكية وفرقة من المدرعات و ٤٥ فرقة احتياطية في طريق التكوين ٠ والتي كانت في تكوينها وكفايتها أسرع من التعبئة الالمانية التي استغرقت عشرة أيام كاملة ٠ وكان جيسان يعلم عن هـذه الشئون قدرا كافيا ٠ وعلى ذلك قدر ان هجوما فرنسيا عنيفا سوف يشق طريقه نحو نهر الراين قبل أن تتمكن فرق الدرجة الاولى الالمانية الاربع والاربعون من انهاء معاركها في بولندة حيث الجبهة الشرقية ٠ والشيء الذي لم يكن يعرفه جيسان هو أنه لم تكن هناك أية فكرة ـ سواء في باريس أو لندن ـ عن الحاجة لمثل هذا الاجراء في مستهل الحرب ٠ بصرف النظر عن أن هذا كان أمرا ممكنا ٠

وكان العذر في تسوية ميونخ انها «اشترت الوقت» حيث ظهر حلفاء الغرب أمام الناس انهم مخادعون ٠ وكان الوقت هو آخر شيء أثار شعور السلطات العسكرية أو البريطانية بعد سقوط تشكوسلوفاكيا كحليفة لها قدرها ٠ وبدأت المحادثات البريطانية الفرنسية تسير في بطء بعد مضي ستة أشهر من احتلال هتلر لبراج ٠ وعلم الفرنسيون في مارس سنة ١٩٣٩ أن اشتراك البريطانيين في الدفاع عن فرنسا سوف يكون بفرقتين نظاميتين يمكن أعدادهما في الحال وبفرقتين أخريين في مدى أحد عشر شهرا ٠ وكان هذا مقدار تعويض فرنسا عن خسارة الاربعين فرقة التشيكية ٠

ثم ان الهيئات الفرنسية البريطانية المشتركة أدخلت فى تقديراتها أنه من الممكن أن تقوم ألمانيا بمهاجمة بولندة ولكنهـا استنتجت أنه من غـير المحتمل ان تشن ألمانيا هجوما على فرنسا حتى انتهائها من معركة بولندة ٠ وليس في صفحات سجلات تلك الهيئات مايدل على أنه كان من الممكن أن تتدخل فرنسا وبريطانيا فى تلك المرحلة المبكرة «فترة انتهاء معارك بولندة والتخلى عنها» ٠

ولم يطرأ أى تغيير على وجهة نظر الفرنسيين والبريطانيين من حيثقرب نشوب الحرب ٠ وعلى ذلك فى ٢٣ أغسطس عندما دعا رئيس وزراء فرنسا دالادييه رؤساء الهيئات الى عقد مؤتمر مع اعضـاء وزارته سئل القـائد الفرنسى جنرال جاملين عن رأيه فى مدى قدرة بولنده على المقاومة فأجاب انه يعتقد ان بولندة سوف تجاهد وتقاوم بكل أمانة ٠ وهذا ماسوفيعوق القوات الالمانية باجمعها من مهاجمة فرنسا قبل الربيع القادم حيث تكون بريطانيا العظمى فى جانبها ٠ وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بعد قيام الحرب بأسبوع كتب رئيس وزراء بريطانيا نيفيل تشامبرلين الى اخته عن أرائه ووجهة نظره المقبلة (وربما قامت هذه الاراء على أساس النتائج التىتوصل اليها مستشاروه العسكريون) : وأوضح قائلا «ان أملى ليس نصرا عسكريا لانى أرتاب كثيرا فى تحقيق هذا ولكنى آمل فى انقلاب يتناول جبهة الوطن الالمانى ٠٠ وعلى هذه النظرية يجب على الانسان أن يقدر كل عمل عـلى ضوء تأثيره المحتمل على العقلية الالمانية ٠ وانى آمل شخصيا اننا لن نبدأ فى القاء القنابل على مراكز تموينهم وعلى الاهداف فى المدن الا اذا بدأوا بذلك »

وهنا لانجد عزاء للبولنديين المتراجعين أو المدافعين عن وارسو الذين كانوا على حافة الخذلان المبين ٠

وعلى الخطوط الجانبية ـ وهكذا يمكن القول ـ كان جيسان فى مقر قيادته الجديدة فى اسبيز على بحيرة ثون Thun لايدرى الا القليل عن هذه المشاعر الداخلية التى تجول بخواطر الحلفاء ٠ ولكنه رأى بمزيد من القلق ٠ الافلاس الظاهر لاستراتيجية الحلفاء ٠ والفشل فى انتهاز الفرصة التى كانت فى متناول ايديهم ـ وهى جبهة غربية ألمانية مترامية الاطراف يقابلها عـدم الاكتراث وقبول مصير بولندة ٠ فأخذ يمعن فى التفكير فى التورطات التى أسفر عنها الاتجاه السلبى للحلفاء ٠ وهداه تفكيره الى اعادة النظر ـ بصورة حاسمة لامفر منها ـ فى خططه التى رسمها للدفاع عن سويسرا ٠ ورأى

أن الموقف الآن بعد تدهور بولندة وعلى ضوء احجام الحلفاء عن القيام بعمل في مراحل متتالية لايعني سوى شيء واحد فيما يتعلق بالسويسريين ـ وهو انهم لن يعتمدوا بعد ذلك على أى نوع من المساعدة أو التأييد من ناحية الحلفاء اذا ما أقدم الالمان على غزو سويسرا • فقد يستعد الحلفاء لذلك ولكن لا ينبغي الاخذ به • وللمرة الثانية لعب السيف دوره في تغيير فكرة الحياد •

وأول خطة رئيسية لجيسان اتم اعدادها في ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، وكانت هذه حول « القطاع الشمالى » حيث جبهة العدوان الالمانى . ووضع عليها بعض لمسات اضافية بعد ما بدا له من تقاعس الحلفاء • وأضمر في نفسه الاستعداد لمشاورة القيادة الفرنسية في حالة غزو ألمانى • ومشاورة فيرماخت Wehrmacht في حالة هجوم فرنسى ممكن • ولكن غير محتمل • ولكن لم تعد له ثقة كبيرة فيما ينجم عن مثل هذه المساعدة • ولم يكن يشعر بارتياح كثير من هذه الناحية فيما يتعلق بشئونةالسويسرية وكانت الخبرة الماضية هي التي تسود أفراد الجيش • ويسير على نهج الدروس التي تلقاها في الحرب العالمية الاولى وبمقتضى ألوان التدريب التقليدية • وكانت هيئة أركان حربه تؤيد هذا المظهر بدلا من تصحيح أوضاعه • وكان رئيسها قائد الفيلق جاكوب لابهارد ـ وهو جندى قدير من المدرسة القديمة ـ أول المؤيدين • وكلهم رجال في عمر جيسان أو يزيدون •

وفي الميدان لم تكن نقط الدفاع الطبيعية أحسن حالا • وباستثناء الحصون التقليدية الثلاثة ـ سارجانس في الشرق • وسانت موريس في الغرب • وسانت جوثارد في قلب جبال الالب • لم تكن هناك اجهزة نظامية للدفاع في الميدان • ولم تتيسر الوسائل الكافية لاعداد كمين للدبابات ووضع المركبات المسلحة واخفائها • ولا وسائل للدفاع المضاد للطائرات تستحق أن تذكر حيث لم تكن في مستوى الطرق الحديثة للهجوم التي انتهجها الالمان في غزو بولندة • وكانت ادارة مخابرات الجيش الرسمية برئاسة كولونيل ماسون تتألف من هذا الضابط الكبير بمفرده • وكان مجموع الموظفين خمسة في خريف سنة ١٩٣٨ • وميزانية المخابرات العسكرية حتى صيف سنة ١٩٣٩ أى حتى اسابيع قليلة قبل نشوب الحرب كانت تتراوح بين ٢٠٠٠ ج و ٢٥٠٠ ج سنويا . وبعد أزمة ميونخ زيدت هيئة المخابرات من خمسة رجال الى ستة • وبعد أن شن الالمان هجومهم على بولندة ازداد عددهم فأصبح عشرة رجال . وأصبح لدى ماسون ميزانية معقولة ولكنها مازالت غير كافية حيث كانت عشرين ألف جنيه في السنة •

وحصل ماسون على ماهو أكبر قيمة من المال حيث اتخذت المخابرات الحربية فيسويسرا ـ بنفوذجيسان ـ صورة مماثلة لمنظمةخاصة للمخابرات أقامها في السنوات ماقبل الحرب مجموعة من شباب الضباط ومن المنفيين المعادين للنازى • وكان يمولها ـ على نطاق واسع ـ رائدها القوى ميجر هوسافان من تفن Teufen بالقرب من سان جال Gallan وكانت تعرف في دوائر الجيش باسم «مكتب ها» Bureau Ha [1] ولما نشبت الحرب اندمج المكتب مع منظمة مخابرات الجيش وامتدت أوجه نشاطه • ولكنه واصل المحافظة على كيانة المستقل وأعماله المميزة • وكانت هذه المنظمة المنشأة لهذا الغرض والتى تفتق عنها ذهن جندى من المواطنين يدين بمبادئه ولايهدأ له بال • هى التى وضعت فى خدمة جيسان واصبحت تخطره ـ فى دقة ـ بسير الاحداث •

تقبل جيسان « المكتب ها » وتبناه وعنى به ووافق على امتداد نشاطه • ولم يكن هذا بالشيء الكثير كخطوة تمهيدية من جانب الحكومة فقد بدأ العبء الثقيل يقع فى ازدياد على كاهل قائد الجيش وكان عليه ان يسير فى حرص وعناية ، حيث كان له خصوم اشداء فى الحكومة وفى صفوف الجيش وعلى ذلك اتخذ سبيل الحكمة وأخذ يدعم اجراءاته من حيث الدفاع عنالبلاد فهذه شئون من الصعب جدا المنازعة حولها • وبدىء فى أقامة حصون الدفاع • أصبح الجنود يرون فى كل مكان منهمكين فى حفر الخنادق والمستودعات أو المساعدة فى انشائها • وفى ٤ أكتوبر صدر أول توجيه واضح الى القوات بأن عليهم ان يقفوا ويقاتلوا اينما وجدوا اذا ماشن عليهم هجوم مفاجيء • وان ليس هناك تقهقر أو تسليم • بل يجب استخدام كل رصاصة حتى اذا نفذ مالديهم كان على الرجال أن يقاتلوا بالسيف وشتى الأسلحة •

واستجابت القوات لهذا الصوت الجديد المسيطر الذى عرف مطالبه • وفى الوقت نفسه بدأ جويسان يعد حركة واسعة لاعادة انشاء رتب عالية فى الجيش • فلم يكن الجيش فى حاجة الى الجديد من الاسلحة ونقط الدفاع والعقيدة فحسب بل كان فى حاجة قصوى الى رجال يتولون مراكز القيادة ولم يكن من السهل اتخاذ قرار كهذا فمن المؤلم التخلى عن صداقة رجال كانوا زملاء له فى الجيش طيلة حياته • ولكن جيسان جبل على أنه متى وصل الى قرار فأنه لن يخشى ان يتابعه حتىنهايته المنطقية • وكان للواجب معنى سام لا تعوقه الاعتبارات الشخصية أو التزامات « عهد الصبا » •

---

(١) للحصول على وصف أكمل «للمكتب ها» انظر الفصل الخامس صحائف ٨٣ ـ ٨٤ •

ومن المحتمل ان يكون أصعب قرار والاكثر التصاقا به فى حياته هو ما اتخذه مع معاصريه في ذلك الوقت • اذ كان عليه أن يفكر مليا فى تعاونه مع الحكومة الفيدرالية وتوصل الى رأى بأنه كلما كان أكثر استقلالا وأقل تقييدا بما تنتهجه الحكومة من الجبن والتردد والحرص كلما كان قادرا على القيام بمهمته •

وطبقا لذلك تم اعداد تخطيط للموقف، وشجعت ادارة المخابرات الجديدة ووضعت الخطط لاعادة انشاء القيادة العليا دون مشاورات رسمية مع الحكومة الفدرالية ولو أن جيسان كان على اتصال دائم ــ بصفة شخصية ــ مع صديقة مينجر رئيس الادارة العسكرية • وكلما توالت ملاحظات جيسان لسير الاحداث خلال ذلك الخريف كلما ازداد ايمانا بنقص جميع أجهزة الدفاع السويسرية بما فى ذلك ما أدخله عليها من تعديلات عاجلة • ولما أخذ يلاحظ ويفكر مليا فى حالة الجيش أصبح يشعر بقلق وازعاج متزايد لما تبين له من ضعف الحكومة المركزية ونشاط العملاء الالمان فى سويسرا • كما أن تلك الفرق الالمانية ــ وان كانت بطيئة فى تحركاتها ــ قد تكتلت على طول الجبهة الغربية على مسافة قليلة من الحدود السويسرية مما دعا جيسان أن يستنتج أنه ينبغى له أن يصنع شيئا أكثر من عرقلة الالمان لبضعة أيام اذا أراد انقاذ سويسرا من الحرب والغزو • فكان عليه أن يتخذ اجراءات فعالة تكفى لتخويف الالمان ورجوعهم عن أية رغبة فى الاشتباك مع السويسريين • ولكن هل يستطيعون ذلك ؟ •

أدرك جيسان أن «قطاعه الشمالى» ليس الجواب على هذا السؤال • انه شىء جميل ان يأمر الجيش بالوقوف والقتال • ولكن هل يستطيع • واذا استطاع هل يقوم بذلك • وماذا يتم لو استجاب للأمر ؟ ولم يكن جيسان وحده الذى يرغب فى معرفة الجواب • فقد كانت المجموعات الالمانيــة والاحزاب الموالية للالمان تعمل علنا وفى ثقة وعلى نطاق واسع • وكانت البلاد منقسمة على نفسها ــ حكومة ضعيفة فى حيرة من أمرها • والجمهور والجيش يسودهم القلق وتوتر الاعصاب • فكان الموقف مجهزا للالمان للقيام بأعمال التخريب وكان الالمان على استعداد لذلك •

ومن المستحسن ان نضع هذا الموقف وتلك الاعتبارات نصب أعيننا • لانها كانت القسم الحاسم من جدول أعمال جيسان طيلة سنى الحرب • وكانت بالغة الاهمية بوصفها الجانب العسكرى المحض من مشكلته • كما كانت تعد أكثر الفنون ارشادا له • تلك الفنون التى استخدمها جيسان

لبلبلة أفكار الالمان ولتوحيد صفوف الامة لحمايتها من ذلك الجيش الجرار المختفيء داخل البلاد ٠ وكان ذلك الاتجاه درسا هادفا للسويسريين وأكبر نفعا للجيل القادم لان هذه المقدرة على خلق أمة متحدة كانت الخطوة الاولى لبقاء الديمقراطية بين عواصف التطورات الثورية فى السنين التى تلت الحرب والتى بلغت ذروتها أبان سنة ١٩٦٠ ٠

وقد تجمع فى هذا الشتاء سنة ١٩٣٩ فى سويسرا جيش سرى هائل من الالمان : قوامه عملاء وجواسيس ومخربون وأفراد للدعاية ومحرضون فى الخفاء ومتحمسون وأقارب عائلات المانية وانصار سياسيون وعسكريون يؤيدون هتلر في مشروعه «أوروبا الجديدة ٠ ومن نواحى كثيرة كانت هذه المنظمات السرية صالحة للعمل فى سويسرا أكثر من اى دولة أخرى عدا النمسا التى كانت تعد مثالا لهذا العمل ٠

ذلك لانه من بين أربعة ملايين ونصف من السويسريين كان هناك نحو من اربعمائة ألف من الاجانب نصفهم من الالمان ٠ وسجل آخر احصاء سنة ١٩٣٠ مائة واربعة وخمسين ألف من الالمانْ ٠ حتى سنة ١٩٣٩ ازداد عددهم زيادة كبيرة باللاجئين الالمان الذين كان من غير المحتمل ان يكونوا فى جانب الاشتراكيين الوطنيين عن طيب خاطر ٠ ولكن لم يكن هناك عجز فيمن يشعرون بالعطف ٠ وادعى الالمان انه كان لديهم ثلاثون ألفا من المواطنين المقيمين فى سويسرا عندما بلغ انتصار الالمان ذروته سنة ١٩٤١ ٠ ولكن السويسريين خفضوا هذا الرقم الى ٢٥ ألف ، وعلى أية حال كان هناك نحو من ستة عشر ألف من الالمان ممن هم فى سن التجنيد فى سويسرا ٠وقامت بتسجيلهم وتنظيمهم البعثات القنصلية الالمانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ٠ وبالرغم من الضغط على القوى العاملة فى ألمانيا فى السنين التالية فقد استدعى ثلاثة آلاف من هؤلاء الرجال فقط للخدمة العسكرية فى ألمانيا ٠ وظلت مجموعة من اثنى عشر الى ثلاثة عشر ألف الماني باقية فى سويسرا بأمر من القيادة العليا ٠ وسواء بطريق الحظ أو كان أمرا مدبرا ان تركزوا فى أهم المواقع الاستراتيجية المعروفة ٠ وزيادة على ذلك لاحظت الجاسوسية السويسرية المضادة أن هؤلاء الذين استدعوا للخدمة فى ألمانيا لم يكن بينهم أفراد من ذوى النشاط الملحوظ أو من العناصر الهامة من الاشتراكيين الوطنيين المقيمين فى سويسرا ٠ وأكثر من هذا كان أعضاء الحزب البارزين والمثيرين للاضطرابات يسمح لهم بمغادرة ألمانيا أثناء الحرب ويصرح لهم بالاقامة فى سويسرا ٠ كمالم يعزب عن البال أن فى هذا الشتاء الاول من

الحرب كانت المستعمرات الالمانية المنظمة تضم رجالا بالغين ونساء موزعين كما يلى :

على الحدود فى بال	٥٠٠٠
« « « كروز لنجن	٦٠٠
« « « رورشاش	٦٠٠
« « « اسكافهوزن	٦٠٠
« « « جنيف	١٢٠٠
قرب « « سانت جالن	٢٤٠٠
فى العاصمة فى برن	١٢٠٠
فى قلب المنطقة الصناعية فى البلاد فى زيورخ	٦٨٠٠
فى لوسيرن على باب الطريق الى الالب	١٢٠٠

وعلى ذلك كان هناك ما يعادل أكثر من فرقة ألمانية كاملة موزعة على التسع النقط الحساسة فى مواقع الدفاع السويسرية • ولم يزد هذا عن المجموعة القوية التى انشأت منها القيادة الالمانية العليا نواة لعملائها ووكالتها المنظمة فى سويسرا (وكان الطلبة أكثرهم نشاطا) وهذا النشاط التخريبى الممكن الوقوع من جانب الالمان فى سويسرا اتسعت دائرته بما يبذله المشفقون من السويسريين عليهم • المتطرفون منهم والعاديون والعاملون منهم والذين لايعملون • كما لم يكن من السهل فى ذلك الوقت (قبل مهاجمة النرويج والدينمارك وهولندة وبلجيكا) أن يتسنى للحكومة السويسرية تقدير الخطر تقديرا تاما بعد قيام الحرب • وكل ما تبين لجيسان هو الدليل على الكتلة النازية فى سويسرا وقاعدتها الضخمة المختفية عن الانظار منذ أن منعت الحكومة السويسرية الحزب النازى الرسمى من القيام بتنظيم الالمان علنا فى سويسرا • وجاء هذا على أثر اغتيال ولهلم جستلوف Gustloff زعيم القسم السويسرى فى الحزب الاشتراكى الوطنى فى ٤ فبراير سنة ١٩٣٦ وكان اغتياله بمعرفة دافيد فرانكفورتر وهو شاب يهودى من اللاجئين (١)

وفى ذلك الوقت قدرت السلطات السويسرية ان هناك ٦٦ من المجموعات المحلية المنظمة تتألف من حزب النازى وشباب هتلر فى سويسرا • وان حزب النازى تتكون عضويته المنظمة من نحو خمسة آلاف من الاعضاء •

---

(١) وهو الآن كيماوى يعمل فى وزارة الدفاع الاسرائيلية فى تل ابيب •

حتى سنة ١٩٤٠ ازداد اعضاء الحزب زيادة ملحوظة واتخذت الاجراءات لكى يكون بعيدا عن رقابة السلطات السويسرية • ووضعت المنظمة بأكملها تحت حماية السفارة الالمانية فى برن والقنصليات الالمانية المحلية فى المراكز السويسرية الرئيسية كستار لنشاطها ثم ان مستشار السفارة فى برن ــ فريهر فون ببرا Bibra لم يحاول اخفاء مسئوليته عن الالمان جميعا وعن المصالح الخاصة للحزب النازى فى سويسرا •

والشىء الذى كان سرا مخفيا هو الحلقة التى تربط بين نشاط ببراواولئك السويسريين الذين يؤيدون ألمانيا الاشتراكية الوطنية ويعطفون عليها • فقد كان هذا ستارا لجميع أنواع النشاط من التخريب عن طريق التجسس الى القيام بالدعايات التى كانت أهم معدات الاشتراكية الوطنية ــ «دبلوماسية الدعاية» المعتادة • فمن ناحية قام الفوهرر ووزارة الخارجية باعطاء تأكيدات مشددة الى الزوار السويسريين ممن يميلون الى تصديق مايقال والى الوزير السويسرى فى برلين ــ ولم يكن من الصعب خداعه أن الريخ الثالث سوف يحترم حياد سويسرا واستقلالها • ومن ناحية أخرى لم يتورع رجال الدعاية من الالمان وموظفو حزب النازى عن الاعراب عن ان السويسريين سوف يكون مصيرهم جزءا من نظام أوروبا الجديد • وأن الالمـان السويسريين سـوف ينلمجون كولاية فى الريخ التابعون له •

قبل هذا الوضع السياسى أقلية من السويسريين فى أولى سنوات الحرب حيث كان يعد مساعدة طفيفة للالمانيين فى عملهم فى سويسرا • وأكد الالمان لعملائهم من السويسريين وجواسيسهم والمتعاونين معهم أنهم لايسلكـون سبيل الخيانة فى أعمالهم ، ولكن لضمان مقعد صدق للسويسريين فى أوروبا الجديدة يضع حدا للاخطار المحتملة من الشيوعية وجماعة الاخوان السرية واليهود ونقابات العمال • وفى نظرهم ونظر الاقلية المتزايدة من مواطنيهم انهم وطنيون صادقون • ونشط الالمان فى حزم يشجعونهم فى وجهة نظرهم وفى أعمالهم الخفية • وكونوا صفا من المنظمات والحركات للتصويت لصالح وضع سويسرا الجديد كرفيقة أو شريكة أو جزء من الريخ الالمانى الاعظم •

ولكن من الغريب كما يبدو أن معظم التأييد الفعال لهذه الحركات جاء من ناحية الفرنسيين أكثر من القطاع الالمانى فى سويسرا • وقليل من عائلات النبلاء فى جنيف ولوزان وكثير ممن أقل منهم مقاما ساورهم الخوف من الجبهة المعروفة فى فرنسا تحت قيادة ليون بلوم وتقدمها السريع ثم ترديدها

المؤلم بالقرب من الوطن • وبدا هتلر فى نظر الفئات المتقدمة فى سويسرا الفرنسية أقل شرا من ليون بلوم • كما ظهر بيتان فى صورة المنقذ فيما بعـد •

وتم القلق الذى كان عبئا ثقيلا على جيسان وزملائه بقيـام حركة وان كانت صغيرة نسبيا الا انها كانت حركة صاخبة لها نشاط ملحوظ فى سويسرا الايطالية وتعضد ضم الاجزاء التى يتحدث أهلها بالايطالية الى أيطاليا • وتعاون القائمون بالحركة تعاونا وثيقا مع السـلطات الايطاليـة الفاشية لتحقيق هذا الغرض •

هكذا كانت مجريات الامور فى سويسرا ولكنها لم تكن نهاية الجهود الالمانية والايطالية بصفة قاطعة • فقد كانت ألمانيا تريد شيئا أكثر فاعليـة من حركات سياسية تقوم بها فئات المشفقين والمؤيدين مهما كانت كفاية تنظيمها كانت تريد جهازا داخل سويسرا تستطيع أن توجهه وتراقبه من الاراضى الالمانية ـ جهازا يكون فى الواقع جزءا من المخابرات الالمانية واداة مباشرة لها • وانشأوا هذا الجهاز مع مقر قيادة فى استوتجارت ليكون فى متناول يدهم وملاصقا للحدود السويسرية •

وأصبح مقر بانوراما Panorama Home وهو عبارة عن فيللا فى مكان هادىء بعيد فى استوتجارت مقر القيادة الخاصة بهذا الغرض وحلقة الاتصال بين خطة النازى المدبرة لاضعاف مقاومة سويسرا واستقلالها • وبين المنظمات العديدة والافراد فى سويسرا سواء من الالمـان أو السويسريين • والذين يعلمون والذين لايعلمون • والابرياء والمذنبون • والوطنيون والخونة • ممن كانوا يعملون على تدعيم المصالح الالمانية التى أثبتت ـ عن قصد أو غـير قصد ـ انها تعادل المصالح الوطنية السويسرية •

وكل هذا بطبيعة الحال كان من عمل هتلر • بعضه فى الحكومة وبعضه فى الجيش وفى مجال الصناعة والمهن وفى ميدان التجارة والتعليم كما كان فى ميدان السياسة والصحافة • وبعض نشاطه كان على مستوى عال وأكثره على مستوى منخفض • وسـوف تتوافر لنـا أدلة كثيرة لكى نشـير الى المعارك فى هذه الجبهة وكيف تغلب جيسان على الخطر الذى كان يهدده •

وقبل أن يفعل ذلك كان ٢٨٣ من السويسريين و ١٤٢ من الالمان واربعون آخرون من الاجانب الذين كانوا يعملون لصالح المحور قد حكم عليهم أمـا

بالاعدام أو بالسجن الطويل المدى بتهمة الخيانة أو التجسس · وحكم على خمسة عشر سويسريا واثنين من الاجانب بالاعدام · كما حكم بالنفى على كثير من الالمان أو استبدلوا بالسويسريين المحجوزين فى ألمانيا · واعتقل مايزيد عن الالف وحوكموا الجرائم مماثلة ضد أمن الدولة · ولكن ينبغى لنا ألا نتعجل الاحداث · فقد كان جيسان يجهل فى ذلك الوقت ما خبأته له الايام · أو مدى توغل الالمان ونشاطهم التخريبى · وكل ماكان يدركه انه لايستطيع أن يثق بجبهة بلاده · وسرعان ما ثبت لديه مايخامره من شكوك ومخاوف ·

ثم ان جيسان كان يعمل بالرغم من الركود الذى ساد الجبهة الغربية · فقد جاء بجيل جديد من شباب الضباط ووضعهم فى مراكز رئيسية · رجال فى الثلاثين والاربعين من أعمارهم للعمل معه وهو الذى يكبرهم بمقدار جيل آخر · ومن البارزين منهم جونارد وكونستام · وكان اختياره لمنصب رئيس أركان حرب الجيش ظاهرة ملحوظة حيث استبدل الرئيس السابق كولونيل لابهارت برجل فى مثل سنه وهو كولونيل الفرقة هوبر الضابط المعروف بهدوء الطبع · والذى كان فى نظر جيسـان رجلا مثاليا · وقام بمهمته دون مضايقة جيسان لغير حاجة · كما كان يدرك ما يريده جيسان دون انتظار لتعليمات مفصلة وينفذ رغباته وخططه كما يتراءى له فى ولاء مثالى لرئيسه · ولم يكن يسعى الى التظاهر أو يميل الى الثناء · فاعطى كل ما لديه لجيسان وكان هذا محظوظا وسعيدا بمثل هـذا الرجل كصـديق ومستشار له بجانب رئاسته لهيئة أركان الحرب · وأخذا يعملان معا ويفكران فى جعل سويسرا دولة مرهوبة الجانب · ولكن هل كان هناك متسع من الوقت ؟

كانت الحرب فى الغرب تبدو فى حالة ركود · ولكن ليس الجيش الالمانى ولا دعاياته وألوان التخريب المصوبة نحو سويسرا · وكان هنـاك نذير بالخطر فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ حيث نصحت القيادة العليا الفرنسية جيسان بانهم يتوقعون هجوما ألمانيا فى أية لحظة وقد يشمل سويسرا فى نفس الوقت · وبالفعل تحركت قوات فرنسية هائلة استعدادا لدخول سويسرا فى أقليم بال لمواجهة الغزو الالمانى المرتقب · وكان هذا مثارا للقلق فى نفس جيسان · وخشى أن الفرنسيين قد ذهبوا فى تكهناتهم شأوا بعيدا وخيل اليهم أن يتحركوا الى سويسرا قبل الالمان ليتسنى لهم ايقاف الزحف الالمانى فى حينه · فحذر الفرنسيين الذين كانوا تحت تأثير أن السويسريين سوف يرحبون بهذا التدخل الفرنسى بأن القوات المسلحة السويسرية سوف

تقاوم أى انتهاك لحياد سويسرا سواء بدأ به الالمان أو الفرنسيون • ولكن مخابرات جيسان أكدت له أن الفوهرر قام بتأجيل العدوان المرسوم ثانية وهذه مرة من التسع والعشرين التى ألغى فيها الزحف نحو الغرب والتى سبقت هجوم ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ • وأوضحت القيادة العليا الفرنسية أن تحركات القوات لم تكن أكثر من تمرينات تدريبية • وقبل جيسان هـذا التفسير ولكنه عرف حقيقة الامر •

مضى الشتاء ولكن قبل أن يمر فصل الربيع قامت المخابرات السويسرية باخطار الجنرال عن مواصلة العمل فى أقامة جبهة المانية • وزيادة عـلى ذلك كانت هناك قوة كبيرة غير عادية تتجمع فى جنوب غرب ألمانيا وقدر عددها بثلاثين فرقة ارسلت لكى تستطيع الزحف غربا الى فرنسا أو الى الجهة الجنوبية الغربية الى سويسرا • وصادفت هذه الاعدادات حملة منظمة فى صحف ألمانيا بدأت فى فبراير سنة ١٩٤٠ وكانت تهدف لالقاء الشك على حقيقة وصدق الحياد السويسرى •

وهكذا لاحظ جيسان العلامات التى تسبق العاصفة ـ ازدياد اعمـال التخريب السرية ـ وتجمعات الجيوش الالمانية واتساع نطاق الدعاية ضد سويسرا • وأخذ رئيس المخابرات كولونيل ماسون يعمل على تبصرته فقد جاءه من عيونه المنبثة فى رئاسة قيادة هتلر انه من المؤكد أعداد هجوم على الدينمارك والنرويج قبل الهجوم الاساسى على فرنسا • وعلم جيسان بهذه الانباء ولكنه لم يكن مستعدا لتجاهل الدعاية الالمانية الموجهة ضـد سويسرا وكذلك تجمعات الجيوش • فقد تكون ذرا للرماد فى العيون وربما يكون لها أساس من الصحة •

وعاد جيسان الى أن يتساءل هل البـلاد والجيش على استعداد لدخول التجربة وهل الحكومة سوف توفر القيادة للبلاد التى هى فى حاجة ملحة اليها فى هذه الفترة الحاسمة • ولكنه لم يكن على يقين من شىء من هذا •

٣

الطريق إلى حصن الألب [1]

The Rood to the 'Reduit'

مع بوادر الربيع لفتت الدول المحاربة الانظار الى تحركاتها بما لا يقبل الشك • حيث انتهت الحرب في فنلندا بخضوع الفنلنديين الى العملاق السوفيتيي • ولكن استراتيجية المعركة عمت أرجاء اسكنديناوة • فقد أخذ الاعتقاد يزداد حول دخول الحرب مرحلة جديدة • وفي ١٩ مارس سنة ١٩٤٠ قام رئيس وزراء بريطانيا نيفيل تشامبرلين بتحذير النرويج والسويد من أن اصرارهما بأن أىشيء هو أفضل للدول المحايدة الصغيرة من جرها الى الحرب بين ألمانيا والحلفاء لايساير الحقائق ولن يكون في النهاية ضمانا كافيا لمصالحهما . وبعد أسبوعين تحدث ونستون تشرشل ــ فى اذاعة له ــ عن قرب اتساع نطاق الحرب وأضاف هولندة والبلجيك الى منطقة اسكنديناوة لتكون من المحتمل مناطق جديدة للنزاع •

وحوالى هذا الوقت أى خلال الاسبوع الاخير من مارس سنة ١٩٤٠ قدم بال أحد عملاء سويسرا البارزين فى ألمانيا • وهو الذى « كانت له علاقات

---

(١) كلمة REDUIT هي الكلمة الفرنسية المقابلة REDOUBT • وبتكوينها الفرنسي اصبحت اصطلاحا في جميع اللغات السويسرية الثلاث ــ الفرنسية والالمانية والايطالية للدلالة على حصن جبال الألب الذى شرع جيسان في اقامته • ولما اصبح مشروعه أمرا واقعا معروفا للجميع كانت كلمة REDUIT موضوع التفكير الرئيسى في سويسرا ابان الحرب • وكانت اللهجات الكثيرة في سويسرا تعبر عن الكلمة الفرنسية بمنطوقها الفرنسي • وعلى ذلك التزمت بهذا الاتجاه واستخدمت كلمة REDUIT دلالة على الحالة الخاصة بنظام الدفاع السويسرى في جبال الالب افضل من استخدام ترجمة غير مناسبة مثل REDOUBT او MOUNTAIN FORTRESS حصن الجبل • وذلك لان الحصن السويسرى كان يجمع بين حصن صغير وحالة نفسية ملازمة لاقامته •

خاصة بمقر قيادة الفوهرر » ، وجاء لمقابلة رئيس المخـابرات السويسرية « كولونيـل روجر ماسون » شخصيـا • ووصف العميل الخطة المرسومة للاعتداء على الدانيمارك والنرويج وأكد لماسون أنه تقرر لذلك موعد قبل نهاية شهر أبريل • وسرعان ما عاد العميل الى ماسون وفى هذه المرة كان يحمل معلومات مفصلة عن الهجوم المدبر على فرنسا والذى أعد ليكون فى ٨ مايو سنة ١٩٤٠ •

وماذا كان يجب على السويسريين أن يصنعوه ازاء هذه المعلومات المحرجة وأية تصرفات للسلطات السويسرية تطالبها بها قوانين الحيـاد المشددة ، أو مقتضيات الظروف ؟ وقد علم الجنرال كما أخطرت الحـكومة • ولـكن دون اخطارهم هل انتهت مسئولية الحياد السويسرى عند هذا الحد ؟ وعلى أية حال هل لم يكن التجسس على ألمانيا فى حد ذاته عملا خارجا عن حيز الحياد ؟ وهل تترك الان الدانيمارك والنرويج والحلفاء دون اخطارهم بهذه المعلومات الحيوية التى قد تكون بمثابة تقرير لمصيرهم ؟ •

وفى الواقع ان هذه المعلومات وصلت الىمسامع تشرشل فى ٣٠ مارس ووضعت فى شىء من التفصيل ، أمام وزارة الحرب البريطانية فى ٣ أبريل سنة ١٩٤٠ أى ستة أيام قبل الهجوم الالمانى على الدانيمارك والنرويج • واجتمع مجلس الحرب الاعلى للحلفاء بعد يومين فى ٥ أبريل • ولكنه رأى أن المعلومات حول خطـط الالمـان لاتدل على أى معنى ظاهر للاستعجال • وكانت التقارير الواردة من استوكهلم والتى وضعت أمام الاجتماع تبعث على الارتياح أكثر من تلك التى جاءت من برن • فقد كانت هذه المصادر السويدية على يقين من ان الالمان لن يقوموا بمحاولة لغزو النرويج • وقرر رؤساء أركان حرب الحلفاء أن المعلومات السويسرية تبعث كثيرا على توقع السوء • وعلى أكثر تقدير قد يقوم الالمان باقامة قواعد جوية وبحرية فى اسكندناوة كحركة مضادة للحلفاء حول بثهم الالغام فى مياه النرويج • وفى نفس اليوم ٥ أبريل سنة ١٩٤٠ لخص رئيس وزراء بريطانيا وجهة نظر الحلفاء التى توحى بالاطمئنان فىحديث له فى مؤتمر حزب المحافظين• حيث قال تشامبرلين للوفود « أمر واحد مؤكد وهو أن هتـلر قـد فاته القطار » وبعد انقضاء مائة ساعة كان الالمان قـد استولوا على الدينمـارك والنرويج وكانت صدمة المفاجأة فى كل من لنـدن وباريس وبرن ممـا تذهل العقول بالرغم من التحذيرات التى سـبق أن وجهت الى الثـلاث العواصم • فلماذا حدث هذا ؟

ومرة أخرى ـ بعد أن القى هتلر خطابيه فى أوبرسالزبرج فى أغسطس سنة ١٩٣٩ جاءت الى الحلفاء والى ضحايا هتلر الذين وقع عليهم الاختيار تحذيرات بشأن الضربة الوشيكة الوقوع • ولكنها لم تجد أذنا صاغية لدى الحكومات أو قادة الجيش وهم الذين ينالهم رد الفعل مباشرة أكثر من غيرهم • ثم أن بريطانيا وفرنسا وبولندة فى سنة ١٩٣٩ والآن اسكندناوه والحلفاء فى سنة ١٩٤٠ كان لديهم أدق المعلومات السابقة من مخابراتهم حول مقاصد المانيا ولكن هذا لم يحدث أى تغيير فى خططهم وعملياتهم • وكان السياسيون والعسكريون يعملون كما لو كانوا لم يروا أو يسمعوا شيئا عن هذه المخابرات • وتكرر هذا الاتجاه بعد أسابيع قليلة عند ما قام الالمان بعدوانهم على الغرب فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ • ومهما كانت عوامل الشك التى كانت تحوم حول هذا الوضع فاننا نعلم الان أن هذه الانباء قد وردت الى كل من ممثلى بريطانيا وفرنسا فى برن • وكان الوزير البريطانى سير دافيد كيلى Kelly موضع ترحيب خاص فى الدوائر العليا للجيش السويسرى • اذن ينبغى لنا أن نستنتج أن احدى المرات التى منى فيها الحلفاء بالفشل الذريع الذى أودى بهم الى الكارثة فى الحرب الاخيرة • كان فى وسائل نقل معلومات المخابرات وتقدير قيمتها أكثر مما كان فى الحصول على المعلومات المؤقتة وجمعها فيما يتعلق بمقاصد العدو • وذلك لأننا ـ لأول مرة ـ لدينا تجربة واقعية • حيث نعلم أن المعلومات التى وردت للسويسريين ـ لو أخذت السلطات بها ـ كانت تنقذ الحلفاء من الكوارث التى ألمت بهم فى أول الأمر • ولكنهم لم يأخذوا بها وتجاهلوها • لماذا ؟ وبأى وسيلة تم ارسالها حتى أهمل شأنها ؟ ومن الذى أرسلها ؟

ولكن هناك جانبا آخر لهذا النوع الخاص من فشل المخابرات • الجانب الذى قد يلقى الضوء أخيرا على مواطن الضعف والاخطاء الحاسمة فى جميع أعمال المخابرات خلال الحرب الاخيرة ومنذ ذلك الحين • وهنا يجب أن نتساءل لماذا فوجىء الحلفاء باستيلاء الالمان على النرويج وكذلك لماذا صدمت السلطات السويسرية التى كانت أمامها صورة واضحة للموقف وكانت تتوقع الهجوم الالمانى فى الوقت والمكان المحددين ؟ والجواب على هذا ـ بطبيعة الحال ـ أنهم كانوا يتوقعون هجوم ألمانيا ولكن ليس هذا النوع من المهاجمة • وكانت المخابرات السرية قد أدلت بمعلومات صحيحة عن الهجوم المعتزم وعن زمنه ومكانه • ولكنهم لم يستطيعوا التنبؤ بهذا السلوك المنافى للعقائد ولا بطبيعة العمليات المرسومة وغير المتوقعة • فهذه لم تكن فى الحسبان وعلى ذلك كان الغزو الشمالى أشد صدمة

للسويسريين ـ حكومة وشعبا ـ من أية أحداث أخرى خلال الحرب ٠ لانه اذا كان هذا حدث للدينمارك والنرويج وهما دولتان على الحياد فمن الممكن أن يحدث لسويسرا المحايدة أيضا ٠

ففى سويسرا لم يفقد كل من الحكومة والجنرال والجمهور السيطرة على شعورهم ٠ ولأول مرة خلال سنوات كانت الصدمة التى لحقت بهم بسبب هذه الاحداث داعيا لانبثاق معنى الاتحاد القومى فى البلاد ٠ فأصدرت الحكومة والجنرال أوامر طارئة من شأنها مجابهة تهديد الغزو المفاجىء أو الخيانة واعمال التخريب فى الداخل ٠ وكان الصوت الرسمى واضحا وهو يعبر عن الارادة الوطنية المصممة على المقاومة ٠ وتحمس الجيش والقوم فى الاستجابة لذلك وكأنهم أزيح العبء عن أكتافهم وأنهم لن ينتظروا طويلا بعد ذلك فقد أصبحوا على علم بمواطن الخطر ـ والعدو ٠ وأرسل الجنرال مزيدا من القوات لمواجهة الشمال والالمان وحذر الجمهور أن أى نبأ حول الاذعان لضغط خارجى سوف يكون كاذبا ٠ وتلقت القوات الاوامر بالصمود ورفض أى أمر بالانسحاب أو وقف اطلاق النار ـ وهكذا كانت الامة كلها ـ سواء الجيش أو الاهالى ـ ثابتة ثائرة وعلى استعداد للمقاومة بأى ثمن ـ باستثناء أقلية غير معروفة ٠

فى صباح ٢٢ ابريل سنة ١٩٤٠ أخطر أوتو كوشر Köcher الوزير الالمانى فى برن وزارة الخارجية فى برلين بما يأتى :

بتاريخ ١٨ أبريل أصدر المجلس الفدرالى السويسرى وقيادة الجيش أوامر مشتركة بشأن التعبئة فى حالة هجوم مفاجىء ٠٠٠٠ والنداء ليس موجها للجنود فحسب بل الى الامة بأجمعها ٠ وكانت العمليات الحربية الالمانية فى الدينمارك والنرويج صدمة قوية للشعب السويسرى فى أول الامر لدرجة أن هيئة أركان الحرب أصدرت التعليمات الى الصحف بمراعاة التحفظ فيما تنشره ٠

أصبح الميجر النرويجى كويسلنج رمزا للفساد الداخلى والخيانة ٠ وكانت النتيجة أنه منذ بضعة أيام أصبحت الجواسيس والخونة موضع اشتباه فى جميع أنحاء البلاد٠ ومستعمرة الريخ الالمانى التى يبلغ تعدادها ١٣٠ر٠٠٠ تحت المراقبة ٠

طيلة الايام القليلة الماضية كانت الصحف تدعوا فى اصرار متزايد الى انهاء اتفاقية لاهاى الدولية حول الكفاح المسلح واستبدالها بقانون وطنى سويسرى فى هذا الصدد · مما يجعل الحرب الجماعية تتعارض قانونا مع الدفاع الجماعى حيث يضطر السكان المدنيون الى الاشتراك فيه ·

بعد ذلك يشير كوشر الى « الشعور والاحاسيس العميقة التى عمت البلاد » ويضيف أن « الحماس فى البلاد قد بلغ درجة كبيرة » ـ بناء على ما لديه من المعلومات ـ « حتى أن صغار الضباط قد نظموا أنفسهم خفية لمراقبة قادة وحدات الجيش · ففى حالة الغزو اذا بدا من أحد القادة مايدل على التسليم قبل اكتساح قوات العدو فان هؤلاء الضباط قد رهنوا أنفسهم لاطلاق النار على مثل هذا القائد فى الحال » ·

وكانت هذه رسالة تنطوى على معلومات قيمة انعكس ضوؤها على السلوك الجديد للسويسريين وعلى التصميم الحق على توحيد صفوف الامة حتى لا تنصهر فى الالمان · ولكنها كانت وحدة قصيرة الاجل وغير صادقة حيث كانت فى الواقع بداية خادعة قبل الايام العاصفة المقبلة حيث انقسمت الامة السويسرية على نفسها وضعفت ارادتها لمقاومة هتلر أكثر من أى وقت آخر خلال الحرب العالمية الثانية · وكانت وحدة ابريل ـ كما دلت الحوادث فيما بعد ـ ليستالا نتيجة مباشرة لاثر الصدمة التى لحقتهم بسبب اقتحام هتلر للدينمارك والنرويج· وعند ما تحول غزو اسكندناوة الى استعراض سافر لقوة النازى وأسفر عن نصر مرموق · سرعان ما اختفت اثار الصدمة · واستبدلت الدعوة القصيرة للوحدة القومية وما اقترن بها من عزيمة قوية لمقاومة الضغط الالمانى باشاعة عوامل القلق والتردد والانقسام فى سويسرا وهى تراقب الاستعداد الملحوظ للقيام بعمل حربى حاسم فى الغرب · وفى هذا الوقت كان السويسريون قادة وشعبا ـ فى حيرة من أمرهم حول الاستمرار فى تجنب النتائج المباشرة للحركة الالمانية التالية ·

وبذل الالمان ما فى وسعهم لتعزيز مخاوف السويسريين وتشجيع اختلاف آراء الجمهور والحكومة ورجال الجيش · وأطلق جوبلز احدى عملياته الحربية النفسية الفعالة ضد السويسريين وساعده فى ذلك وزارة الخارجية ·

وتكللت عملية جوبلز بالنجاح · وكانت لها انطباعاتها على جزء كبير من الشعب السويسرى أكثر عددا من أولئك الذين تقبلوا الرسالة الالمانية فى

تحمس وعن طيب خاطر · كما كان لها أثرها على خصوم الريخ الثالث والمشفقين عليه · ولكن مما كان مثار أهمية كبرى للالمان هو تدبيرهم « بيع » فكرة جوبلز الرئيسية الى رئيس المخابرات الحربية السويسرية كولونيل ماسون · وعن طريقه الى أعضاء الحكومة الفدرالية والى قيادة الجيش العليا بما فيهم جيسان نفسه · لوقت ما · وكذلك لقيت وجهة نظره رواجا بين البعثة السويسرية فى برلين (ولم تكن هذه مهمة شاقة) · وبين أفراد عديدين من السويسريين من ذوى المكانة وممن يقيمون ويعملون فى ألمانيا ·

وكانت الحملة الالمانية تنطوى على فكرة بسيطة : وهى أن السويسريين متهمون بانهم لا يسلكون سبيل الحياد بسبب الصحافة السويسرية ــ وخاصة الصحف التى تصدر باللغة الالمانية والتى تمتاز بنفوذ كبير · فقد كانت توجه نقدا لاذعا مستمرا وبصورة علنية لحكم النازى بينما تشمل أعداء ألمانيا بعطف ملحوظ · وكان رفض الصحف السويسرية انتهاج سياسة « حياد الرأى والضمير » كما طلب الالمان . يوصف بأنه استفزاز مقصود لزعماء النازى · ومما يبعث على الدهشة أن شطرا كبيرا من آراء الدوائر الرسمية فى سويسرا كان يعزز هذا الاتهام الموجه للصحف السويسرية ·

وهكذا كانت هذه الحملة المنظمة فى عناية ضد السويسريين والتى شرع فى تنفيذها جوبلز فى فبراير سنة ١٩٤٠ تشق طريقها باهتمام متزايد فى الاسابيع التالية · وكان جزء من الحملة بصورة علنية فى الصحف والاذاعة الالمانية · والجزء الثانى بطريق الدبلوماسية · والجزء الثالث وهو أكثر فاعلية كان عن طريق ثغرات مدبرة للمخابرات الحربية السويسرية·

ولم يمض وقت طويل على هذا الهجوم على أعصاب السويسريين لكى يؤتى ثماره · ففى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٠ كتب رئيس المخابرات الحربية السويسرية ــ كولونيل ماسون ــ الى الموظف المسئول عن الصحافة والاذاعة فى القسم السياسى · أنه بناء على معلومات سرية وصلت الى علمه « أن سلوك الالمان تجاه سويسرا ليس على ما يرام «والصحافة السويسرية هى المسئولة عن هذا الاتجاه · ويعتبرها الالمان اللسان الناطق لليهود والحلفاء» واعتبر السويسريون أنه اذا استمرت صحافتهم على هذا النمط فسوف يكون لذلك نتائج خطيرة · واضاف ماسون أنه ــ فى رأيه ــ يعتبر الصحافة السويسرية مسئولة ــ الى حد كبير ــ عن التوتر الذى ساد

العلاقات بين سويسرا والريخ • وشاركه فى رأيه معظم أعضاء الحكومة • كما كان لذلك انطباع كبير فى شعور كبار الضباط بما فيهم ـ فى ذلك الوقت ـ ضبـاط الجـنرال • ووجهوا اللوم الى الرأى العـام السويسرى بسبب حاجته الى التحفظ • وهو الرأى الذى اعربت عنه الصحف التى تصدر باللغة الالمانية • وان ذلك هو السبب الرئيسى فى موقف التهديد الذى اتخذته المانيا ضد سويسرا •

ومن حسن طالع الصحافة السويسرية ولضمـان الحقوق الديمقراطيـة لسويسرا لقيت هذه الآراء من يتحداها• فقد أوضح رئيس قسمالصحافة والاذاعة فى الادارة السياسية ـ كولونيل رودلف فوتر Fueter الحقوق الديمقراطية للصحافة فى صورة كلاسيكية وذلك فى رسالته ردا على ماسون ثم فى تقرير أرسله الى رئيس أركان الحرب • وهذه مستندات يجب أن تصبح جزءا من العرف والتقاليد للصحافة الحرة • وعاملا هاما فى بقاء السويسريين • وكان رد كولونيل فوتر على خطاب كولونيل ماسون بهذه الكلمات : « ليس من واجبنا أن ندافع عن حدودنا الجغرافية فحسب بل أيضا عن طريقتنا الديمقراطية فى الحياة • والاول يقع على عاتقالجيش والثانى مهمة تتعلق بالصحافة ونحن ندافع عن استقلال رأينا بدمائنـا لأنه لا يقل مقدارا عن كيان الوطن • »

وفى تقريره الى هيئة أركان الحرب كان جـداله أوسع نطـاقا مع ذكر الموضوع الرئيسى عابرا • ومن واجب صحافتنـا أن ترفض بشـدة وفى وضوح سياسة الاشتراكيين الوطنيين سواء منها السياسة الداخليـة أو الخارجية • وكان ايقاف هذا التطور أحد أهداف السياسة الخارجية لهؤلاء الاشتراكيين • »

ويبدو أن هذه المذكرة الجريئة التى قدمها فوتر كان لهـا انطبـاع فى نفس الجنرال ولكن لم يكن لها تأثير لدى ماسون واولئك الوزراء (بمـا فيهم الرئيس الفدرالى بيليه جولاز Pilet Golaz) وكبار الضباط الذين شاركوا ماسون فى اعتقاده حول اتهام الصحافة السويسرية • وعلى النقيض ـ عند ما نجحت الحملة الالمانية التى دارت رحاها فى حذق ومهارة لقيت رواجا أكثر فى تلك الدوائر السويسرية التى كان ينبغى أن تكون أكثر دراية بالامر • ولما هدد دكتور فلدمان العضو البـارز فى المجـلس الوطنى بأن يذيع على الملأ ما وصفـه بأنه « أسـطورة اتهـام الصحـافة السويسرية » توجه ماسـون لمقـابلته فى ٢١ أبريل سنة ١٩٤٠ ليبين له الموقف فى شىء من الايجـاز بنـاء عـلى ما ورد من المخـابرات الحربيـة السويسرية •

وبناء على حديث ماسون كان الموقف يتلخص في أن قائدى الجيش ـ بروشيتس وكيتل ـ يعطفان كثيرا على السويسريين والجيش السويسرى ولكن ليس في وسعهما أن يقررا السياسة حيث أن القرار الاخير كان في أيدى الحزب النازى الذى يعتبر السويسريين « العدو رقم ١ للشعب الالمانى » ولذلك ألقى ماسون المسئولية على عاتق الصحافة السويسرية والى حد ما الاحداث المتكررة والمعادية للألمان التى جرت في سويسرا ٠

واستنتج ماسون من ذلك أنه اذا فقد الالمان الثقة فى حقيقة الحياد السويسرى فسوف تحدق الاخطار بالبلاد ٠ ولما كانت الجبهة الغربية الجنوبية للالمان خالية من مراكز الدفاع فأن هتلر قد يعمل على عرقلة القوات الفرنسية من اختراق سويسرا للوصول الى هذا القطاع الخالى من نقط الدفاع ٠ وذلك باحتلال رأس جسر في سويسرا على طول نهر الراين من سار جانس الى بال ٠ ولم ينته ماسون من حديثه بعد ٠ وأوضح أن الحرب فى اسكندناوة استعراض لهيبة كل من الحلفاء والمانيا ٠ فاذا تأجل النصر التام للالمان هناك بسبب ما ٠ فان هتلر سوف يستعيض عن ذلك بهجوم مباشر على الناحية الغربية ٠ ويشمل فى طريقه اما بلجيكا أو هولندا أو سويسرا ٠ وسوف يوجه الهجوم الاول الى الدولة التى يعتبرها الالمان ألد أعدائهم ٠ وعلى ذلك استنتج ماسون أنه من الافضل للرأى العام السويسرى ـ وخاصة الصحافة ـ أن يقرر ـ ان كان الامر يحتاج ـ مساندة الحلفاء ضد « المتوحشين في الشمال » ٠ فقد يقوم الالمان باحتلال مقاطعة شوفهازن بأكملها جزاء وفاقا للصحافة السويسرية ولمقابلته السيئة بمثلها ٠

ولم يكن الجمهور على علم بهذه التحذيرات المفصلة التى قدمها رئيس المخابرات السويسرية بل كان يترامى الى سمعه فقط الدعايات الالمانية المتزايدة والتى تنذر بالخطر ٠ وترديد الشائعات عن تحركات قوات ألمانية كبيرة في الغابة السوداء التى أطلقت عليها قيادة الجيش السويسرى « المنطقة النافعة » من قبيل تغطية الحقيقة المرة أو « انتهاجا لسياسة الحياد » وتعنى بذلك فى الواقع « منطقة التهديد » وتبعد عشرين ميلا عن الحدود السويسرية ٠

وكانت الشائعات صادقة ٠ فأن ما تحلى به السويسريون فى أواسط ابريل من عزم ورباطة الجأش قد تحول الآن الى قلق متزايد يساور شعورهم حول المستقبل وأخذ المشفقون على الالمان يمارسون نشاطهم سرا

وعلانية • كما أخذت الهاوية تتسع فى ارجاء البلاد ولكن خطوطها لم تكن قد رسمت بعد • حيث كان أمامهم اسبوعان قبل ذلك اليوم الحاسم ١٠ مايو الذى وضع حدا لهذا القلق المتزايد •

وفى الوقت نفسه كان جيسان فى مقر قيادته يجول بتفكيره فى هـذه الاسابيع الحاسمة من خط سيره فى الحياه • فاختـزن فى ذهنـه كل ما يحتاجه الموقف الراهن • وذهب بتفكيره الى مدى بعيد جدا عن جـدران مكتبـه • متى ينتهى هـذا ؟ وأين ؟ وما الذى ينتـظر منـه ؟ وما مـدى استطاعته ـ وقبل كل شىء ـ وما هو الواجب عليه أن يفعل ؟ فأخذ يطيل التفكير فيما لديه من الحقائق ـ وفى موقف السويسريين • وما تبين له لم يكن يبعث على الارتياح • فأول شىء صادفه هو أن أحدا من ذوى السلطة لابد أن يفسر معنى الحياد فى مثـل هـذه الظروف ولو يكون التفسـير له فحسب • فهل الحياد سياسة أم شباك صنعوها بأيديهم •

وبطبيعة الحال لم يكن لديه متسع من الوقت لهذه الافكار الفلسفية • فهو يستطيع أن يرى الآن الاحداث التالية • فقد أنبأه ماسون أن الالمان سوف يلقون ضربتهم فى الناحية الغربية فى ٨ مايو وفى هذه المرة قد لا تلجأ الى السكون الفرق الالمانية الثلاثون المتاخمة للحدود السويسرية • وعاد الى تقدير موقفه مرة أخرى • فوجد أن لديه ١٢٠٠ ميل من الحدود عليه حمايتها وان قواته فى حاجة الى السلاح من حيث النوع والـكميات وخاصة المدافع المضادة للدبابات والطائرات • وان الوقت لم يعد يسمح للقيام بتمثيل الحياد • ولم يكن حياد سويسرا معرضا للخطر بعدر ماكانت سويسرا نفسها • وعند تطور الموقف فى ابريل سنة ١٩٤٠ لم يسـتطع جيسان أن يسمح لنفسه بالتحليق فى سماء الخيال وعاد الى أرض الواقع فوجد ان الجيش السويسرى نفسه ـ وهو فى ميدان مكشوف ـ عرضـة لهجوم المانى عنيف دون رحمة ولا شفقة• بعد ما شاهده من اقتحام الالمان لبولندة ثم مهاجمتهم لاسكندناوة وانتهاكهم لحياد الدولتين • وبدأ بطبيعة الحال أن يتناول هذه المشكلة بدقة وامعان ولكنه كان فى حاجة الى الوقت وكثير من الوقت للتغلب عليها • وقد تثور العـاصمة قبـل أن يكون على أهبة الاستعداد •

وعلى ذلك أدرك جيسان أن عليه أن يخفى مظاهر هذا القلق المضنى • وعلى النقيض • فقد كانت زعزعة الثقة فى الجبهة الوطنية وما قد يساور الالمان من الارتياب فى حكمة القيام بغزو سويسرا • سببا لأن يتصـور

جبهة قوية موثوق بها قد تحط من جراءة النازى • ولكن جيسان سار في تقدير الامور الى أبعد من ذلك•فاتصل مرة أخرى بالقيادة العليا الفرنسية وقام بتنسيق اجراءات لعمليات مشتركة بين الجيش السويسرى وجزء من الجيش الفرنسى الثامن ويتم الاتصال بين الجيشين ـ اذا احتاج الامر ـ فى سهل جمبن Gempen خـارج بال • وفى الوقت ذاته بدأ جيسان في اجراء تغيير حكيم في تنظيم قواته• فخفض عدد قواته على الجبهة الفرنسية قذف بها نحو الشمال والشرق وذلك ليتخذ موقفـا ضد ضربة ألمانية قد تأتى من ناحية الشمال •

ولكن هذه كانت اجراءات طارئة تتخذ فى اللحظـة الاخـيرة ولم تكن سياسة وليدة للتفكير والاستنتاج • وكان جيسان ينظر الى أبعد من ذلك وكيف يضع سويسرا فى موقف يخشاه المعتدون لانه لم يعد مطمئنا الى وقوف الجيش الفرنسى بجانبه • لأنه ـ كما رأينا ـ قد فقـد ثقتـه فى الفرنسيين خلال الحملة على بولندة • وارتباك الحلفاء في اسكندناوة ليس مما يبعث على الاطمئنان • لذلك اقتنع بأن عليه أن يجد حلا لموقف بلاده ـ حلا ينسجم مع الصورة الجديدة التى كونها فى ذهنه للحيـاد السويسرى عند ما شن الالمان هجومهم على هولندة والبلجيك وفرنسا ـ وهى صورة تبين الادعاء والتظاهر بالحقيقة وقد قطعت أوصالهـا • وكان ذلك فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ •

حالف جيسان التوفيق مع الجيش ولكنه كان أقل نجاحا مع السـكان المدنيين • فقد صدرت الاوامر بالتعبئة العامة ولكن فى هذه المرة كانت توحي بصورة الاستعجال أكثر مما تميزت به فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ • ثم أن قيادة الجيش الالمانى السابع الذى قيـل أنه على استعـداد للقيـام بعمليات حربية • كانت فى فريبورج على بعـد ثلاثين ميـلا من الحـدود السويسرية • وكانت الفرق الالمانية الثلاثون على مسافة تقل عن مسيرة يوم من الحدود • وبدأت تلك القوات في تحركات عامة الى الامام •

كان صوت جيسان ثابتـا ينم عن الثقـة بالنفس • وكانت أوامره الى القوات أن تظل « قوية فى هدوء واتحاد » • وحتى فى هذه المرحلة كانت تعوقه « اعتبارات الحياد » عن ارسال قواته الى الشمـال حسب خطتـه المرسومة • فقد يتخذ الالمان موقف العدوان • وكانوا فى وضع للقيـام بذلك •

ولكن فى هذه الآونة حدث شيء لم يحسب له الجنرال حسابا • حيث أن المدنيين فى الجهات المعرضة فى الشمال والشرق خذلتهم الشجاعة الادبية وبدأوا يهربون أفواجا ـ وخاصة من المدن ـ الى داخل البلاد ـ وفى ليلة ١٤ ـ ١٥ مايو كانوا يمثلون زرافات استولى عليها الذعر حيث كانت هناك صفوف طويلة من السيارات محملة بالعائلات ومتعلقاتهم تغادر بال وشوفهوزن وغيرها من البلدان الشمالية • وبذلت المحاولات للتمييز بين هذا الرعب الذى ساد المدنيين وبين الثبات العسكرى بين صفوف الجيش • فتبين من اتساع دائرة البحث أن معظم هذا الجلاء العاجل كان بناء على مشورات عسكرية غير رسمية وتحذيرات وجهت من الاصدقاء والازواج والابناء الى عائلات الضباط والجنود التي أخذت فى الرحيل • وهذا الخروج الآلى عن طريق السيارات أو السكة الحديد انعكس أثره على الروح المعنوية لدى الجنود فخفض منها اذ لم يكن حطمها • وذلك عند رؤيتهم الجموع تمر أمامهم وهم فى خنادقهم ومركباتهم • وعند ما بلغت هذه الحركة ذروتها من مظاهر الذعر بدا المدنيون كما لو كانوا قد تأثروا بنفس الانباء التى وضعها ماسون أمام الجنرال • وهى الانباء القائلة بأنه لو تأخر تسرب الالمان عند سيدان فان الجيش الالمانى السابع سوف يمر من النهاية الجنوبية لخط ماجينو بحركة دائرية خلال سويسرا الشمالية •

وادرك جيسان موطن الخطر والاهمية الحيوية لتمسكه برباطة الجأش والثقة بنفسه تجاه الالمان • أدرك أن الالمان اذا ارتابوا فى أن السويسريين يوهنون من عزيمتهم فأن ذلك سوف يؤدى بسويسرا الى الضياع • وفوق كل شيء كان من الواجب الاحتفاظ بجبهة توصى بالجرأة التى تجمع بين الحقيقة والتمويه مما يدعو هتلر الى التفكير قبل الاقدام على مغامرة فى سويسرا •

وعلى ذلك • فى غمرة الارتباك والذعر التى استولت على المدنيين أصدر جيسان أوامره فى ١٤ مايو ـ وفى جو مشحون بالضجة والتظاهر ـ بتعزيز مراكز الحدود • فتدفقت صفوف من المدفعية ـ فى هيئة استعراضية ـ تخترق البلدان والقرى متجهة نحو الشمال •

وفى اليوم التالى ١٥ مايو عبر الالمان نهر الميز Meuse وبدأوا فى التسرب عند سيدان • وسبق أن قدر جيسان أن هذه هى اللحظة التى يقرر فيها هتلر امتداد الحرب الى سويسرا • وان هذا هو الوقت ـ ولن تسنح الفرصة بعد ذلك ـ لوضع هتلر فى موقف التردد • وعلى ذلك اتبع

جيسان تحركات القوات ذات الضجيج بأمر آخر أصدره لجميع القوات • وكان يقصد بذلك من أول لحظة أن يوجه تحذيرا لمقر قيادة هتلر • ونص الامر على أن كل جندى وكل ضابط يجب عليه أن يقف ويقاتل • وألا يسلم مهما كانت الظروف سواء أحيط به أو لم يبق لديه سوى «سونكى» بندقيته • وعلى رجال المدفعية الا يتركوا مدافعهم قبل أن يدمروها ثم يستمروا فى القتال كفرقة من المشاة • واذا لم يكن هناك أحد الضباط يتسلم عمله أعلى ضباط الصف رتبة • ولكن ليس لأحد السلطة لايقاف اطلاق النار أو التسليم •

كانت هذه اللهجة تجنح الى القسوة والشدة • ولكن جيسان كان فى قرارة نفسه يبتهل الى الله ألا يؤدى الامر الى الدخول فى تجربة ــ فقد استتب الامر للالمان فى روتردام • ولكن هذا الصوت الرزين المنبعث من الثقة بالنفس بث فى الجنود روحا جديدة • وكان أكثرهم قد هزهم أو أغضبهم منظر الفارين المدنيين الى داخل البلاد • واقتنع جيسان فيما بعد أن السويسريين لم يكونوا أقرب الى خوض المعارك مما كانوا فى ذلك اليوم • ولو أنه كان أمامهم فرص كثيرة للوقوف على شفا الحرب • ثم أن تسرب الالمان عند سيدان كان له أثره • كما أن الصورة الخيالية التى رسمها جيسان للتمويه بعزمه على المقاومة كان لها أثرها وصداها فى مقر قيادة هتلر • فهى لم تعمل على تدعيم أواصر المحبة بين جيسان والفوهرر • ولكنها عملت على ازدياد رغبة زعماء النازى فى تسوية حسابهم مع السويسريين • ولغاية الان كان جيسان موفقا يحالفه النجاح • فقد عملت الصورة التى رسمها لعزمه الاكيد على المقاومة على اثارة امارات الخوف لدى الالمان • ولم يكن غير جيسان وزملائه المقربين اليه يدركون مقدار الحاجة الملحة لتحويل الخيال الى الامر الواقع • حيث كان عليه الان أن يواجه عدوا جديدا : الانتشار المفاجىء للاعتقاد فى Wehrmacht الجديد وقوته الفائقة • فقد أثر ذلك على الاصدقاء والاعداء ومن هم على الحياد • وعلى النازى والمعادين للنازى • وعلى الجنود والمدنيين • وتلك كانت البداية فقط • ففى غضون الاسابيع التالية كان توتر أعصاب السويسريين ــ وعلى الاقل جزء كبير من ذوى النفوذ من السكان ــ بسبب اثارة مشاعرهم حول قوة المانيا التى لا تقاوم • بمثابة تهديد لاستقلال سويسرا أشد وطأة من التهديد الفعلى للجيوش الالمانية •

كان جيسان من بين الذين ادركوا معنى ما حدث من أول الامر • فأصبح يعد نفسه للدفاع عن سويسرا فى هذه الجبهة أيضا • وقاده هذا لان يحدد معالم الطريق بينه وبين رئيس الجمهورية والحكومة الفدرالية • وهذا القرار

كان سببا فى وضع الجنرال فى موضع قليل من الناس من تكهنوا به٠وهو أن يكون موضع ثقة الامة ٠ وبذلك يتحول جيسان القائد الى جيسان الزعيم الوطنى السويسرى ٠ ومن الان فصاعدا عليه أن يكون رمزا يعبر عن ارادة السويسريين فى مقاومة الضغط الالمانى بجميع أنواعه ٠ وأكثر من ذلك عليه أن يؤيد الاعتقاد بأن استقلال الجمهورية السويسرية واستتباب الامن والسلام فى ارجائها مستقبلا يتوقف على الانتصار على الحكم النازى والا يقام له وزن ٠

وليس من الممكن تحديد الوقت حين توصل جيسان الى ادراك هذا الاتجاه ٠ ولكنه كان يرسم خطوطا له خلال أسابيع القلق والخوف فى شهر مايو عند ما كانت الجيوش الفرنسية والبريطانية تتهاوى أمام الهجوم الالمانى الساحق وحين لجأت البلجيك الى التسليم ٠

ولكن الدوائر العليا فى برن لم تشارك الجنرال فى وجهة نظره حول الموقف ٠ وعلى النقيض كلما زادت بشائر انتصار الالمان فى فرنسا كانت تقل مظاهر الاهتمام فى العاصمة السويسرية ٠ ففى ٢٥ مايو حتى استولى الالمان على بولون وطوقوا الجيش البلجيكى ٠ قام الوزير الالمانى فى برن بزيارة الرئيس الفدرالى ووزير الخارجية بيليه جولاز وبعدها ــ فى نفس اليوم ــ أرسل مذكرة بمحادثاته الى وزارة الخارجية فى برلين ٠ وجاء فى مذكرته أنه خلال مناقشته فى ذلك اليوم مع الرئيس الفدرالى ٠ أخبره جولاز بأنه « لا يعطف على الفرنسيين فى موقفهم الراهن لانهم هم أنفسهم المسئولون عن الموقف ٠ » وأخذ جولاز يجامل الوزير الالمانى بمناسبة التزامه الهدوء ٠ حيث لم يكن كغيره من بعض الدبلوماسيين الذين استولت عليهم عوامل الرعب وقاموا بالفعل باحراق أوراق مفوضياتهم فى حدائق منازلهم ٠ واعرب الرئيس الفدرالى عن أمله ألا تبدو المفوضية الالمانية مزعزعة الثقة بصورة علنية كهذه ٠ وطبقا لما جاء فى تقرير كوشر أن بيليه جولاز نسب عوامل الذعر فى سويسرا الى الدعايات الفرنسية والانجليزية ٠

ثم أن كوشر سبق أن اجتمع ببيليه جولاز فى ٢٤ مايو وكان لهذا الاجتماع أثره ٠ ففى اليوم التالى أصدرت الحكومة الفدرالية تعليمات من شأنها التخفيف من حدة حماس المدنيين واستعدادهم للمبادرة بمساعدة الجيش فى مناهضة لجنود المظلات أو المخربين ٠ ولكن الامور أصبحت أكثر وضوحا (وكذلك فى نظر الوزير الالمانى فى برن) من حيث وجود

صوت آخر في البلاد وليس من المحتم أن تكون كلمة الرئيس هي الاخيرة وان اتجاهاته ليست ملزمة من تلقاء ذاتها • وبناء على ذلك ارسل الوزير الالماني تقريرا مطولا آخر الى برلين بعد ثلاثة أيام أي في ٢٨ مايو •

واعـرب الوزير الالمـاني في تقريره عن أمله في أن تتخـذ الحـكومة السويسرية اجراءات جديدة قد تكون فاتحة لتغيير شعور السويسريين • وفي الوقت نفسه لم يحاول اخفاء شعوره بالقلق ازاء نشاط قادة الجيش الذين اقاموا وحدات محلية للدفاع وقاموا بتوزيع الذخيرة وتهيئة البلاد للاقبال على القتال • ثم أكد لوزارة الخارجية في برلين ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أنه يعتقد أن الحكومة الفدرالية سوف تعمل على مسايرة الظروف الجديدة • ولكن لا ينطبق ذلك على جيسان ومعظم قادة الجيش •

وما أقل من ادركوا في ذلك الوقت أن جيسان قد كسب الجولة الاولى• لان الازمة لم تكن قد انتهت بعد • وعادت التهديدات بالغزو الى الظهور في الافق • ولكن وسائل التمويه كانت تؤتي ثمارها • فأصبح الالمان يساورهم القلق حول مجموع خطط الدفاع في سويسرا وسواء لديهم أن كانت تلك الخطط قد بلغت نهايتها أم لم تنته بعد • وكان جيسان قدزرع بذور الشك في ذهن الفوهرر مما دعاه الى التفكير والتردد • ولم يكن جيسان ليطمع في أكثر من هذا في ذلك الحين حتى جاءه مدد غير مقصود ولم يكن يتوقعه من أولئك الذين كانوا يعـارضون بشـدة ـ ممن كانوا يعطفون على النازى • ومن رجال الحكومة الذين يعتقدون أن السويسريين ينبغي لهم « أن يهيئوا أنفسهم » للتمشي مع نظام هتلر الجـديد • حيث أوجدوا شعورا في برلين بأنه ليس ثمة حاجة للقتال من أجل سويسرا لان السويسريين سوف يعترفون بالامر الواقع من حيث سـيطرة المانيـا في أوروبا وسوف يتفقون معها في جو من السلام •

ولكن خلال شهرى مايو ويونية أخذت دعائم النظام القديم في أوروبا تتداعى الواحدة تلو الاخرى • وذلك عند ما دخل الالمان باريس • وفرت عشرات الآلاف من القوات الفرنسيـة تلتمس لهـا ملجـأ في سويسرا • وعند ما تم جلاء البريطانيين عن مراكزهم في القـارة وطالب الفرنسيين بعقد الهدنة • ولكن الالمان ترددوا بين التريث والاقدام • ومرتان أو ثلاثة بدا أن الالمان قد كسبوا المعركة الى حد ما • وكان في أذهان جميع الالمان صورة غامضة لامر غير محقق وهو جيسان وأمته المسلحة• وانتهز جيسان كل فرصة لملىء هذه الصورة •

ففي ٣ يونية أصدر أمرا آخر الى القوات • وفي هذه المرة ركز اهتمامه على كل شكل ممكن من المقاومة الروحية والعسكرية • حيث كان كل رجل عليه واجب يرتبط به وهو « أن يقاتل حتى الموت » ولم يكن هذا القتال من النوع الذي يستسيغه الالمان بعد انتصاراتهم في بولندة والنرويج وفرنسا دون آلام أو متاعب نسبيا • ودار الجدال بين زعماء النازى • هل الافضل هزيمة السويسريين من الداخل أو الانتظار ريثما تدب فيهم عوامل الاضمحلال وتضعف فيهم روح المقاومة • وعلى جميع الاعتبارات كان من الملحوظ تغير وجهة نظر الرئيس الفدرالى • كما كان تزايد يدعو الالمان المتحمسين ومنظماتهم من السويسريين المشفقين عليهم في المانيا وفي سويسرا • وعلى ذلك كان الزعماء الالمان في كل مرة يدعون فيها لوضع قرارهم • يغلب عليهم الجدال بشأن الانتظار • وبالاطلاع على التقارير الواردة من المفوضية الالمانية في برن وعلى الاخص من شبكة الجاسوسية الالمانية الواسعة النطاق في سويسرا • أقر زعماء النازى الرأى على أنهم لن يلجأوا الى الانتظار طويلا • وفي رأيهم أن السويسريين ـ برغم جهود جيسان ـ سرعان ما يصبحون لقمة سائغة يسهل التهامها • ولكن كان كل يوم يؤجل الالمان فيه عدوانهم على سويسرا ـ مهما كان السبب ـ يعد كسبا لجيسان • وبعد ذلك ـ وفي اللحظة الحرجة ـ تدخل عامل آخر لصالح جيسان ولم يكن متوقعا • وكان رصيدا آخر له لكى يشتد في سياسة الخداع •

ذلك هو دخول ايطاليا الحرب • حيث أخذ موسولينى يضغط على هتلر لكى يقوم بتوريد المواد الخام توريدا منتظما • وهو ما تعهدت به ألمانيا أن تكون هذه المواد متوفرة بمقتضى اتفاقية اقتصادية يرجع تاريخ عقدها الى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٠ • وفي هذه الاتفاقية وعد الالمان أن يوردوا الى ايطاليا مليون طن من الفحم شهريا • وكذلك ما يزيد عن الف طن من المنتجات البترولية والكيماوية •

وهذه الاتفاقية مد أجلها في ١٨ يونيو سنة ١٩٤٠ بعد دخول ايطاليا الحرب • وزيادة على ذلك وعد الالمان بتوفير كل شهر ٣٥ الف طن من الصلب وخمسة الاف طن من الحديد المطروق وخمسة الاف طن أخرى من مختلف المواد الخام • وخارج هذه الاتفاقيات كان على الالمان أن يوردوا لشريكتهم في المحور البترول والاسلحة والعتاد • ولكن لم يكن هذا كله من اختصاص طرف واحد بل كان على الايطاليين أن يرسلوا مقابل ذلك الطعام وخاصة الايدى العاملة لاستخدامها في المانيا •

وكان لزاما أن تنقل هذه التوريدات بطريق السكة الحديد مع مراعاة أقل ضغط ممكن على أجهزة النقل الالمانية . وبخاصة على الخطوط العسكرية المحددة للمواصلات بين المانيا وايطاليا فلابد من ايجاد خطوط تسير عليها سيارات النقل ٠ وكان الجواب على ذلك فى ايدى جيسان مرة أخرى ٠ حيث كان هناك خطان رئيسيان من المانية الى ايطاليا فى أيدى الالمان وذلك عن طريق برنر Brenner فى النمسا وخلال مونت سنى Mont Cenis فى فرنسا ٠ ولكن كلا من الطريقين كان يستلزم رحلات متعرجة فوق خطوط مطلوبة بنوع خاص لتحركات العسكريين والشئون الحربية التى لا يمكن ارسالها بأى طريق آخر ٠ ويتبقى بعد ذلك طريق سنت جوثارد خلال سويسرا ويعد أقرب الطرق وأكثرها راحة لمرور المواد الى الايطاليين ٠ مع طريق سيمبلون الذى كان ثانويا واطول مسافة وله أهميته باعتباره وصلة اضافية خلال سويسرا أيضا ٠

وأخذ الالمان يرقبون بارتياح متزايد نحوا من مائة وخمسين قطارا فى كل يوم يتألف من خمسين الى ستين عربة تشق طريقها عبر نفق جوثارد محملة بالمواد المتفق على توريدها الى موسيلينى ٠ وكانت مظاهر القلق تسود كثيرا من السويسريين عند رؤيتهم الالمان يمرون خلال ديارهم ٠ كما كان البريطانيون ينظرون نظرة استياء لهذا الوضع ٠ ولكن جيسان وجد الفرصة من حيث اعتماد الالمان والايطاليين على المواصلات السويسرية ٠

وفى الوقت ذاته كانت الجبهة الوطنية قد تدهورت الى درجة تنذر بالخطر ٠ وعمت عناصر الاضمحلال السكان جميعا من الرئيس والحكومة الى جماعة الضباط والوسط العمالى حتى العمال أنفسهم ٠ وانقسم الجميع بين « من يعتزمون المقاومة » و « من يهيئون أنفسهم للتمشى مع النظام الجديد ٠ » وهؤلاء المهيئين كانوا أكثرهم نفوذا وأقواهم مكانة وأحسنهم تنظيما ٠ واما المقاومون فقد لاذوا بالصمت والخمول كلما لاح لهم شبح القوات العسكرية الالمانية المظفرة اذا ما اجتاحت سويسرا الحيادية ٠ حتى الصحافة أصبحت مقيدة ضمن مناطق الصمت التى فرضتها السلطات ٠

وفى الوقت ذاته ـ بطبيعة الحال ـ كانت هناك مجموعتان كل منهما مستقلة عن الاخرى ٠ وكل منهما لا تدرى ما يدور باذهان الاخرى ٠ ولكنهما كانا ينشطان فى الاستعداد لمناهضة الاتجاه نحو مسايرة الريخ الثالث ٠ وعلى أى حال كانت هذه الاتجاهات المختلفة والمنفصلة والمعارضة تسير نحو ذروة الاحداث المثيرة فى ٢٥ يونية سنة ١٩٤٠ ٠

وفي الدقيقة الخامسة والاربعين بعد منتصف ليلة ٢٥ يونيو كان تنفيذ وقف اطلاق النار في فرنسا وبعد بضع ساعات كان جيسان ــ في مقر قيادته ــ قد أحاط خبرا بالموقف المتغير الذى حول سويسرا الى قلعة فى جزيرة في بحر النازى ــ ومن جميع الوجوه كان الموقف أشد سوءا مما هو فى الجزيرة الاخرى التى كانت تعارض حكم النازى فى أوروبا معارضة فعلية . وأصبح جيسان على يقين من أن الاستيلاء على فرنسا لن يبعد الخطر على سيادة سويسرا سواء عاجلا أو آجلا . حيث لم يتخل الالمان عن استعداداتهم للهجوم على سويسرا . فمنذ عشرة أيام فقط فى ١٥ يونية ضبط أثنا عشر من الالمان المخربين كانوا يعملون على تدمير المطار الحربى الرئيسى في سويسرا . وأصبحت خططه الاولى « الشمال » و « الغرب » لا جدوى منها بل كانت تنذر بالخطر ولذلك أمر باتلاف أوراقها لانها كانت وضعت على أساس التعاون مع فرنسا فى حالة هجوم الالمان .

ثم أن التقلب الفجائى Coup de Theatre للالمان ــ كما كان يسميه ــ قد غير كل شيء . واصبحت سويسرا محاطة من جميع الجوانب فكان الالمان أسياد الموقف فى أوروبا الغربية . ولم يبق سوى الوصلة « السويسرية وهى الرقعة الطبيعية التي تمنع الاتصال بين شريكتى المحور . فأخذ جيسان يتناقش حول تكملة الاستيلاء على غرب أوروبا بأن يعمل هتلر على ازالة همزة الوصل السويسرية اذا قام هتلر فى نفس الوقت بهجوم على سويسرا مع الاربع جهات ــ كما يقول جيسان ــ فان السويسريين « لن يكون لديهم القوى أو أوجه الدفاع اللازمة . » ولم يكن فى وسعه أن يفعل شيئا لمجابهة الموقف الراهن ولكنه كان يأمل أن الصورة الخيالية التى رسمها للامة السويسرية من حيث تصميمها واستعدادها قد تستمر فى ارهاب الزعماء النازيين . ولكن مهما كان الموقف الذى اعتزمه جيسان لتحويل الهجوم الالمانى . فأنه لم يكن ليحقق النجاح بالنسبة لحكومته وشعبه حيث استمر الانقسام بينهم واتسعت دائرته .

وفى اليوم السابق (٢٤ يونية) بينما كان جيسان يقلب النظر فى موقفه الشائك اتخذ فى الوقت نفسه خطوته الحاسمة نحو المستقبل . فبعد أن قضى عدة أشهر فى تحرير مسودات ويختار أصلحها قرر تنفيذ مشروعه النهائى بشأن « الحصن الوطنى » وهو مركز للدفاع يقام على مرتفع في الجبل فى سويسرا الوسطى . وكانت فكرة اقامة الحصن قد بدأت تجول بخاطره فى مستهل الربيع ولكن الان بعد الاستيلاء على فرنسا

كمستند له اجتمع برئيس أركان حربه واثنين من كبار الضباط في مقر قيادته في ورب Worb حيث قدم هوبر رئيس أركان الحرب خريطة صغيرة مبينا عليها المواقع الجديدة للدفاع ـ ومعظمها من عمل كولونيل جونار Gonard أحد الضباط النابهين ومن شباب الضباط ممن هم موضع ثقة كبيرة لدى الجنرال •

وكانت الخطة لا تزال ناقصة وما قد يعتروها من تورطات لم يكن واضحا جليا حتى في نظر من قاموا برسم خطوطها • ولكن الجنرال كان يدرك ماذا يصنع . وكتب في تقريره يقول : « ان ما يعنيني هو اتخاذ قرار مبعثه الشعور بروح قوية • واني ورئيس أركان الحرب علينا أن نرسم في أذهاننا صورة واضحة للاهداف البعيدة المدى لكي نكون على استعداد لكل ما يترتب على سياسة اقامة الحصن » • وفي نظر جيسان أن الامر قد انتهى باتخاذ القرار • ولكن الامر يختلف بالنسبة للبلاد والجيش • فلا تزال أمامه أربعة أسابيع يجوس خلالها ويلاقي أكبر أزمة أدبية وانقسامات وطنية في سويسرا •

وفي نفس يوم ٢٥ يونية اذاع مارشال بيتان رئيس مجلس وزراء فرنسا من بوردو رسالته بشأن التسليم الى الامة الفرنسية • وتحدث عن « التفوق الساحق » للقوات الالمانية المسلحة • وفي لندن تحدث رئيس الوزراء ـ ونستون تشرشل ـ الى البرلمان واعرب عن أمله يقول « أتمنى أن توهب لنا الحياة والقوة لانقاذ فرنسا مما حل بها من الدمار وذل العبودية » • وبعد ذلك ـ في نفس هذا اليوم الحاسم ـ جاء صوت المتحدث بلسان الجزيرة الديمقراطية الاخرى في قلب أوروبا • وكان دور الرئيس الفدرالي ـ بيليه جولاز ـ لالقاء خطابه على الامة السويسرية •

أشار الرئيس الفدرالي في حديثه الى الجبهة الوطنية مما كان موضع ارتياح بوجه عام • ولكن تصويره لاوروبا الجديدة وما أحدثته من رد الفعل لدى السويسريين حرك مشاعر الخوف في أولئك الذين يدركون ما يجول بخاطر بيليه جولاز وزملائه • ولكنها كانت مشاعر خاصة الى مدى بعيد • ولم تسمح الرقابة الصارمة على الصحافة والارشاد المحكم لان يتناول خصوم الرئيس الفدرالي اذاعته في مناقشات واقعية • حتى قبل أن يلقي الرئيس خطابه كانت الصحافة قد تلقت أوامرها من الرقابة على الصحف • ونصحتها الا تذكر شيئا أكثر من الاعراب عن أسفها لاشتراك ايطاليا في الحرب • وان ذلك معناه نشوب حرب بين جارتين

صديقتين لسويسرا · وأنذر المحررون أن سويسرا على يقين من صداقة موسيليني لها ويجب معاملته طبقا لذلك ـ وبعد اسبوع ـ بعد احتلال الالمان لباريس ـ أصدر الرقيب أوامره الى الصحف بأن تتناول انتصار الالمان في شيء من « الهدوء والامر الواقع » · دون التحامل على المكاسب العسكرية الهائلة التى أحرزها الجيش الالمانى · ويجب أن ينال هذا النصر ما يستحقه من الثناء · والا يذكر مشارا اليه بالتفوق الفنى أو « الميكانيكى » ·

واضطرت الصحافة السويسرية لجعل تعليقاتها الصادقة الصريحة خاضعة للاتجاه الحيادى الذى لا لون له · كما كان اعداد التصريح الذى يلقيه الرئيس الفدرالى نيابة عن الحكومة فى ٢٥ يونية أمرا مفهوما ·

حتى كلمات جولاز كانت تحيط بها هالة تنذر بالشر حيث قال « لقد حان الوقت لاجراء تجديدات داخلية · ويجب أن ننظر الى الامام فنتوخى الكياسة والمنفعة فى اعادة بناء هذا العالم وما لحقه من انقلابات مفاجئة» · ومما يثير الدهشة أن هذا التصريح الرسمى الموجز كان له صدى قليل فى محيط الصحافة · ومرجع ذلك الى تأثير سلطان الرقابة أكثر من ضعف الشعور بالغضب والخجل الذى أثاره خطاب الرئيس · كما أن صمت جيسان أحدث موجة من القلق فى البلاد وبين أفراد الجيش · وتراءى لكثير من الضباط والجنود والجمهور والسياسيين أن جولاز قد بسط نفوذه على جيسان الذى لاذ بالصمت مما أكد لهم مخاوفهم · وهؤلاء هم الذين أثاروا احدى الحركات السياسية غير العادية فى تاريخ سويسرا ·

ذلك لان الرئيس الفدرالى لم يجعل رغبته فى اتخاذ اجراءات عملية مع ألمانيا الجديدة مقصورة على الاذاعة بمفردها · بل أراد أن يذهب الى أبعد من ذلك · فأخبر حكومته أنه يتمنى أن يكون لديه سبب معقول ـ وسماه بعضهم ذريعة مناسبة ـ لقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى لكى تسهل سياسة الاتجاه نحو الشرق ـ نحو أوروبا الجديدة ·

ولم يعلم الجمهور شيئا عن مقاصد الرئيس الفدرالى ولكن لم يخطىء أحد أين يكون مهب الرياح · وظهرت أعمال عدوانية من نوع جديد بين المنظمات الالمانية وبين انصارهم من السويسريين · ففى محيط الاعمال بدأ أصحاب الاعمال فى اعادة تقدير ما تحتاجه البلاد فى المستقبل ·وهذه الحاجات كلها كانت ترتبط اما بالمصالح الالمانية أو الايطالية · وأخذت

تزداد المطالب بالعودة الى الحالة العادية • ومن حسن الطالع أن سويسرا جاوزتها موجة الحرب واصبح النظام الالمانى الجديد حقيقة واقعة تم تكوينها • وكان على السويسريين - اذا أرادوا - أن يهيئوا أنفسهم التهيئة اللازمة • وطبقا لذلك كانت الخطوة الاولى التى يتطلبها الموقف الجديد هى تسريح الجيش واعادة افراده الى أعمالهم المدنية • لان بقاء القوات معبأة ضد الالمان والايطاليين - وهذا هو القصد المفهوم الآن - فضلا عن تكاليفها فانها لا لزوم لها وتعد استفزازا للريخ الالمانى •

لاحظ جيسان هذا السلوك الجديد وأصبح من شأنه - أكثر من غيره - الا يقاوم الضغط الالمانى فحسب بل كذلك ميول الرئيس واغلبية الحكومة الفدرالية - وشاركهم فى ميولهم بعض كبار قادة جيسان وقسط كبير من الرأى العام مما لا يبعث على الارتياح • ولكن هل يستطيع جيسان المقاومة ؟ وهل يستطيع استخدام سلطته الكبيرة الى هذا الحد ؟ وعند هذه النقطة الحرجة تبين لجيسان وجود حركتين متوازيتين تستتر كل منهما وراء الاخرى • واصبحتا معروفتين « بمؤامرة الضباط » و « حركة المقاومة الوطنية » وكانت الاولى تتألف من مجموعات عسكرية • والثانية من المدنيين الذين ينتمون الى احزاب •

وظهرت كلتا الحركتين بعد الهزائم التى جاءت عقب سقوط فرنسا • وترجع كلتاهما الى أصل واحد • ولم تكن حركة الضباط مؤامرة فعلية بالمعنى المفهوم • ولم تكن - فى الواقع - مصممة للاطاحة بسلطة الجنرال ولكن لتعزيزها ضد سياسة الرئيس وأولئك الذين يسعون للانسجام مع الالمان • وكان هذا تفسيرها فيما بعد وقبل جيسان هذا الايضاح • وهو تفسير صادق لاغراض الضباط الذين كانوا اطرافا فى المؤامرة • ولكن الشىء الذى غاب عن الانظار بعد الحرب من حيث الحركتين وما تناولهما من توضيح وتفسير أن كلا الفريقين من الضباط والزعماء السياسيين لم يكونوا على يقين من حقيقة موقف الجنرال •

لم يعلموا اذا كان الجنرال قد احتفظ بسياسته وتصميمه على المقاومة بالرغم من الاتجاه الجديد للحكومة الفدرالية• ولم يتأكدوا ان كان جيسان محتفظا برأيه المستقل أو تحول للقيام بدور القائد الدستورى الاعلى وقبل الاتجاهات السياسية للسلطات المدنية • وعلى ذلك كان « المقاومون » يأملون فى العمل على تأييد الجنرال من جهة • ومن جهة أخرى معارضيه فى حالة خضوعه لوجهة نظر الحكومة حول أن الانسجام مع المانيا شىء ضرورى وان الرغبة تتجه نحو تسريح الجيش على نطاق واسع •

وكان الدافع على تكوين « مؤامرة الضباط » منبعثا أصلا من مجموعة من الضباط المتميزين بالاطلاع على بواطن الامور ـ ومعظمهم برتبة كابتن ـ ومنهم تكونت الهيئة الفعالة فى ادارة المخابرات الحربية السويسرية . وكانوا اعضاء الفرع الخاص للمخابرات ومقر رئاسته فى لوسيرن ولهم صلة وثيقة بهيئة أركان الحرب وبالجنرال نفسه . وكانت تقريبا منظمة قائمة بذاتها داخل جهاز المخابرات الواسع المدى . وتحت اشرافها سبل استثنائية للحصول على المعلومات . وكانت لهم عيون منبثة فى ألمانيا ترقب نشاط الالمان كما كانوا على دراية بما يصنعه عملاء الالمان فى سويسرا . وعند ما ألقى الرئيس الفدرالى تصريحه فى ٢٥ يونية بدأ هؤلاء فى عمل ملف ضخم يجمع معلومات عن مظاهر نشاط الادارة السياسية وبعض ممثليها فى الريخ الالمانى وفى الدول التى احتلها الالمان . مما كان له صورة مزعجة للتعاون بين الرسميين فى سويسرا ـ سواء عن قصد أو غير قصد ـ وبين الالمان .

ولكن منظمة « المتآمرين » لم تكن قائمة فقط على خدمة هيئة الجيش لان من طبيعة اخلاق القوات المسلحة السويسرية أن كل مدنى يعتبر فردا منها . وكل جندى يحتفظ بحقوقه وواجباته المدنية باهتمام كبير . لذلك كان من الصعب دائما الفصل بين العناصر المدنية والعسكرية فى حركة المقاومة . وفى مستهل تكوين «المؤامرة» انطلقت شرارة المقاومة من المحيط العسكرى الى المسرح السياسى وتكونت حركة المقاومة الوطنية .

ومن بين زعماء هذه الحركة أعضاء بارزون فى البرلمان مثل أورى Oeri من بال . وجافنر (الذى كان كولونيلا فى هيئة أركان الحرب) من برن ـ وفيلدمان من برن أيضا ـ والزعيم الحالى للحزب الديمقراطى الاشتراكى أو برخت من زيورخ . وكلوتى من زيورخ أيضا ـ وبعد ذلك اشترك مع مؤسسى الحركة الاستاذ المشهور رابارد Rappard من جنيف . وكذلك رجل الدين المعروف دكتور جتزويلر Gutzwiller . ثم مسارد Mussard المدير الادارى للمؤسسة السويسرية جنرال موتورز . ومن الجيش كان محبذو الفكرة الرئيسيون ثلاثة من كبار ضباط المخابرات السويسرية ـ أرنست ، ويبل ، هوزامان . وكولونيل فرى Frey الذى كان موضع ثقة خاصة لدى الجنرال . وفريك Frick الكابتن بهيئة اركان الحرب . وآخرون كثيرون ممن يشغلون مناصب رئيسية وحكومية فى ادارة البلاد من دبلوماسيين وقضاة ووزراء وقعوا بامضاءاتهم

على التعهد بمناهضة أى نوع من الاذعان أو الخضوع • حتى اذا كان الامر صادرا من الحكومة فانهم سوف يقاومون ويعملون حتى تكون القوات المسلحة دائما قادرة على تنفيذ أوامر الجنرال •

وأصبحت الحركة ـ في الواقع ـ برغم ادعائها بشرعيتها ـ حركة سرية غير قانونية تهدف من أول وهلة الى اثارة الشعور فى الدوائر العليا وعلى الاخص الرئيس الفدرالى ومن هم على شاكلته ـ كما كانت تستهدف معارضة ومراقبة أوجه النشاط المتزايد بين المجموعات الموالية للالمان • وكان عذرها الحقيقي ان مهمتها الاساسية هى مقاومة أىانتهاك للديمقراطية السويسرية سواء من ناحية الالمان أو غيرهم . ولم يكن أعضاؤها من ذوى النفوذ فحسب بل استخدموا هذا النفوذ فيجميع نواحى الحياة•فأصدروا نشرة اسبوعية دون ترخيص باسم « معلومات الاسبوع » تحتوى علىأنباء وتعليقات لا تعرض على الرقابة • وتشكل تحديا مباشرا للسلطات •

وفى الوقت ذاته كان ضباط المجموعة يمارسون نشاطهم وخاصة بين ضباط الصف والجنود • فوضعوا الضباط المشتبه فى أمرهم تحت المراقبة وزودوا عملاء « المؤامرة » بالاوامر والتوجيهات موضحة ما يجب عليهم القيام به فى حالة الطوارىء • ووصل الامر الى درجة أن الحكومةاذا خضعت للالمان بشكل ملحوظ فأن جزءا كبيرا من القوات المسلحة والرأى العام سيرفضون ذلك الاتجاه رفضا باتا وبصورة علنية ـ اذا لم يحدث شيء أشد سوءا • وليس من شك ـ الا قليلا ـ فى أن الحكومة اذا اذعنت لمطالبالالمان المتطرفة مثل طرد الجنرال جيسان أو الموافقة على اشتراك أى من الاحزاب الاشتراكية الوطنية فى أعمالها أو منح أية امتيازات عسكرية فأن الجواب على ذلك سوف يكون فى هيئة انقلاب عسكرى ضد الحكومة •

ولكن كيف يتسنى لاية حركة مثل هذه أن تشق طريقها دون تدخل من الشرطة أو من سلطات الجيش فى دولة تحافظ على قوانينها كسويسرا؟ فقد كانت الحكومة على علم بما يجرى • وكانت الشرطة السويسرية على يقين من أمر الحركة • وكذلك كان جيسان • ومع ذلك لم يحدث شيء فى تلك الاسابيع الاولى ذات الاهمية الكبرى من حيث التدخل فى شئون المؤامرة التى قد تصبح فى اية ثورة أهلية ضد الحكومة وما تتخذه من اجراءات للسير فى ركاب الالمان •

ثم فى مقر قيادة الجنرال نجد التعليل والايضاح لعدم رغبة السلطات أو عجزها عن اتخاذ الاجراءات ضد المؤامرة • فقد صرف النظر عن جميع

الشكاوى التي وصلت اليه في هذا الصدد واتخذ سبيله في طريقه المختار وواصل السير فيه • وذلك لانه بدأ أن يرى الضوء في نهاية الطريق الطويل المظلم الذي اختطه لنفسه بعد أن اضطلع بالمسئولية منذ عام مضى تقريبا • وبطريقة ما كانت حركة المقاومة الوطنية ومؤامرة الضباط والرجعية التي أسفرت عنها مما يناسب خططه التي رسمها • وكان وجود هذه العناصر مقياسا للتغيرات يحتمل أن يكون في صالحه أكثر من أن يكون عقبة في سبيل خططه •

أحس جيسان بأن انصاره قد فقدوا ثقتهم فيه مما كان مبعث قلق كبير له • وذلك لالتزامه الصمت بعد تصريح بيليه جولاز • حيث لم تظهر عليه دلالة واضحة على تجاهله أو معارضته لذلك التصريح • وتبين لهم أنه قد تخلى عن سياسته بشأن المقاومة بأي ثمن • فما أقل معرفتهم به • ومع ذلك فلم يستطع أن يوجه لهم اللوم ولن يتسنى له ذلك • ولم تكن مظاهره تدل على شيء حتى يخلفوا ظنهم في سلوكه •

ولكن جيسان كان على أهبة الاستعداد الان وبعد قليل سوف يعلن عن نفسه وحينئذ لن يكون هناك مجال للشك أو حاجة لاخفاء أوجه النشاط• بيد أنه في احتياج الى كل فرد على استعداد للمقاومة في ظل القانون أو خارجا عن القانون • فرفض ما أصر عليه الرئيس الفدرالي من المطالبة بشدة بتسريح القوات المسلحة • ولكنه وجد أن الرئيس الفدرالي يواصل الضغط عليه • وبدا له أن جولاز يستند الى أغلبية في الحكومة والى أعضاء من رجال الاعمال ذوي النفوذ والى بعض كبار ضباط الجيش المعروفين وعلى الاخص داينكر Daniker ، ويل Wille ابن القائد الاعلى السويسري خلال الحرب العالمية الاولى •

وأدرك جيسان أنه لا يستطيع أن يبقى طويلا دون الاعلان عن سياسته ودل على ذكائه بأن تجنب أية أخطاء تؤدي الى الدمار قد يرتكبها من هم أقل درجة منه في مثل ظروفه هذه • فلم يتهور ولزم جانب الحرص في خطته • وأبدى من حسن التدبير والعناية والهدوء مما لم يتوقعه زملاؤه المقربون ولم يكن موضع رضى وثناء عليه •

فقد أدرك أن مجرد اعلانه عن حقيقة موقفه وعن عزمه على مواصلة سياسة المقاومة لن يكون لذلك سوى صدى وقتي وأثر عابر • وأنه أراد أن يدعم موقفه ــ وذلك ما كان يرمي اليه ــ فما عليه الا أن يرتكز على أمر

لا يمكن أن يكون موضوع نزاع أو جدال بينه وبين الحكومة أو أى فرد محب لوطنه • وهو أمن الدولة • وبذلك يستطيع أن يبرر معارضته لاولئك الذين ينسجمون مع نظام المانيا من اعضاء الحكومة ومن الافراد • وأصبح جيسان على استعداد تام للاعلان عن موقفه ومقاصده •

وفي وقت متأخر من مساء ٤ يولية سنة ١٩٤٠ جاءه رسول بخطاب من الحكومة الفدرالية • وكان جيسان قد آوى الى مخدعه فلم يوقظه نائبه• وكان هذا هو الامر الذى يترقبه جيسان ويأمل أن يصل اليه • فقد أجابت الحكومة الفدرالية على السؤال الرئيسى الذى وجهه اليها • وكان ردهما فى الوقت المناسب له قبل أن يسير قدما فى تنفيذ خطته • وكان سؤال جيسان لا يوحي بأى معنى ولكن لا ضرر منه : هل لا تزال التوجيهات والتعليمات التى تلقاها من الحكومة عند نشوب الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ نافذة المفعول ؟ وهل عليه أن يواصل سيره لضمان استقلال البلاد وسلامة أراضيها باستخدام أية قوات عسكرية يحتاج اليها ؟ ولم تستطع الحكومة الفدرالية أن تواجه سؤالا مباشرا كهذا الا بتأييد تعليماتها السابقة • ولزم جيسان جانب الهدوء بعد أن وضع هذا التأكيد فى جيبه آمنا مطمئنا • ولم يعبأ بأن يكون عرضة لسوء الظن سواء من اصدقائه أو أعدائه •

واصبح جيسان يستطيع أن يواصل سيره • فأصدر أمرا الى الضباط الذين يضعون خطط الدفاع بالحضور الى مؤتمر عقده فى مقر قيادته فى ولب Wolb فى اليوم التالى – يوم السبت ٦ يولية • وفى رأيه أن ليس هناك مجال لضياع الوقت • وأحضر الضباط معهم ثلاثة مشروعات ليختاروا منها ما يصلح لقلعة جبال الالب Reduit التى سوف تكون مركزا للدفاع السويسرى • وقرر جيسان أن يأخذ بالمسودة التى وضعها جونار • وفى الحال دعا رئيس اركان الحرب وبعض كبار الضباط الى مقر قيادته لاخبارهم على انفراد بمقترحاته •

جاءت الخطوة المحرجة بعد ذلك • فقد أمر مساعده برنارد باربى أن يعد مذكرة الى الحكومة يوضح فيها مقاصده • واهتم باربى باعداد هذه الوثيقة الدقيقة اهتماما كبيرا • حيث كان عليه أن يخطر الحكومة بكل شىء يتعلق باقتراح الجنرال دون أن يبدوا أنه يحمل بين طياته مناقضات للاتجاهات السياسية الحديثة التى يأخذ بها البارزون من أعضاء الحكومة • كما كان عليه أن يضع المذكرة بحيث تكون شاملة لكل ما يتعلق بشئون الامن والدفاع عن الوطن ليكون من الصعب لاى وزير أن يثير أى اعتراض من حيث المبدأ •

اعدت هذه الوثيقة بعناية بالغة • وهى المذكرة التى أعدها جيسان لارسالها الى صديقه مينجر رئيس الادارة العسكرية فى وزارة الحرب السويسرية • وبطبيعة الحال كان جيسان يفكر فى الخطوة التالية • لان هذه المذكرة كانت خطوته الاولى القانونية ـ كما يقال ـ والحركة التالية كانت هامة الى حد بعيد • وهي بيانه الصريح الى الجيش ثم الى جميع المواطنين وبعد هؤلاء الى اسياد أوروبا الجدد الذين يحكمون فى برلين وروما وأخذ جيسان وبطانته يمعنون فى التفكير كيف يكون لتصريحه أكبر أثر ممكن وتوصلوا الى نتيجة واحدة وهى أن تكون روتلى Rütli للمرة الثانية مكان الاعلان عن استقلال سويسرا •

ارسلت المذكرة السرية للغاية الى مينجر فى ١٢ يولية سنة ١٩٤٠ • وكانت حركة تدل على توقد ذهن الجنرال • ذلك لان مينجر كان فى صفه بينما يتمتع بالثقة التامة لدى الستة الاعضاء الاخرين من الوزارة الفدرالية • فبعد أن قرأ مذكرة جيسان طلب فى الحال اجتماع الوزارة لعرضها عليهم • واخذ الوزراء فى الحديث حول مشروع قدمه الجنرال • ولكن مينجر تدخل فى الامر وأوضح لهم أن هذا ليس مشروع الجنرال وانما هو اقتراح مقدم منه باعتباره الوزير المسئول • ثم أن اقتران آراء جيسان مع مسودة جونارد ومذكرة باربى وتدخل مينجر واقحام نفسه فى الامر أدى الى سير الامور على ما يرام مما يدل على أن جيسان قد فكر فى الموضوع من جميع نواحيه فلم تجد المعارضة منفذا قانونيا للرفض ، ولم يجدوا سبيلا لمقاومة الخطة الا بتعريض انفسهم ولم يكونوا على استعداد للمقاومة •

بيد أن بيليه جولاز والاخرين الذين شاركوا الرئيس الفدرالى قلقه حول وجود جبهة جريئة للسويسريين قد تكون مثار استفزاز للالمان • لم يشعروا بالاثر الذى يترتب على اتجاههم هذا• لان سياسة جيسان تحتاج الى سنوات لتنفيذها وتبقى من الاسرار الحربية • وعلى ذلك لن تكون سببا لاثارة الجمهور أو الالمان • ورأوا أن ليس ثمة ما يدعو للشعور بأن سياستهم حول السير فى ركاب الالمان قد تتأثر بمشروع جيسان من حيث اقامة حصن المقاومة • مما يدل على أنهم لم يعرفوا جيسان حق المعرفة •

ففقد حصل على اعتماد الوزارة لخطته التى بناها على اقامة حصن وطنى فى قلب جبال الالب وهو Reduit • وعليه الان أن يقدر النتائج المرتقبة وشق طريقه على هذا النحو • ولندخل فى اعتبارنا أولا المذكرة التى أرسلها جيسان الى الحكومة والتى نالت موافقة الوزارة •

أوضح جيسان فى مذكرته التغيرات التى لحقت بموقف السويسريين على أثر سقوط فرنسا ودخول ايطاليا الحرب وتطويق سويسرا بالحلف الالمانى • ورسم صورة مكبرة لما تظنه حول هذا الموضوع ـ وقد عرف القارىء ذلك من قبل ـ واكد القول بأن عجز القوات المسلحة السويسرية لن يمكنها من المقاومة الجدية أو لمدة طويلة فى بلاد مكشوفة • وعلى ذلك اقترح وجود قوات أمامية على الحدود كما تقدم • فهى بمثابة اسلاك ممتدة على الحدود • هى عيون وآذان للجيش • ويتلو ذلك ايجاد مراكز دفاعية فى الاراضى المنخفضة تحتلها قوات قليلة مهمتها عرقلة العدو • وأخيرا المركز القوى الـ Reduit وهو القلعة الجبلية التى تغطيها الحصون السويسرية الثلاثة ـ سار جانس فى الشرق وسانت موريس فى الغرب وجوثارد فى الجنوب • ولابد أن يكون لدى قوات الحصن الفعلية العتاد الكافى للصمود فى وجه الهجمات التى تأتيها من جميع الجوانب ومن الجو• وأن تكون علىاستعداد اذا لزم الامر لتدمير نفقىجوثارد وسمبلون والطرق الممتدة فوق جبال الالب •

وأكد جيسان أن هذا معناه أن القوات خارج الحصن لن تلجأ الى التقهقر أو يرتد السكان المدنيون • فالقوات والاهالى عليهم أن يثبتوا فى أماكنهم ويقاتلوا • وبالحكم على المناقشات التى دارت بين أعضاء الوزارة يتبادر الى الذهن هل ادرك الوزراء ـ باستثناء مينجر ـ مبلغ التورطات التى تؤدى اليها اقتراحات جيسان أو ربما اذا كان بعضهم قد توصل الى معرفتها فانهم لم يؤمنوا بحدوث حالة الطوارىء • كما أنهم لم يقدروا مشاعر جيسان وقوة شغفه وعزيمته • والى أى مدى كان على استعداد لمواصلة تنفيذ خطته •

وبمجرد حصول جيسان على موافقة الحكومة تابع سيره • وفى بضعة أيام أصدر أمر العمليات رقم ١٢ • واصبح هذا الامر التوجيه الاساسى الحكيم لانشاء وتخطيط حصن الجبل • وبيان نظام القوات على الحدود وفى المراكز الامامية • والقوات التى خصصت للدفاع عن الحصن • كما أمر باجتماع جميع القادة من كبارهم الى قادة السريات فى الروتلى Rutli يوم ٢٥ يولية •

وفى نفس الوقت أدرك الالمان أن هناك شيئا يلوح فى الافق • فأرسل جورنج تعليمات مشددة الى المفاوضين الالمان الذين كانوا يناقشون وفدا سويسريا حول توريد الفحم الى سويسرا • ورأى الالمان أن يلتزموا جانب

الشدة مع السويسريين • وطلبوا اعادة تسعين طائرة مقاتلة مسرشميدت سبق ارسالها الى السلاح الجوى السويسرى• وأمر جورنج بتاريخ ٣يوليه بايقاف توريد الفحم اذا رفض السويسريون اعادة الطائرات •

وجرت المفاوضات بعد ما يقل عن اسبوع واضطر السويسريون للتنازل مرة بعد الاخرى ليرفع الالمان الحظر على توريد الفحم • لان السويسريين كانوا يعتمدون اطلاقا على رغبة الالمان فى توريد الفحم والحديد والصلب والبترول • وكان الخلاف بين جيسان والحكومة هوكيفية تعادل كفتى الميزان بينهم وبين الالمان • ورأت الحكومة أن السبيل الوحيد للحصول على الفحم والزيت هو التنازل من ناحية وسماحة الالمان من ناحية أخرى • فأخذ جيسان يجادل الحكومة فى أن الالمان يعتمدون كذلك على سماحة السويسريين • حيث لا يستطيعون الاستغناء عن المرور خلال سويسرا ولا عن المنتجات السويسرية من الات الساعات والصناعات الهندسية التى تنتجها سويسرا بنوع خاص • ولكن هذه المناقشات لم تصل الى دور محادثات بين الطرفين ــ الجنرال والحكومة ــ بل احتفظ كل منهما بما يراه وتابع السير فى طريقه •

حتى اذا جاء يوم ٩ يولية كان الالمان قد حصلوا من الوفد السويسرى على امتيازات لها قيمتها وظنوا أنه لم تعد ثمة ضرورة للضغط عليهم لاعادة طائرات مسرشميدت التى سبق أن طلبها جورنج • فقد وافق السويسريون على أن يدفعوا للالمان احتياطيات الحكومة الفرنسية المودعة فى سويسرا أو أية حسابات فرنسية اخرى • كما وافق الوفد السويسرى على أن يوردوا للالمان جميع طلبات العتاد الحربى المقدمة اليها من النرويج وبريطانيا وفرنسا • وان يحولوا الى المانيا طلب الاليمونيوم المقدم اليها من بريطانيا • كما عمل السويسريون على توفير قروض مالية كبيرة للالمان • وتم كل هذا قبل موافقة الالمان على رفع الحظر على توريد الفحم الى سويسرا •

وعزز الالمان طابع الشدة فى معاملة السويسريين بأن أمروا بتحركات أخرى للقوات صوب الحدود السويسرية • ومع القوات ــ فى هذه المرة ــ العتاد اللازم لعبور الانهار • وأثارت كل هذه الاجراءات خواطر بيليه جولاز ورفاقه الوزراء (بالاستثناءات المعتادة) الى حد كبير • وامتدت مظاهر القلق الى الجمهور مما أدى الى المطالبة الصارخة بالتسريح العام وبمسايرة الظروف الجديدة فى اطار من الصراحة ــ وبالاختصار ــ بالاتجاه نحو تعايش ودى مع الريخ الثالث الجديد ذى القوة والبأس الشديد •

وسط هذا الجو المزعج انطلقت الانباء حول اجتماع الجنرال فى الروتلى Rutli [1] ذلك الاجتماع الذى مثل مشهدا هاما له أثره بطبيعة تكوينه والشعور العميق الذى ساد أفراد الاجتماع · وجاء الجنرال واركان حربه وكبار القادة وصغارهم الى لوسيرن ليعبروا البحيرة الى المسرح حيث تلى أول قسم فى الروتلى · وفى ظلال الجبال ساروا فى أثر جيسان يصعدون الى هذا المرعى التاريخي العظيم · وهنـاك التفوا حول الجـنرال · وكان اجتماعهم دون مراسم أو احتفال يوحى بمعنى التمثيلية الدراما · حيث لم يكن استعراضا بل كان مظهرا للشعور العام ·

وكان حديث الجنرال بلهجة شخصية غير رسميـة « حـديث الجنـدى للجندى » · فلم يلق خطابا حماسيا وقال « لقد جئت بكم الى هذا المكان التاريخى لاوضح لكم صورة حقيقية لموقفنا اليوم · » ومضى جيسان يقول « نحن الان عند نقطة تحول فى تاريخنا · وسويسرا فى موقف ينـذر بالخطر · » وهنا اعرب عن فكرته الاساسية · وهى ان يستعدوا للمقاومة ضد الهجوم وضد الضغط وضد المتخاذلين أو المستضعفـين بين صفوفهم وضد عناصر الشك وعوامل الخضوع · ولم يعبر جيسان عن شىء واحـد وهو ضد من تكون المقاومة ؟ ومن هم أولئـك الذين يهـددون استقـلال سويسرا ؟ ولم يجب على هـذا السـؤال الذى كان يدور بذهن كل فرد منهم · كما تركهم وهم على يقين من جوابه اذا استطاع أن يتحدث بصراحة وعلانيـة · وأوضـح لهـم الرابطـة بين هـذا الميثـاق للمقـاومة الذى ارتبطوا به ذلك اليوم وبين اقامة الحصن وهى سياسة الدفاع الجديدة التى أخذوا بها اليوم · بعد ذلك انبثقت المعالم الهامة لاجتماع روتلى حيث أعاد رجاله الى القوات مع ارسالية يصحبها أمر منـه · ليـكونوا المتحـدثين بلسانه لنشر اليقين والايمان بالمقاومة ·

وتنفس السكان الصعـداء وبدت عليهم امارات الرضـا ــ سواء منهم القوات والمواطنين ــ عند ما سمعوا باجتماع روتلى · وعنـد ما سـمعوا

---

(١) الروتلى مرعى على شاطىء بحيرة لوسيرن حيث اجتمع فى اغسطس سنة ١٢٩١ ممثلون لمقاطعات يورى URI وشويز SHWYZ وانترولون UNTERWALDEN وتعهدوا بتكوين «الحلف الابدى» للوقوف فى وجه كل من يهاجمهم او يسبب لهم المتاعب · وكان هذا الحلف فى الواقع بداية للاتحاد السويسرى الكونفدرالى · ومنذ ذلك الحين اصبح الروتلى مهبط الوطنية ورمزا للولاء لمؤسسى الاتحاد الكونفدرالى وللمبادىء التى نادوا بها وهى الاستقلال والحرية والديمقراطية ·

الرسالة التي عاد بها الضباط • ولكن الرئيس في برن لم يخامره شعور بالسعادة وكذلك اعضاء آخرون من الحكومة وظلوا في حال من القلق يترقبون اثر ذلك في الالمان • ولم ينتظروا طويلا • فقد سمح للصحافة السويسرية بنشر أنباء اجتماع روتلي بعد أربعة أيام مع ملخص خطاب الجنرال • وفي اليوم التالي ٣٠ يولية سنة ١٩٤٠ بعث الوزير الالماني في برن برسالة « عاجلة جدا » الى وزارة الخارجية في برلين • واحتوت الرسالة على بيان صادق لما ذكره جيسان واضاف اليها قائلا : « ليس هناك داع لهذا الاستعراض الغريب • »

ثم أخذ الوزير الالماني يحث حكومته على اصدار احتجاج منفصل أو مشترك مع الايطاليين ضد « هذه الاثارة الجديدة للرأى العام السويسرى ضد كل من ألمانيا وايطاليا • » وأعرب عن خوفه ـ اذا لم يقدم هذا الاحتجاج ـ من ازدياد اثارة الرأى العام ضد الالمان في سويسرا نتيجة للبيانات التي يصدرها قادة الجيش السويسرى • وفي الواقع كان الالمان على يقين من عداء جيسان لهم • وبالرغم من احكام الرقابة على الصحافة السويسرية فقد ظهر جيسان وجيشه بمظهر الكتلة المعارضة في سويسرا. واصبح من واجب الالمان الان أن يدبروا أمرهم وينظروا ماذا يصنعون ازاء ذلك •

وبعد اسبوعين وصل الى برن احتجاج الالمان على حديث جيسان • ثم أرسل كوشر الوزير الالماني الى برلين يوضح أن بيليه جولاز كان متغيبا ولذلك استقبله أحد أعضاء المجلس الفدرالى أتر Etter نيابة عن الرئيس • وقال اتر أنه في رأيه أن الجنرال بتصريحه الذى القاه في روتلي لم يكن يقصد التفسير الذى ارتكن عليه الالمان في احتجاجهم • وذكر نفس الشيء للوزير الايطالى الذى جاء بعد ذلك مباشرة • وعاد الوزير الالمانى لزيارة الرئيس الفدرالى بعد عودته في ٢٦ أغسطس • وأدلى بيليه جولاز بالتصريح الرسمى الاتى الى الوزير الالمانى :

لقد صرح الجنرال أمام المجلس الفدرالى بأن المعنى المفهوم من خطابه الذى ألقاه في ٢٥ يولية في مونت روتلي وما تلاه من الامر الذى أصدره لم يكن منطبقا على مقاصده بأية حال • ولم يدر بخلده مطلقا أن يصف ألمانيا على أنها عدو مهاجم أو أن يثير الرأى العام ضدها • بل كان الغرض الوحيد من خطابه ومن الامر الذى أصدره أن يحث الضباط والرجال على القيام بواجباتهم على وجه مرضى •

ويبدو أن هذا بيان رسمي للتسجيل اكثر من يكون انعكاسا لمقاصد الجنرال • وعلى أية حال لم يكن فى تقرير الجنرال [1] ما يدل على أن هذا كان اتجاهه أو أنه استدعى بمعرفة الحكومة لكى يلقى مثل هذا البيان • وعلى النقيض ارسل كوشر فى نفس اليوم تقريرا ثانيا تناول فيه موقف الجنرال بصورة واضحة • وذكر فيه محادثة جرت بين فلدشير Feldsheer نائب مدير الادارة السياسيــة السويسرية وبين المستشــار فون بيــبرا Bibra المثل الرئيسى لحزب النازى فى سويسرا حيث أكد فلدشير فى حديثه لفون بيبرا ثقته ببطــانة الجــنرال ومن يلتفون حوله • وتقرر النظر فى اجراء تغييرات فى المناصب العالية التى تحيط بالجنرال • بحيث تكون النتيجة ملء هذه المناصب بمن يستطيع محادثة اللفتننت كولونيل أيلزمان الملحق العسكرى الالمانى فى برن فى جو من الصداقة وفى سهولة ويسر •

وكانت التورطات التى انطوت عليها الرسالة الثانية أشد وطأة مما جاء فى الرسالة الاولى • ويبدو ان الرسالتين قد وضعتا بحيث تكمل احداهما الاخرى • وسرعان ما زال الشك وانتهى فى هذا المجال عنــد ما تراجع الالمان عن حملتهم للتدخل بقصد التخلص من جيســان ووجهــة نظره • وبذلك يكون جيسان قد كسب الجولة الاولى فى معركته للمحافظــة على البلاد • واسس لنفسه موقفا قويا معلنا عن مقاصده • ولكن كان عليه أن يستعيد الوحدة القومية والرغبة فى المقاومة مع ادراك حقيقة المستقبل • وقد شرع فى الطريق نحو الحصن • ولكن لم تزل هناك فئات كبيرة من ذوى النفــوذ فى الامة لا يســيرون على هــداه • وما زالوا يتطــلعون الى انتصارات الالمان •

ولكن جيسان تبين الان أنه على صواب • مما بعث فى نفســه القوة والثقة • وفى هذه المرة يكون هتلر قد فاته القطار فى الواقع حيث كان يرى فى كل يوم تقدم سير العمل فى حصن الجبل • ولو أنه سوف ينتهى

---

(1) تقرير الجنرال المقدم للبرلمان •

بعد مضى سنتين الا أن صورته بدأت تظهر فى الافق • واصبحت فى الحال بارقة أمل أمام السويسريين • ومصدر خوف متزايد للالمان • ثم أن الخوف الذى واجهه جيسان فى صيف سنة ١٩٤٠ لم يكن من ناحية الالمان بل كان نتيجة لعزم الحكومة الواهن ومن ضعف القوم فى داخل البلاد • وكان عليه أن يصنع شيئا لمجابهة الخطر المرتقب من السلام الزائف • وحصن الجبل هو أول شىء شرع فيه للوقوف فى وجه هذا الخطر • وعليه الان أن يتطلع الى مشاكل الحرب الواسعة النطاق والاكثر تعقيدا كلما القيت فى سبيل السويسريين • وهنا يفتتح فصل غير متوقع فى تاريخ حياد السويسريين

٤

فن الحيـاد

كانت الظروف الحربية هي التي أرغمت جيسان ــ الى حد بعيد ــ على التفكير في تحويل قلعة جبال الالب الى حصن وطنى ٠ حيث قرر انتهاج سياسة المقاومة ٠ ولكن الآن بعد أن تأصلت فى أعماقه الفكرة بدأت بدورها تسيطر على كل ناحية من النواحى العسكرية التى تشغل بال الجنرال ٠ واضطرته لأن يمعن فى النظر فى سياسة الحيـاد المسـلح ٠ ما معنـاها على وجه التحديد : وما الذى تضمنته تحت الظروف المتغيرة فى صيف سنة ١٩٤٠ : ولم يكن جيسان يتساءل بمفرده : ما هو الموقف الآن ؟

فى أول يوليـة استـدعى رئيس تحرير كبرى الصـحف السويسرية Neue Zurcher Zeitemy هيئة التحرير وعقد اجتماعا للنظر فيما اذا كانت الصحيفة من الآن فصاعدا تقبل النظام الجديد فى أوروبا على أنه أمر واقع ٠ والقى رئيس التحرير ولى بريتشر Willy Bretcher بيانا مثيرا فى الاجتماع وصف فيه موقفه : ان هذا الاتجاه خطأ من الوجهـة الادبية ٠ وضد المصالح الوطنية السويسرية ٠ ومن الخطأ من الوجهـة السياسية تغيير سياسة الحياد الهادفة ٠ وعليهم أن يتمهلوا ويترقبوا قوة المانيا الجديدة وبأية طريقة سوف تعبر عن نفسها ٠ وهل يظهر هتـلر بمظهر انكار الذات وعمق الادراك والرغبة فى أن يجعل مصالحه مرتبطة بمصالح الدول الاخرى فى أوروبا ٠ وللآن لا تدل الشـواهد على هـذا الاتجاه ٠ وعلى ذلك ينبغى لهم أن يظلوا على حالتهم الراهنة دون تغيير ٠ لانهم لو تخـلوا عن موقفهم لمـا فهمهم القراء فى سـويسرا ولا المراقبون الاجانب ٠ وفضلا عن ذلك قد يتخذ الالمان تحول سياسة الصحيفة ذريعة تشجعهم على مواصلة ضغطهم على السويسريين ٠

وكان جواب جيسان يخالف هذا الاتجاه ٠ لانه ــ من ناحيـة ــ كان موقف بريتشر أشد صعوبة من موقف الجنرال حيث لابد له من الاعلان عن نفسه فى كل يوم من أيام السنة ٠ ولا يستطيع اخفاء مشاعره عن

السويسريين أو الالمان ـ الامر الذى كان من الصعب عليه أن يفعله فى صيف سنة ١٩٤٠ مع التزامه جانب الحرص والامانة فى نفس الوقت • وكان كثيرا عليه أن يحاول ارتكاب الخطأ ارتكانا على الحرص فهذا أمر مفهوم للجميع • ولكن بريتشر وزملاءه من محررى الصحف البارزة فى سويسرا الالمانية اتسموا بطابع الاستقلال مما اغضب الالمان وكان مثار القلق بين كثير من السويسريين ومن بينهم اعضاء فى الحكومة الفدرالية وبعض كبار العسكريين • وكانت مشكلة جيسان أشد عمقا ولكنها ـ لحسن حظه ـ لم تكن ظاهرة للعيان فى صورة واضحة •

ذلك لأنه بدأ يدرك معالم ما صنعه تحت ضغط الاحداث • فقد قبلت الحكومة سياسية اقامة الحصن وكانت موضع ثناء وترحيب العسكريين • وسمع الجمهور ما أشيع عنها على نطاق واسع ولكنهم لم يعلموا حقيقة أمرها • وأصبح واضحا أمام الجنرال أن الحصن لن يكون أكثر من اطار أجوف مالم يكن مملوءا بروح قوم متحدين ذوى عزم وبأس وعلى استعداد لمقاومة الالمان لدرجة الضرر بأنفسهم • وعلى ذلك كان الحصن شيئا أكثر من خطة استراتيجية فقد كان مظهرا للاستقلال سواء من الوجهة السياسية أو العسكرية ويؤكد أن سويسرا لم تقبل النظام الجديد ولا تأكيدات الالمان بصفة قاطعة •

والشىء الذى لم يقدره الرئيس الفدرالى وحكومته عند موافقتهم على مقترحات جيسان بشأن الحصن هو أنهم بهذا التصرف قد اغفلوا ـ وقد يكون من غير قصد ـ منهج السياسة السويسرية المستقلة خلال فترة الحرب • لانهم بقبولهم منطق مجادلات جيسان التى أدت الى اقامة الحصن قد التزموا أيضا بالنتائج السياسية والعسكرية والدبلوماسية التى تترتب على هذه السياسة • ولا مناص لهم من السير فى ظل الحياد السويسرى الشائك •

ومن اللحظة التى وقعت فيها الحكومة الفدرالية بامضائها على أمر العمليات رقم ١٢ أوجدت شئونا جديدة لها حق الاسبقية من حيث السياسة الوطنية التى تنتهجها • لأن فكرة اقامة الحصن الوطنى ـ كما فهمها جيسان ـ لم تكن مصممة للمحافظة على حياد سويسرا بل لصيانة استقلال البلاد • وان استراتيجية الحصن كانت فى الواقع بمثابة اعلان أنه لن تكون هناك سياسة للحياد مالم تضمن أولا استقلال سويسرا • وذهبت الاستراتيجية الى أبعد من ذلك بمعنى أنها لم يقصد بها أن تكون

دفاعا عن الحيـاد السويسرى لأن وجهة نظرها قامت على فرض أن الحصن هو مركز الدفاع الوحيد الممكن ضد انتهاك الالمان للحياد السويسرى على فرض أن التهديد الألمانى كان موجها فعلا لاستقلال سويسرا وليس لحيادها وعلى ذلك كان المقصود من الحصن ـ من الوجهة العملية والفلسـفية ـ أن يكون حماية لاستقلال سويسرا ووقاية لها ضد المحور • وعلى هـذا كان امتداد منطق سياسة الحصن على هذا النحو هو الذى حول اتجاه جيسان الى ترجمة الحياد السويسرى على الوجه الصحيح •

ومن العـدل أن نقول أن الرئيس الفـدرالى كان يسعى لتحقيق هـذه الاغراض الاساسية كما فعل جيسان • فقد رغب فى ضمـان اسـتقلال سويسرا كما أراد جيسان أن يحقق ذلك • ولكن بيليه جولاز كان يرى أن الامل الوحيد فى تحقيق هذا الغرض يتوقف على الانسجام مع الالمان وتلبية حاجاتهم وطلباتهم على قدر الامكان • بينما جيسان كان يرى أن الامل فى العزة القوميـة لا يتحقق الا عن طريق سياسـة حازمة لمقـاومة الالمان • وعلى ذلك كان جيسان يعتبر كل خطوة يخطوها بيليه جولاز فى سبيل ارضاء الالمان ليست الا خطوة نحو الخضوع التـام لهم والاذعـان الذى لابد منه • وكان بيليـه جولاز ـ بدوره ـ يرى أن كل ما يبـديه جيسان من مظاهر جديدة للعداء ليس الا حركة فى سبيل استفزاز محتوم للفوهرر قد تؤدى الى غزو سويسرا •

وفى أواخر الصيف ومستهل الخريف سنة ١٩٤٠ أدى هذا التناقض بين الطرفين الى أن يصطدما ببعضهما • حيث أخذ بيليه جولاز فى تنفيذ وجهة نظره فى اصرار وعزم وكان يلقى تشجيعا • من الالمان للسير فى هذا السبيل • فبينما كان جيسان يدفع بقواته نحو اقليم الحصن ويبدأ فى اقامة المراكز المنيعة للدفاع • لجأ جولاز الى الاخذ بسياستة التى ترمى الى الانسجام مع الالمان • وكان السويسريون على وشك الدخول فى مرحلة الاختبار فى الحرب العالمية الثانية •

ثم أن بيليه فى خطابه فى ٢٥ يونية رسم الخطوط التى يسير عليها • فكانت الاتفاقات الاقتصادية مع الالمان بعد ذلك دليلا على أن جولاز ورفاقه كانوا جادين فى الاعراب عن مقاصدهم • ولكنها بالنسبة للالمان لم تكن

كافية بالقدر الذى يطلبونه حيث كانت هذه الامتيازات مع التصريحات التى أدلى بها الرئيس الفدرالى لا تزيد على ما يتطلبه الموقف اذ ذاك• ولكن الالمان كانوا يريدون شيئا أكثر من اجراءات اتخذها السويسريون رغما عنهم لشعورهم بانها لا مفر منها • كانوا يريدون شيئا يدل على صدق رغبة السويسريين فى تهيئة أنفسهم لنظام المانيا الجديد الذى أشار اليه الرئيس الفدرالى فى خطابه • ورأى الالمان أن محك الاختبار هو سلوك الحكومة الجديدة تجاه الجنرال وتجاه الصحافة •

وفهم بيليه جولاز مشاعر الالمان التى كانت موضع عطفه • وكان على يقين من أن انتصار ألمانيا أمر لاشك منه وعلى ذلك ينبغى للسويسريين أن يقدروا شعور الالمان فى الوقت المناسب ويعملوا على ارضاء المنتصرين ضمانا للمصالح الوطنية السويسرية • وبذلك دل على أنه لم يفهم جيسان وبدأ يفقد الثقة فى كثير من الضباط الذين يسيرون على هداه • وبدأ يساوره الشك فى أنهم يسعون فى اثارة الالمان ويستخدمون جيسان اداة لتنفيذ هذا الغرض • وسرعان ما تحول اشتباهه الى الاعتقاد فى خطئهم وصمم على انتهاج سياسة معادية لاجهزة عصابة جيسان ــ كما كان يصفها ــ وعلى ذلك بناء على أسباب وطنية بحتة كما فهمها توصل الى نفس النتائج التى وصل اليها الالمان : وهى أن التهديد الاكبر للتعايش السلمى بين سويسرا ونازى أوروبا يأتى من ناحية الجنرال ومن يسيرون فى ركابه ومن ناحية الصحافة التى تعضده •

وهكذا تبينت المصالح الغامضة المشتركة بين الرئيس الفدرالى والحكم النازى فى برلين فى الجهود التى بذلت بعد ذلك لاضعاف وتحطيم « الرغبة فى المقاومة » التى أعلنها جيسان فى اجتماع الروتلى • وفى هذه السياسة كان بيليه جولازتؤيده أغلبية المجلس الفدرالى والدبلوماسيون الرئيسيون فى المانيا أو فى الدول التى يحتلها الالمان • وكبار موظفى الادارة السياسية • وبعض الضباط المعروفين فى القوات المسلحة السويسرية • ومن بين هؤلاء لابهارت (الرئيس السابق لاركان الحرب الذى استبدله جيسان) وبيركر ودانيكر وويل Wille • ولم يكن ينقصهم حب الوطن أو الاهتمام باستقلال سويسرا • ولكنهم كانوا مقتنعين بأن الامل الوحيد فى خلاص السويسريين وبقائهم رهن بأريحية حكام الريخ الثالث• وأرادوا أن يبذلوا ما فى وسعهم لضمان أواصر هذه المودة •

ولما كان من العسير التخلص من جيسان الذى كان الشوكة الرئيسية فى أعين الالمان تقرر الحد من دائرة نفوذه وأن افضل الطرق لشل حركته هى الامر بالتسريح على نطاق واسع • وهذا مما يطمئن الالمان أكثر من أى شيء آخر وفى الوقت نفسه يضعف من شأن جيسـان • كمـا أنه يكون حائلا دون أن يصبح قوة سياسية فى البلاد ورمزا للمقـاومة التى أعلن أنها عقيدته • وتبين الان لبيليه جولاز ما فعله عند ما وافق على سياسة حصن الجبل • فهو لا يستطيع أن يتعجل فى موضوع التسريح دون أن يتخلى فى الوقت نفسه عن مشروع الحصن • الا اذا أراد أن ينكر اتفـاقه بصورة علنية • ولم يجد لديه تعليلا معقولا عند ما اثير الجدال بينه وبين جيسان ورئيس الادارة العسكرية رودلف مينجر • فقـد تحقق الغرض الاول من مشروع الحصن عند ما اضطر بيليه جولاز للتخـلى عن حملتـه بشأن التسريح •

وبطبيعة الحال اتجه التفكير الى ايجاد وسائل اخرى للحد من نشـاط جيسان • وكانت احدى الوسائل اقتراحا بتعيين نائب لجيسان يشارك بيليه جولاز فى وجهة نظره ويشرح تفصيلاتهـا فى مقر قيـادة الجيش • ويكون بالفعل عينا حارسة للمعادين لجيسان • وكل هذه كانت تصرفات شائكة ظاهرة للعيان ولم تتح لها الفرصة لتصبح أمرا واقعيا • وبدأ بيليه جولاز ورفاقه يدركون أنهـم لم يحسـنوا تقدير ما تميز به الجنـرال من توقد الذهن والمهارة • فقد كون لنفسـه فى هـدوء مركزا من العسـير مهاجمته • وكانوا يضيعون وقتهم فى تركيز هجومهم على جيسان نفسه حيث كانت هناك اهـداف اخرى سهلة المنـال • وعلى الاخص الصحف السويسرية التى تصدر باللغة الالمانية والتى أصبحت فى الواقع تفسر علنا الاتجاه الجديد الذى اتخذه جيسان بشأن المقاومة •

وتعثر الالمان فى اتخاذهم هذا الاتجاه المعادى • ففى ٩ يوليـة سنـة ١٩٤٠ قـام الملحق الصـحفى فى برن دكتـور جورج ترمب Georg Trump بزيارة الصحيفة البارزة فى العاصمة • دربند Der Beind وطلب من المسئولين طرد رئيس التحرير • وانذرهم اذا لم ينفذوا ذلك فان الحـكومة الالمانيـة سوف تتخـذ اجراءات انتقـامية ضد مصـالح السويسريين • واضاف أن شرشر Schurch رئيس التحرير يجب الا يحاول السفر للخارج لانه سوف يوقف عند الحدود • وكانت هذه بداية تدخل الملحق الصـحفى حيث توجـه بعـد ذلك الى الوكالة التلغرافيـة

السـويسرية وزار مديرى جريدتى ، The Basle Nationel Zeitung Neue Zurcha Zeitung • وطلب منهـم التخلص من محرريهمـا « اذا أرادا نجاة وطنهم من ذل الخضوع » •

وفى الوقت ذاته قدمت المفوضية الالمانية الى السلطات طلبـا رسـميا مماثلا على مستوى دبلوماسى • وانذرت الحكومة أن الرقابة على الصحف ليست مناسبة على الاطلاق وطلبت استبدالها برقابة اخرى صارمة تتناول جميع المطبوعات • ولكن هذه الطلبات لم تشمل رسميا استبعاد المحررين السابق ذكرهم والذين احتج عليهم الملحق الصحفى الالمانى •

وبطبيعة الحال لم تفعل الحكومة شيئا لتوضيح موقفها الا بعد أن تدخل زعماء المعارضة فى البرلمان • حيث قامت السلطات الفدرالية ـ فى شىء من الحرص ـ باخطار المفوضية الالمانيـة أن هذه التـدخلات المبـاشرة فى شئون سويسرا الداخليـة أمر يدعو الى الاستفهـام نوعا ما • حتى هذا اللوم فى قالب التردد كان على مستوى جزئى ولو أنه كان من الواضح تماما أمام الحكومة الفدرالية أن تصرف الملحق الصحفى فى برن لم يكن تهورا منه فحسب بل كان سياسة مقررة فى برلين • وكانت الحـكومة الفدرالية بتخاذلها الرسمى تميل لجعله شيئا يشجع الالمان على السير فى طريقهم • ولجأوا الى وسيلة اخرى مع تغيير فى الاسلوب وتكررت المطالبة بطرد المحررين السابق ذكرهم ولكن هذه المرة بطلب رسمى مقدم للحكومة موقعا عليه من مائتين من المدنيين السويسريين البارزين • وكثير منهم من الشخصيات المحترمة التى لا يعزوها حب الوطن • وكانت هذه ظاهرة واضحة •

ذلك لانها كانت انعكاسا للاضمحـلال السريع الذى تنـاول المجتمع السويسرى ولما كان يشيعه الالمان من المخاوف ومظاهر الارتباك • وزيادة على ذلك اظهرت شيئا من احتقار الالمان للسويسريين فى ذلك الوقت • حيث رغبوا الان فى معرفة الى أى مدى يسير معهم السويسريون • ولم يكن كل اهتمامهم موجهـا للرقابة السويسرية فى الواقع ـ تلك الرقابة التى حرصت اخيرا على حذف أى تعليق فى الصحف من شـأنه أن يحط من قدر انتصارات الالمان فى أوروبا • ولكنهم أدركوا أنه موضوع حساس يستطيعون أن يستندوا اليه فى الاحياء السويسرية ذات النفوذ • وعلى ذلك تشددوا فى الحملة الموجهة للصحافة السويسرية • ولجأوا الى تغيير عنـاصر الضغـط بجعلهـا تبدو كأنها ناشئـة من السويسريين أنفسهم و « مصنوعة فى سويسرا • »

ثم أن هذا الطلب الموقع عليه من مائتين من المدنيين اصبح معروفا وكان مثار عاصفة من السخط ضد من وقعوا عليه • وظهر هؤلاء بمظهر عملاء للنازى ـ دون مبرر فى بعض الاحيان ـ كما أن هذا الطلب يوضح للسويسريين التناسق الوثيق بين الدبلوماسيين الالمان والدوائر السويسرية التى تسعى فى السير فى ركاب الالمان •

وقد وضعت مسودة الطلب فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٠ فى كاسل ولفنجن Castle Walflingen بالقرب من فنتشسور Winteshur بحضور كبار الموقعين ووفد من الالمان بما فيهم موظفون من وزارة الدعاية فى برلين • وحذف من الصورة الاولى للمسودة طلب اغلاق صحيفة زوتنج بال الوطنية والامة الاسبوعية • ولكن فى نظر المراقبين فى مقر قيادة جيسان (والذين كانوا ينتقدون بعض وجهات النظر فى تعليق الصحافة السويسرية) كان هذا الطلب المقدم دلالة على سوء تقدير المهيمنين على السياسة الالمانية وقلة حيلتهم ولباقتهم السياسية •

ورفضت الاغلبية العظمى من الرأى العام السويسرى الاذعان لسوء معاملة جيرانهم الاقوياء مما شجع جيسان وترك أثرا فى نفسه • ولكنه لم يكن على يقين من رد الفعل لدى الرئيس الفدرالى والحكومة وكيف يكون موقفهم ازاء طلبات وقع عليها مائتان من الشخصيات البارزة فى سويسرا • ومن الواضح أن الالمان يظاهروهم فى ذلك• وكان بيليه جولاز وعلى الاقل عضوان آخران فى الوزارة يشاركون مقدمى الطلبات فى كثير من مشاعرهم • والى جانب ذلك وحتى بعد مضى اسبوع لم يقم الوزير السويسرى فى برلين بتوجيه أى تحذير حول هذا الموضوع • بل أخذ يطالب بشدة للاقلال من اقوال الصحف السويسرية وتعليقاتها مما يغضب السلطات الالمانية • فكان الرسميون يتجهون فى اصرار نحو وضع الصحافة السويسرية فى موقف يتمشى مع الالمان • وذلك ما لاحظه كولونيل ماسون رئيس المخابرات التابعة لجيسان • كما اصبحت الرقابة العسكرية أشد قسوة• ولزم محررو « جايدانس Guidance » الرسمية سياسة الجانب الواحد حيث كانت الرقابة تستبعد المقالات الهادفة أو التعليقات •

ولكن برغم هذا التأييد باجماع آراء الرسميين حوله فقد تردد بيليه جولاز فى مواصلة السير فى الطريق طبقا لرغبات « المائتين » • وبدا ثمة تأخير عجيب بين الوقت الذى قدم فيه الطلب رسميا للحكومة فى نوفمبر

سنة ١٩٤٠ وحتى أصبح معلوما بصورة علنية ٠ حيث أثر السخط العام فى البلاد على الحكومة وجعلها تشعر بأنه أقوى أثرا من مظاهر الاستياء فى برلين ٠ وبذلك رفضت مطالب المائتين وهى تبدى أسفها لرفض الطلبات أكثر من اعتقادها بأن المطالب كانت على خطأ ٠ كما بنت رفضها على أساس انها غير قادرة ـ من الوجهة القانونية ـ على تنفيذ تلك المطالب ٠ ولم تذكر أن الرفض كان على أسس أدبية وسياسية ٠

وبينما كان الجو مشحونا بمظاهر النزاع واصل جولاز سعيه بمعرفته لتهدئة خاطر الالمان ٠ فقام فى هدوء بالافراج عن الطائرة الالمانية وملاحيها المعتقلين بسبب هبوط الطائرة أو اسقاطها على الاراضى السويسرية واعادهم الى المانيا ٠ ورفع الحظر عن جرائد النازى لتدخل سويسرا ٠ بينما كان الحظر لا يزال قائما على الصحف السويسرية ومنع تداولها فى المانيا ٠ ثم ارسل وفدا من أعضاء البرلمان السويسرى (الذين يعضدون سياسة الانسجام مع المانيا) لزيارة فونك Funk وزير الشئون الاقتصادية فى المانيا ومباحثته حول الطرق والوسائل التى تؤدى الى تعاون الاقتصاد السويسرى مع الالمان ٠ كما أرسل موسى Musi الوزير الفدرالى السابق الى برلين فى بعثة مماثلة على مستوى سياسى ٠

وكذلك تدخل بيليه جولاز بنشاط أكثر فى مجالات اخرى ٠ فأوقف المحاكمة العسكرية للمخربين الالمان الثمانية الذين ضبطوا يحاولون تدمير المطار الحربى السويسرى أثناء أزمة يونية ٠ وأعاد الرجال الثمانية الى المانيا دون محاولة تبادل الاسرى السويسريين Quid pro qus — ثم أخطر الوزير الفرنسى فى فيشى دى لا بوم Baume بأن الملحق العسكرى التابع له موال للحلفاء وديجول ويدعى شوفلن ٠ وارسل تعليمات للوزير السويسرى فى فيشى لسحب شوفلن من برن وكذلك أى صديق للحلفاء يشتبه فى أمره ٠ ولما اعرب الالمان عن قلقهم لتسرب العمال المهرة السويسريين الى الولايات المتحدة طلب بيليه جولاز نصيحة الالمان حول أفضل الطرق لمنع تدفق هؤلاء العمال الذين من باب أولى أن يكونوا فى خدمة المانيا ٠

وظهر فى الافق عامل آخر كان له أثره فى الحياة السويسرية العامة ٠ فقد اتجهت أنظار أصحاب المصانع والتجار واصحاب الاعمال على وجه العموم لايجاد موردين جدد واسواق جديدة لاستبدال تجارتهم فيما وراء البحار وخاصة مع بريطانيا ودول الكومنولث ٠ وفهم الالمان هذا الاتجاه

واخذوا يلوحون بمقترحات مغرية أمام المشترين والبائعين السويسريين · وسرعان ما نجحوا في اقامة ارتباط مشترك للمصالح الاقتصادية مما كان له أثر قوى فى خدمة مصالح الالمان أكثر من الدعايات التى كانوا يقومون بها · وكان بمثابة تعزيز لبيليه جولاز ورفاقه لمواصلة سياستهم المنحازة الى جانب الالمان · وبذلك ضعفت روح الرغبة فى المقاومة واتجه الشعور الى ماهو أهم من حيث اقامة علاقات تؤتى ثمارها فى ميدان العمل ·

ومن الواضح أن هذا التغيير الملحوظ فى جو الرأى العام قد شجع الرئيس الفدرالى على الاعتقاد بأن سياسته من حيث تهيئة الامة للتمشيمع النظام الجديد كانت سياسة صائبة وانه من الان فصاعدا سوف يلقى مزيدا من التأييد من الجمهور السويسرى · وطبقا لذلك قرر أن يتخذ خطوة لم تخطر له على بال قبل بضعة أشهر · فدعا زعماء الحركات الموالية للنازى ــ وكانوا يطالبون بضم سويسرا بأكملها الى الريخ الالمانى ــ لمناقشتهم فى دار الرئاسة الفدرالية · وكان الاجتماع فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٠ · واستغل قادة النازى الثلاثة هذا الاجتماع الى أقصى حد (وكان أحدهم موضع اتهام لم ينظر بعد) · واعلنوا فيما بعد أنالمناقشة دارت حول أفضل الطرق حيث يتسنى للسويسريين تهيئة أنفسهم للانضمام الى جيرانهم · وأضافوا أن « المنظمات التقدمية السويسرية » · كما كانوا يسمونها · سوف تعمل على الاشتراك فى الحكومة ·

وكان هذا الاتجاه الاستعراضى بين بيليه جولاز وجماعة النازى السويسريين مثار عاصفة من الغضب بين قادة الجيش ــ بما فيهم جيسان ــ والصحافة الجادة · وجزء كبير من الرأى العام بما لم يسبق له مثيل ·ومن نواحى كثيرة كانت هذه الاتجاهات بمثابة حد فاصل بين الموالين للالمان وبين المقاومين لهم · وجعلت من الواضح أن ليس هناك حل وسط لتهيئة السويسريين للانضمام الى النظام الجديد · وان آخر اتجاه جولاز ورفاقه هو اشراك النازى السويسريين فى الحكومة والخضوع النهائى لمطالب الالمان ·

وفى ذلك الحين كانت معركة بريطانيا تدور رحاها · ولم يكن قد تم الغزو عبر القنال · وفى الحق ــ وكما رأى السويسريون ــ أن لندن كانت تعيش بين الانقاض · واقتنع السويسريون (باستثناء قلة كما تبين لى بعد بضعة أشهر) بأن سكان لندن كانوا يعيشون فى انفاق تحت الارض معيشة الكفاف · ولكن بالرغم من ذلك لم ينتصر الالمان فى تلك الفترة · وليس المقصود أنهم سوف يخسرون الحرب · وما تعرضت له لندن أثار

فى نفوس قسط كبير من السويسريين شعورا عميقا بالعطف على البريطانيين وشغفا لمشاركتهم فى اذكاء روح المقاومة • واخيرا وجد من يقف فى وجه هتلر • ولاول مرة خلال الحرب حدث ما شد أزر جيسان وشجعه على الاصرار على المقاومة بأى ثمن • ولم يكن أمرا حاسما ولكنه كان عونا له • وكذلك كان دفاع اليونان المجيد ضد الغزو الايطالى فى اكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٠ • وما قام به ويفل من هجوم مضاد ناجح ضد الايطاليين فى الصحراء الغربية • ولكن الصعاب لم تنته بعد •

ففى مارس من السنة التالية سنة ١٩٤١ تم للالمان احتلال بلغاريا • وفى ابريل كان استيلاء الالمان على يوجوسلافيا واليونان • وتم لروملِ اعادة فتح برقة • وفى مايو احتل الالمان جزر ايجة وكريت • وفى يونية كان غزو الاتحاد السوفييتى والاطاحة بالقوات السوفييتية المجتمعة فى طريق الهجوم الالمانى • وبقدوم فصل الصيف كان نصر الحلفاء أمرا بعيد الوقوع • وكانت المطالب الجديدة لجيوش الالمان فى البلقان وروسيا قد ملأت السجلات فى سويسرا وازالت الخطر الحربى المباشر من حدود سويسرا • وانتصارات الالمان هذه كانت تعزيزا للجرأة العدوانية لدى السويسريين ممن يؤيدون ويحبذون النظام الجديد فى أوروبا والذين اقتنعوا بأن هذا النظام سوف يشمل سويسرا • ونال هذا الاتجاه الثورى تأييدا ملحوظا من ذوى الرتب العالية فى الجيش • فقد كان فى المانيا وعاد منها فى ١٠ مايو سنة ١٩٤١ كولونيل جوستاف دانيكر وهو من كبار ضباط الجيش المعروفين ويحظى باحترام كبير وقائد المدرسة الحربية فى ولنستات Walenstadt • وبعد خمسة أيام أعد مذكرة من عدة صور ونشرها بين قادة الجيش واعضاء الحكومة وغيرهم • وكانت مذكرة مختصرة قوية فى اسلوب واضح تتضمن التهيئة العاجلة لسويسرا للانضمام الى المانيا الجديدة قبل أن يفرض عليهم ذلك وهو المتوقع حدوثه فيما بعد • ولكن هذه المذكرة كانت تنطوى على شىء أبعد بكثير من أنها مجرد بيان بسياسة ضابط كبير يختلف عن رئيسه • الجنرال • وكانت فى حد ذاتها أمرا خطيرا يريد بها دانيكر أن يتحدى كلا من الحكومة والجنرال • ويقصد بها أن تكون اختبارا للقوة بالنسبة لجيسان •

وسرعان ما فهم الموضوع على هذا النحو أولئك الضباط ـ كبارهم وصغارهم ـ الذين كانوا يؤمنون بأن سلوك جيسان لابد أن يستبدل بآخر يكون موضع • رضى لدى الالمان • وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك بأن حثوا انصار الالمان على أن يستولوا على السلطة مؤيدين من قبل الجيش •

وقال دانيكر فيما بعد أنه حدث بعد نشر محتويات المذكرة أن جاءه ضباط من جميع الرتب يطلبون منـه ويلحون فى أن يتولى قيـادة « زحف على برن » ٠ وأنه كان ـ بطبيعة الحال ـ ضد هذا التصرف لا لانه كان يشك فى نجاح مثل هذه المهمة ولكن لانها كانت تحـدث اضـطرابات وتشيع مظاهر القلق فى البلاد ٠

وبدلا من ذلك نصح لاصدقائه « بالتوجه الى هوفمان » زعيم « الحركة الوطنية السويسرية » وهي المجموعة الرئيسية للنـازى السويسريين ـ وكان دانيكر على يقين من أن هذه سـتكون حركة جماعيـة تكسر شوكة النقابات العمالية وترغم الحكومة على اعطاء امتيازات من شأنها ربط عرى الاتحاد مع الالمان ٠ كما يذكر دانيكر أنه سبق أن كتب الى جيسان بعـد تصريحه فى الروتلى يقول أنه لم تعد لديه أية ثقة فى جيسان بوصفـه القائد الاعلى ٠ وكان رد جيسان أنه قانع وسعيد بثقة الجمهور ٠ وتساءل دانيكر لماذا كتب اليه جيسان بهذا الشكل ٠ ولماذا لم يستدعه ويلقى القبض عليه ٠ واضاف أنه من المضحك أن يتصرف قائد على هذا النحو ٠

وكانت هذه هى المقدرة الخارقة على التريث التى تحلى بها جيسان فى بعض الاحيان والتى لم يقدرها حق قدرها سـوى أولئـك الذين أدركوا حقيقة أمره ٠ فلو تصرف كما توقع دانيكر بعد تصريح الروتلى لكان كمن يكشـف أوراقه أمام الالمـان ٠ وكان يظهر لهم ـ وللجمهور ـ شيئا من الانقسام العميق فى قيادة الجيش ٠ وعلى ذلك آثر جيسان أن يتجاهل تحدى دانيكر ٠ وكان هذا قد تشجع على مواصـلة السير فى طريقـه ٠ فبعد مضى سنة وجه تحديا مباشراً الى جيسان والحكومة ٠ وفى هذه المرة تعمد أن يكون بصورة علنية ٠

وللمرة الثانية تريثجيسان حتى تلوح الفرصة المناسبة٠ وظل منتظرا حتى جاء أغسطس حينما استدعى دانيكر لمقابلته ولتفسير حقيقة موقفه ٠ ولزم جيسان جانب الحزم ٠ فلم يتناول الموضوع من حيث النظام بل أخذ يناقشه حول وجهة نظره السياسية التى أدت الى تدخله ٠ وكان جيسـان كما هى عادته دائما ـ يميل الى الاقناع أكثر من القاء الاوامر ٠ وهو اتجاه يستطيع به أن يتفهم الموضوع أكثر من توجيه انتقاد يدعو الى المجادلة ٠ وعند ما تحدث الى قادة الاسلحة بعد اجتماعه بدانيكر وجـد أن قائدين منهم ـ لايهارت (رئيس اركان الحرب السابق) وبركر Bircher الذى كان قائدا للسلاح الرابع والخامس على التوالى ـ يعضدان دانيكر ٠ وعلم

أن هذا لم يكن السبب الوحيد فى الخلاف بين قادة الجيش. فان استعدادهم للتعاون الوثيق مع سياسة الحصن الجديد لا يزال أمرا مرغوبا فيه . والى جانب ذلك علم أنه لا يلبث أن يقدم على اتخاذ اجراءات فعالة فى السلاح الجوى . ولم يكن هذا موقفا يرغب جيسان أن يظهره للعالم الخارجى ــ وعلى الاخص الالمان . ومن الخير أن يظل موضع ازدراء لدى دانيكر بسبب ما تخيله هذا من ضعفه الموهوم .

وقبل أن يأوى مساعد جيسان الى فراشه فى تلك الليلة ــ الاربعاء ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤١ . استنتج أن ما يدونه فى مذكرته الخاص عن ذلك اليوم يبعث على الاسى والوجوم .

كان الجو ملبدا فى أواخر هذا الصيف . الحملة الروسية فى الخارج ومشكلة دانيكر فى الداخل . ويتبين ذلك فى سوء التفاهم بين قادة الجيش ووجوب الاعلان عن أزمة السلاح الجوى والصعوبات فى ايجاد مناصب لاستبدالها فى القوات . واخيرا الخوف من أن التصميم على المقاومة لن يؤخذ به بصفة قاطعة . وقد أعلن ذلك فى الروتلى منذ سنة مضت . وكان الجنرال أكثر هدوءا عن المعتاد فى شق طريقه خلال هذا الضباب .

ذلك لأن جيسان أخذ يفكر فيما مضى ــ بمزيج من المشاعر ــ طوال الثلاثة عشر شهرا التى انقضت منذ أن أعلن عن نفسه فى الروتلى . فقد حدثت أمور فى الجيش وبين الزعماء المدنيين لم تكن تخطر بالبال عند انتخابه لمنصب الجنرال . وكان الانقسام فى البلاد وفى صفوف الجيش . وعم الاستياء لسبب أو لآخر جميع الرتب والطبقات من أدناها الى اعلاها . وكان الالمان ينتصرون فى كل مرحلة من مراحل الحرب بعيدا عن حدود سويسرا . وادرك جيسان أن هذا النصر لو تحقق بصفة قاطعة لجاء اليوم للالمان حيث يفكرون فى سويسرا . ولكن هذا الظن الاخير ــ بما يتضمنه من تورطات تبعث على الاسى ــ أثار مشاعره وشجعه على المضى فى سيره. وجعله يؤول معنى احداث السنة الماضية تأويلا يختلف تماما عن المعنى السائد فى برن . وكانت هناك صعاب قائمة مع الالمان ومع الحكومة الفدرالية ومع الروح المعنوية العامة . ومع مجموعة الطابور الخامس التى تعمل لصالح الالمان عن قصد أو غير قصد . كما كانت هناك المتاعب فى الجيش والفتور الملحوظ فى الرغبة العامة فى مقاومة الالمان . ولكن لم تكن هذه هى القصة بأكملها . وحاول جيسان أن يدرك معنى البقية المستترة.

كانت مؤامرة « الضباط مشجعة له · ثم هو نفسه قام بتشجيع الحركة الوطنية للمقاومة ــ وعنــد ما أبدى لديه خصــوم المؤامرة استنــكارهم لتصرفات القادة كان عليه أن يتخذ الاجراءات ضد اخطر حــالات التمرد المحتمل والذى لم يحدث في الجيش من قبل · فأمر باستدعاء ثلاثة من ضباط المخابرات فى هيئة أركان الحرب وهم أرنست ، وويبل ، وهوسامان للحضور أمامه شخصيا · وكان الجنرال حازما وجادا وقال أن هؤلاء قد التزموا فى سلوكهم جانب الخطأ وكان من واجبهم أن يأتوا لمقابلته لعلمهم بأنه واحد منهم · وجاءت بعد ذلك ادانتهم وحكم على ارنست باعتقاله لمدة خمسة عشر يوما تحت مراقبة دقيقة فى فندق بالاس فى لوسيرن · كما قضى بسجن ويبل لمدة عشرة أيام وهوسامان بالسجن لمدة خمسة أيام فى نفس الفندق وهو من أفخم الفنادق على شاطىء بحيرة لوسيرن · وفى ٤ سبتمبر سنة ١٩٤٠ وجه رئيس أركان الحرب هوبر Huber خطابا رسميا لهؤلاء الضباط الثلاثة يخبرهم فيــه بانهم اتهموا بابلاغ جمــاعة من الضباط لتكوين جمعية غرضهــا الالتزام بالتصميم على المقــاومة بأى ثمن حتى لو كان ذلك يتعارض مع الاوامر الصادرة من القيادة العليــا · واضاف يقول فى خطابه : ولكن من المعترف به أن تصرفاتهم كانت قائمة على أساس بواعث لها قيمتها ولذلك لم توجه اليهم اتهامات رسميه ·

وكان حكم الجنرال مثار موجة من التعليق فى برن · فقد بين ــ بصورة حقيقية ــ مقدار اهتمام الجنرال بضباط المؤامرة · ووسع دائرة الفجوة بينه وبين الحكومة ــ وازاء هذا السلوك العلنى لم يكن فى وسع جيسان أن يصنع شيئا فى صورة علنية سوى تحذير الجيش وعامة الشعب ومن وقت لآخر · ولم يكن واهما حول قوة تأثير هذه المظاهرات الشفوية · كما لم تكن هناك فرصة لعقد اجتماع آخر فى الروتلى · ورأى أن يركز اهتمامه على مواقع الدفاع وجعلها حقيقة واقعة أمام الالمان عند مجابهتــه لهم فيما بعد ·

وأخذ كل من العمل فى اقامة الحصن وتدريب القوات يسير الى الامام سيرا حثيثا · وتشجعت نقابات عمال السكة الحديد على مراقبة القطارات الالمانية مراقبة دقيقة وهى تخترق سويسرا فى طريقهــا الى ايطاليــا · والقطارات الايطالية فى سيرها الى المانيا وعودتها منها · واحكمت الشرطة رقابتها على كل المشتبه فيه من المنظمات الموالية للألمان · واقيمت علاقات ودية وتعاون وثيق بين ضباط الامن فى الشرطة وفى الجيش ·

ولكن أهم من كل هذا أن جيسان اتجه الى تربية وتعليم أفراد الجبهة القومية • وكان قد كون فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ منظمة تسمى « الجيش والوطن » من شأنها أن تزود الجنود وعـائلاتهم وذويهم بانواع الترفيــه والرعاية • ولكنه في أزمة سنة ١٩٤٠ رأى أن هذه المنظمة ستصبح اداة فعالة فى يديه وسوف يكون لها مغزى كبير • ثم عارض الحكومة وانتصر على محاولتها انتزاع القسم المدنى من المنظمة وإبعاده من دائرة اشرافه • وجادلته الحكومة حول حق السـلطات المدنيـة فى الاشراف على المدنيين • فأجاب جيسان أنه فى الوقت الراهن المدنيون اما من الجنود أثناء عطلاتهم أو من أفراد عـائلاتهم وذويهم • وأصر على الاحتفـاظ بمنظمـة « الجيش والوطن » تحت اشرافه ورعايته •

ووقع اختيـاره على نخبـة من أفضـل الضباط المتصلـين به لتنظيم الاجتماعات والندوات والمحاضرات فى المجتمع السويسرى أثناء الحرب • وتم عقد الاف من هذه الاجتماعات فى المدن وفى اصغر القرى النائية • وحضرها لفيف كبير من المستمعين المتحمسين واشتركوا فى المناقشـات الحيوية التى كانت تدور هنالك . وأسفر ذلك عن ثمرة ملحوظة ــ هى أن صوت الجنرال قد شق طريقه الى كل ركن من أركان البلاد • واهتم القوم بالاصغاء اليه فى أول الامر ثم أخذوا يتحمسون لسماعه•وعند ما اقتربت سنة ١٩٤١ من نهايتها طرأ تغيير ــ لم يكن ظاهرا ــ على الموقف السياسى فى سويسرا • فكانت البلاد لا تزال تعانى الانقسام ولكن بدرجة أقل مما مضى • وكان صوت برن باعتباره الصوت الحقيقى فى البـلاد آخـذا فى التدهور • واصبح جيسان محط الانظار وليس فقط لسياسته التى أعلنها فى الروتلى من حيث المقاومة العسكرية بل لأنه أصبح زعيما وطنيا• وبدا أن جيسان قد يتمكن من التغلب على الامور التى تبدو مستعصية • وفى أواخر صيف سنة ١٩٤٢ استطاع أن يظهر قوته الجـديدة • فقـد عزل دانيكر من منصبــه • واتخـذت الشرطة اجراءات حازمة ضـد الاحزاب الموالية للألمان •

كما أن مشروع الحصن أخذ يبدو فى صورة حقيقيـة كعامل حـربى • وشرع جيسان أن يضيق الخناق على ممر جوثارد ويظهر للالمان أنه يخلق المتاعب هنالك • وانشأ نظاما فعالا لتدمير ممرات الالب وجسـورها وفى انفاق جوتارد وسمبلون • ورسم خطوط التدمير على نطـاق لا مثيـل له بحيث لا يمكن مقارنة الارض الملتهبة التى أمر ستالين باعدادها بخطـة التدمير الذاتى الباردة التى رسمها جيسان فى ترو واحكام والتى يلجـأ

اليها اذا اقتضى الامر • والتخريب اما أن يتم كأول اجراء للدفاع كي لاتقع ممرات الالب في يدى المحور . وأما أن يكون نهاية اجراءات المقاومة التي تهدف الى اعجاز الاعداء عن مواصلة القتال وتثبيط همتهم• واتخذ جيسان جميع الاحتياطات الممكنة لمنع الالمان من التدخل في سير عملية التدمير • ولم يكن من اليسير اتخاذ قرار كهذا معناه التضحية بكثير من الاعمال الهندسية المعقدة الغالية التكاليف والتى تفخر بها سويسرا • ولكن جيسان والجيش توصلوا الى هذا القرار وكانوا يقصدون تنفيذه وعند ما اقتربت سنة ١٩٤١ من نهايتها كان كل قائد من الالمان أو من الموالين لهم من السويسريين أو الايطاليين على يقين من هذه الاجراءات • وهكذا احرز جيسان نصرا هاما آخر تغلب على كل المحاولات للانضمام للالمان • ففى سنة ١٩٤٠ نجح فى ابراز صورة حصن الالب كأداة لمقاومة الالمان • وفى نهاية سنة ١٩٤١ عمل على تحويل الصورة الى أمر واقع • ولم يكن فى وسع الالمان أن يتجاهلوا ممر جوثار كأداة للارهاب أو يعملوا على تفاديه •

ولكن القصة لم تنته الى هذا الحد • ولم يقتنع بعد كل من جيسان ورئيس اركان حربه الرجل الحازم الهادىء الطبع • وهم فى وضعهم هذا يستطيعون ان يدمروا ممرات الالب ولكن ليس فى مقدورهم مقاومة الالمان لفترة ما • فلم تكن معدات الدفاع في الحصن قد تمت بعد ولكن كان أهم شيء فى نظرهم هو الاقدام على محاولة تستلفت انظار الالمان ولو تؤدى الى فقدان الطريق الموصل الى ايطاليا بأكمله • فما دام الالمان يأملون فى الزحف على الاراضى الواطئة فى سويسرا والاستيلاء على ثرواتها ومصانعها الهندسية وعدد كبير من عمالها المهرة فلن يكون تدمير ممر جوثار سوى جزء من الارهاب • وعليهم أن يعملوا على امتداد سلسلة التدمير الذاتى الى جميع أرجاء البلاد •

وبذلك تم تكوين وحدات خاصة وتجهيز المتفجرات واحصاء جميع المصانع المختلفة التى قد تكون نافعة للالمان والاستعداد لتخريبها اذا ما أقدم الالمان على غزو سويسرا • حتى اذا جاءت سنة ١٩٤٢ كان هناك ما يزيد عن ألف مصنع وغيرها من المنشآت على استعداد للتدمير فى حالة الطوارىء • وبلغ عدد وحدات التدمير فى هذا المجال حوالى ١٦ الف رجل • وكانت هناك معارضة قوية ممن لهم مصالح صناعية وتجارية • وتقدموا للحكومة بالتماسات يتساءلون عن السلطة التي خولت للجنرال أن يتخذ مثل هذه الاحتياطات الجوهرية • وكانت موجة النزاع تسير مع الاعدادات جنبا الى جنب حتى شهر يونية سنة ١٩٤٣ عند ما اعتمدت الحكومة سلطة الجنرال لاتخاذ ما يراه لازما •

وفى الوقت ذاته لاحظ جيسان أن الحرب لا تزال بعيدة عن نهايتها • وان انتصار الالمان أصبح أمرا واضحا كما بدا فى نظر كثير من السويسريين بعد سقوط فرنسا واحتلال البلقان • كما أصبح جيسان مقتنعا أكثر من أى وقت آخر بأن الطريقة الوحيدة لانقاذ سويسرا من براثن التدمير الذاتى النهائى فى دفاع فاشل ضد قوات هائلة أو من الخضوع للالمان الفاتحين هو اليقين بأنه لن تكون فتوحات للالمان فى نهاية الحرب • وبدأ يتساءل فى حزم أشد من أى وقت مضى عن الدور الذى تلعبه القوات المسلحة السويسرية فى سبيل الاطاحة بالريخ الثالث • لان هذا هو الشىء الوحيد الذى يضمن بقاء استقلال سويسرا وحيادها •

وكان جيسان يدرك حق الادراك أن من الغباء أن لم يكن من الضرر مناقسة مثل هذه الامور مع الحكومة فى برن • وتلك كانت مشكلة اخرى عليه أن يتغلب عليها بمعرفته • كما كان عليه أن يتساءل ـ كما فعل فى أوقات اخرى ـ ما هو موقفه ازاء الحياد السويسرى وكيف يدخل فى اطار تقديراته الجديدة ؟ ولم يكن جيسان متعجلا فى ايجاد الرد على سؤاله• ولو أنه كان يرى دلالة طفيفة على سوف يحدث عند ما يقرر الاجابة على هذا السؤال • واقتنع الان ببث المخابرات الحربية السويسرية فى المانيا وفى كل مكان آخر حيث يمكن الحصول على معلومات حول مقاصد الالمان وأوجه نشاطهم فى الميادين السياسية والعسكرية • وهنا جاء دور منظمة ماسون وغيرها من منظمات المخابرات التى تقل عنها من الناحية الرسمية والملحقة باركان حرب الجنرال • وبذلك امتدت شبكة الجاسوسية فى المانيا على وجه مرضى • ودخل خط فايكنج Viking Line الى قلب مقر قيادة الفوهرر . وفئة أخرى اندست بين أعوان هملر • وثالثة انتشرت فى ارجاء المصالح العليا فى فنلندة • واصبحت روما وباريس مرتعا للجاسوسية •

ولم يقتصر الامر عند هذا الحد فقد اقيمت اتصالات بين قسم المخابرات الخاصة الملحقة بمقر قيادة الجنرال وبين أوساط معينة من المهاجرين فى سويسرا ممن هم فى خدمة الحلفاء أو ممن يعملون لصالح الاتحاد السوفييتى فى أوقات معينة • ولكن الى أى مدى يستطيع جيسان مواصلة السير ؟ وماذا يصنع ازاء قانون الحياد السويسرى المشدد ؟ لقد حان الوقت لاعادة النظر فى هذا الامر وللتمييز بين حقائق الحياد وبين اساطير الاولين • وأى درس يستطيع أن يتلقاه فى هذه اللحظات الحرجة مما مضى من تجارب الحكومات وقادة الجيوش •

قبل كل شيء كان من اللازم وضع حد لمنطق الخيال حول الحياد السويسرى بوصفه نوعا من المستوى الرفيع للحياة الذى اتاح للسويسريين موقفا يمتاز عن موقف جيرانهم · ولم يكن هذا هو الوضع · أنه كان وضعا سياسيا لمراعاة مصالح جيران سويسرا دون محاباة دولة ضد الاخرى · ولكى يضمن السلام والاستقلال للسويسريين وللمحافظة على أرض الوطن فى الوقت نفسه · ولكن منذ احتلال فرنسا ودخول ايطاليا الحرب أصبحت المستويات التقليدية لانتهاج الحياد لا وجود لها · فقد استولت دولة واحدة على أوروبا واصبحت سويسرا محاطة باقاليم تحت سلطان تلك الدولة ·

وكانت دائما احدى القواعد الرئيسية للاتحاد السويسرى « من مبدئه الى الوقت الحاضر » عرقلة ومعارضة بسط نفوذ أية دولة واحدة على القارة الاوروبية · واتخذت سويسرا قاعدة مشتركة لهؤلاء الذين عارضوا المحاولات لبسط النفوذ · وكانت الاحداث التى جرت خلال حروب نابليون وبعدها مباشرة نموذجا لاعادة النظر فى الحياد السويسرى · ولذلك اهتم جيسان بدراسة بحث طويل مدعم بالمستندات عن تلك الفترة · وأعده له أحد ضباط مخابراته ممن هم على دراية بالمعلومات التاريخية ·

واعاد هذا البحث الى الذاكرة ان سويسرا لم تلتزم الحياد المطلق خلال فترة الصراع الهائل التى كانت اساسا لاوروبا الحديثة · حيث اشترك الاتحاد الكونفدرالى فى النزاع كما انقسم داخل البلاد الى انصار يعضدون المعسكرات المختلفة · واشار البحث بنوع خاص الى الوقت حين بلغت فرنسا أوج عظمتها فى أوروبا خلال الحرب الثورية وكيف حاول بت Pitt عند ما عجز عن ارسال جيوشه عبر القارة أن يشجع القوات المعادية للثورة فى فرنسا واستنتج أن أفضل قاعدة لمثل هذه العملية هى سويسرا · وطبقا لذلك أرسل Pitt وليام وكهام Wickham أحد رجاله من الدبلوماسيين الممتازين الى برن مزودا بالتعليمات لبذل ما فى وسعه لتشتيت شمل الحكم الثورى فى فرنسا · وقام بهذه المهمة الى أن نجح الفرنسيون فى حملاتهم عليه واصروا على استبعاده من سويسرا التى استجابت لمطلب الفرنسيين · وكذلك لم يصنع السويسريون شيئا عند دخول الجيوش الفرنسية بلادهم سنة ١٧٩٨ · واعتبروا أن ذلك كارثة طبيعية لابد من احتمالها كما لو كانت كتلة من الجليد انزلقت على سفح

الجبل • ثم أخذوا يراقبون الصراع بين نابليون وسوفوروف حولممرات الالب ولم تشترك سويسرا ـ سويسرا المحايدة ـ فى المعركة وقنعت بأن تكون الالب ساحة للقتال •

واستنتج جيسان من دراسته هذه ان الحياد من الوجهة العملية يتميز عن الحياد المطلق الذى يؤمن به السياسيون بانه حياد ينطوى على مغزى وله طابع الحزم•وعند انتهائه سأل نفس الاسئلة التى وضعها البروفيسير بونجور فى ختام بحثه العلمى للحياد السويسرى • حيث سأل : « ليس الحياد يؤدى الى اخماد الروح الادبية ؟ » واذا انتهج فى اصرار اليس يؤدى الى حالة سيئة يسود فيها الجبن والتضليل وعدم المبـالاة ؟ وتسـاءل هل هذا الحياد سيحول السويسريين الى أمة تولاها الغرور Pharisees فظنوا أنهم فى منأى عن الحرب طالما بعدوا عن معاركها ونيرانها • ثم اتخذ من اجابة البروفيسير ردا على سؤاله حيث أعلن : « الحياد مبدأ من مبادىء السياسة الخارجية ولا شأن له بالمبادىء الاخلاقية • وهو برنامج للعلاقات الخارجية ولا دخل له بالمثل الادبية • وعلى ذلك يكون الحياد السويسرى أمرا يتعلق بشـئون الدولة ولا شـأن له بالافراد • فالضمـائر والآراء والتعبيرات لا تعرف الحياد •

كانت تلك هى الركيزة التى سعى اليها جيسان لتحرير ذهنه ولكى يتفرغ لمجابهة المهمات المقبلة • حيث أن الحياد السويسرى معناه فىالواقع التدحل الفعلى والدفاع فى منأى عن القتال • لكى يكون حائلا دون جر البلاد الى الحرب أو أن يمتص الالمان والايطاليون سـكان سويسرا • ولم يكن مسألة نظرية أو اخلاقية بل أمرا سياسيا محضا عليـه أن يتنـاوله بالرد عليه • وكان يتوقف عليه ـ الى حد كبير ـ أن يقرر السياسة التى تضمن الاحتفاظ بالوطن واستقلال البلاد • ولم تكن وجهة نظر جيسان خالية تماما من نظرية الحياد وأخـذ يجادل بيليـه جولاز والمنتمين له من الناحية الادبية وكان هؤلاء على جهل بها واستنتج أن الواجب المقـدس للسويسريين هو التخلى عن شكوكهم وترددهم حول معنى الحياد • فأن الحرب ومحاولة البقاء فى الحرب من الامور القاسية التى لا رحمة فيها • وهناك كل شىء يمكن التجاوز عنـه • وعلى ذلك اذا أراد السويسريون البقاء عليهم أن يستغلوا موقفهم الحيادى الى اقصى حد وأن تصبح سويسرا قاعدة للعمليات الحربية ضد هتلر •

واذا كانت هذه هى وجهة النظر الحقيقية للحياد السويسرى وليست الوجهة السياسية الخيالية فماذا يعنى بالنسبة لالمانيا التى تستمد ذروة النصر فى فتوحاتها ـ ومن الواضح أنه لن يكون هناك استقلال أو حياد مع هتلر المظفر ـ اذن معناة السير قدما فى اقامة حصن الجبل وتعزيز الروح العامة لمقاومة الالمان والسعى للاتصال بالحلفاء الذين يسعون لهزيمة الالمـان ـ وهم البريطانيون والامريكيون والفرنسيون الاحرار والروس ٠

وأخذ جيسان طوال سنة ١٩٤١ يحاول عبثا أن يجد تعاونا مناسبا فى هذه المباراة الكبرى ٠ فلم يعثر على أحد يستطيع العمل معه ٠ حتى برز له وجه جديد فى ذات يوم من سنة ١٩٤٢ ٠ وكانت هذه نقطـة التحول حيـث جـاء آلان دالاس Allen. W. Dnlles ليتولى ادارة الخـدمات الاستراتيجية الملحقة بالمفوضية الامريكية فى برن ٠

٥

التجسس من أجل السلام

كان جيسان يضيق صدره وخاصة قسم مخابراته الخاصة فى لوسيرن من جراء ما كان يبدو على السلطات البريطانية من ضيق الافق في بعض الاوقات وكذلك عملاؤهم في سويسرا • وكان قد أقام علاقات ودية وثيقة مع سير دافيد كلى Kelly السفير البريطاني في برن الذى اصبح • في فترات • الواسطة لنقل ملاحظات ودية الى لندن قبل رحيله سنة ١٩٤١ • وبالمثل نقلت مصادر المخابرات السويسرية ــ بواسطة علاقات شخصية بحتة ــ معلومات كثيرة ذات قيمة الى السلطات البريطانية • ولكن السويسريين شعروا بأن هذا الاتجاه كان من طرف واحد • ولم يكونوا على يقين من أن البريطانيين يرغبون أو يرحبون بالمعلومات التى كانت تصل اليهم • كما ضايق السويسريين نقص الفهم السياسى الذى كان يبدو على هيئة المخابرات البريطانية وعلى الممثلين الدبلوماسيين للحربية البريطانية الذين كانوا يتصلون بهم •

وبقدر ما كان هؤلاء يهتمون بالانتفاع من موقف سويسرا وما له من ميزات كان اتجاههم نحو السويسريين تسوده الخشونة والبرود والروتين• وكان اهتمامهم موجها للجاسوسية وخاصة الجاسوسية الحربية • وأما الحرب وشئونها الاوسع مدى واحتمال اقامة جبهة معارضة فى المانيا أو حتى اقامة روابط نظرية بين الديمقراطية البريطانية والسويسرية كعامل من عوامل التعاون والتآلف فلم يعيروا ذلك اهتماما • وظهروا بأنهم غافلين اطلاقا عن الثورة فى الافكار ووجهات النظر التى قامت في لندن على أثر تكوين « تحالف تشرشل » واشتراك حزب العمال فى الحكومة • ثم أن معظم الدبلوماسيين البريطانيين وممثلى القنصليات والمقيمين فىسويسرا وقت الحرب والعملاء المتسترين لم يتأثروا بتغيير مجرى الامور من تشامبرلين الى تشرشل • ونظروا بعين الاستياء الى الاصوات الجديدة التى بدأت تذاع من الاذاعة البريطانية باللغتين الالمانية والفرنسية بجانب

اللغة الانجليزية. وشعروا بارتياح ملحوظ عند ما توقفت الاذاعات الخاصة الموجهة الى سويسرا بعد أن احتجت الحكومة السويسرية بأنها كانت بمثابة احراج للسلطات الفدرالية وربما اعتبرها الألمان انتهاكا للحياد السويسرى.

وما لبث أن اتضح للسويسريين الذين تملكتهم الرغبة فى تأييد منهاج تشرشل فى المقاومة أن ينسجموا دون مساعدة ممثلى تشرشل فى برن أو تعضيد من جواسيسه هناك . وكانوا فئات قليلة مستثناة ينتشرون هنا وهناك . ولكن لم يكن لهم تأثير على السياسة الرسمية التى كانت ترمى الى التحقق من السويسريين الذين كانوا موضع اشتبـاه فى أعين وزارة الحرب ووزارة الرعاية الاقتصادية ووزارة الخارجية ورؤساء هيئـة أركان الحرب . ثم ظهر فيما بعد أنهم لم يكونوا على دراية تامة بمجريات الامور فى سويسرا أو الامكانيات التى تؤهلهم للعمل ضد الالمان . كما أن الافراد القليلين الملحقين بالسفارة البريطانية فى برن ـ وكانوا أشبه بالهواة مثل الـيزابث وايزكمان ـ لم يكن لنشاطهم تقـدير لدى المسئولين عن هـذه الشئون فى لندن .

وعلى ذلك اتبع السويسريون طريقتهم الخاصة واقاموا اتصالات شخصية فى محيط الموظفين البريطانيين الذين اخذوا على أنفسهم مسئولية تشجيعهم لمواصلة السير . وكان تدخل السويسريين بعد ذلك فى غير حدود القانون ولكن كان تدخلا فعاليا يبعث على الدهشة . يحدث دون علم الحـكومتين البريطانية والسويسرية وغالبا ما كان ضـد ارادتهمـا . ولم يكن لديهم توجيه رسمى من الجنرال ولكن سلوكه المعروف كان كافيا لمن هم تحت سلطانه لكى يجدوا تعليلات لما يحدث من مخالفات كما كانت السلطات الحربية والشرطية وسلطـات الولايات يغضـون من أبصـارهم . وكذلك المخابرات الحربية كانت تعضد هذه المساهمة السرية فى الكفاح ضد الريخ الالمانى . ولم يحدث اطلاقا للنار كما لم يكن هناك عدوان سافر ولكن اشتراك السويسريون فى معارضة الالمـان اشتراكا واسـع المدى يفوق شعور المعارضين فى الامم المتحاربه . حتى أن جـزءا كبـيرا من سـكان سويسرا الالمانية كانوا يشعرون بأنهم يرتبطون بالحرب مباشرة أكثر مما كان يشعر به كثير من الفرنسيـين انفسهم أو حتى بعض البريطانيين . وكان مظهر هذا الشعور التزاماتهم الشخصية التى تطوعوا بها .

واذا أحس احدهم بأنه من واجبهم أن يبرروا أعمالهم أمام أنفسهم ان لم يكن أمام السلطات كانوا يعدون أنفسهم فرعا لجماعة الصليب الاحمر. وبهذه الطريقة كان من المستطاع مساعدة الاف من سجناء الحرب الهاربين ـ

وخاصة الفرنسيين والبولنديين لكى يعبروا سويسرا سنة ١٩٤٠ و سنة ١٩٤١ · وكان استقبالهم على الحدود بمعرفة الشرطة هناك وبمساعدة الجمعيات الخاصة أو بمعرفة القوات المرابطة على الحدود · وبعد أن يمدوهم بالطعام والملابس ويستريحون قليلا يؤخذون الى الحدود الفرنسية وهناك يعبرونها دون علم السلطات فى فيشى · وهكذا كان هناك سيل من الهاربين تحت ستار الليل يمرون خلال سويسرا بتنظيم السويسريين وتحت رعايتهم ·

وفى سنة ١٩٤١ أصبح أصدقاء الحلفاء من السويسريين غير راضين عن هذا الموقف السلبى · فقاموا بارسال مندوبين عن المنظمات الخاصة الى فرنسا والمانيا والنمسا لاقامة صلات مع شبكة من الاصدقاء ومعارفهم لمد يد المساعدة لمن يحتاجونها·كما اقاموا روابط عبر الحدود ومراكز لمعارضة الحكم النازى · وقام آخرون بجلب الاطفال لفترة بقصد اطعامهم ورعايتهم فى مساكن السويسريين · وكل هذا وفر للسويسريين القائمين بهذا العمل الاطلاع على الاحوال فى المانيا وفى الدول المحتلة واسفر عن صلات واصدقاء أفضل من العملاء المتسترين بما كان لهم منمطلق الحرية للانتقال من مكان الى آخر · وهذا التطور الذىأخذ يتسع نطاقه ويزداد عدد أفراده وخلاياه كان نتيجة لجهود منظمات الرعاية مثل Colis Suisse أو هيئات مثل Unitarien Church ولو أن هذه المنظمات أو الكنائس كانت تجهل أن أعمالها الانسانية ان هى الا ستارا محكما لخصومالهتلرية·

ولو أن هذه الاجراءات المعادية للالمان لم تكن لها أغراض سياسية الا أن قسما من حزب سويسرا الديمقراطى الاشتراكى كان الدافع الاساسى لها · وبعض زعماء هذا الحزب كان لهم دور فى تلك الايام السوداء من فترة الحرب لم يدرك كنهه أحد · فلما وقف البريطانيون بمفردهم وكان أملهم فى الانتصار أمرا بعيد الاحتمال يحوطه الشك قام هؤلاء الزعماء مثل هانز أوبرخت وكيجى وزوجته واستوكر وغيرهم وغيرهم بالاعراب عن ايمانهم بالديمقراطيات وثقتهم فى أسسها مما كان باعثا على الشجاعة والثقة بالنفس · ولكن ذلك لم يكن له سوى تقدير طفيف من ممثلى الحلفاء فى سويسرا فى ذلك الوقت ·

وكان جيسان على علم بما يجرى من حوله واشترك سلاحه الجوى فى هذا النشاط الخارج عن الحياد · وجاءه كثير من الشكاوى من ناحية الالمان ومن الحكومة فى برن · وكانت الطائرات قد بدأت فى التحليق فى سماء

المنطقة السويسرية فى طريقها لالقاء القنابل على الاهداف الايطالية . وكانت الانوار الظاهرة فى البلدان والطرق السويسرية بمثابة منارات تسير على هداها الطائرات الى اهدافها . وجعلت من السهل عليها التمييز بين الجوانب الالمانية والفرنسية أو الايطالية على الحدود . وبطبيعة الحال احتج الالمان واضطر السويسريون لاطفاء الانوار.ولكن الدفاع السويسرى المضاد للطائرات لم يكن له تأثير ما على هذا الانتهاك للمجال الجوى السويسرى . فقد كانت الانوار الكاشفة تميل الى انارة الطريق لقاذفات القنابل عند مرورها اكثر من أن تظهرها فى منطقة الضوء لارشاد البطاريات المضادة للطائرات . كما أن هذه البطاريات لم تكن مصدر ارهاب لقاذفات القنابل . ولنضرب لذلك مثلا لمحادثة جرت بين برج المراقبة والجو خلال تحليق الطائرات :

ومن ملاحي قاذفة القنابل البريطانية الى برج المراقبة السويسرى « مدافعكم لا تصيب المرمى على وجه مرضى هذه الليلة . حيث أن مستوى الطائرات يبعد عن الهدف بمقدار خمسمائة قدم » .

وكان رد السويسريين :

« نحن نعلم ذلك . »

ومن أجل هذا ضغطت الحكومة الفدرالية على الجنرال لاتخاذ اجراءات اكثر فاعلية ضد تحليق الطائرات . وطلبت منه أن يرسل طائراته المقاتلة لاشغال قاذفات القنابل . ولكنه رفض . وكانت مجادلته للحكومة على أساس اقناعهم بأنه لا يستطيع المخاطرة بطائراته المقاتلة الضعيفة أمام قاذفات القنابل الضخمة التابعة لسلاح الطيران وأن ذلك يعد صداما غير متكافىء . وتلقى جيسان ردا جافا من الوزراء الفدراليين بانه لم يتذرع بمثل هذه الصغائر فى يونية سنة ١٩٤٠ حينما أمر طائراته المقاتلة باشغال طائرات ألمانيا فوق المنطقة السويسرية وأسقطت عددا من الطائرات الالمانية . واقتنع جيسان بترك الجدال عند هذا الحد . وأخذ يبدى فى الظاهر مقاومة لتحليق الطائرات البريطانية .

وكان جيسان يدرك حق الادراك أن كل هذه كانت جوانب ظاهرة للحرب . فكل ما صنعه السويسريون من العطف على البريطانيين كان عملا طيبا مفيدا وجديرا بالتشجيع ولكنه لن يؤدى الى هزيمة هتلر . ثم أن

جيسان – في هدوئه واعتداله كما رأينا – أخذ يجول بخياله حول موقف سويسرا من الحرب • فوجد أنه الان فى سنة ١٩٤١ لا يرى بديلا لضمان بقاء استقلال سويسرا والديمقراطية الاوروبية افضل من سقوط هتلر • وهنا اتضحت نظرية جيسان الواقعية التي تختلف عن وجهة نظر تشيمبرلين سنة ١٩٣٩ والامريكيين سنة ١٩٤٠ حيث اقتنع بأن معارضة هتلر داخل المانيا سواء من القادة أو من داخل الحزب أو من الاشتراكيين المسيحيين أو من أى حزب آخر لن تتخذ اجراءات حاسمة الا اذا اقتنع هؤلاء بأن هتلر يقود المانيا فى طريق نهايته الهزيمة والدمار • وغالبا ما كان يرى مظاهر الابتهاج بانتصار المانى جديد وهى تؤدى الى اطفاء لهيب المقاومة •

واستنتج جيسان من هذا أن الوسيلة الوحيدة لوضع حد للحرب هى هزيمة الجيوش الالمانية فى ميدان القتال • وفى تلك الاونة كان الميدان الوحيد حيث يمكن أن تلحق الهزيمة بالالمان على نطاق واسع بما فيه الكفاية هو البلاد الروسية • والميدان الاضيق نطاقا منه هو شمال افريقيا •

والسؤال الذى القاه جيسان على نفسه مرة أخرى هل من واجبه أن يساهم مساهمة فعلية فى العمل على هزيمة الجيوش الالمانية • وقبل أن يظهر دالاس Dulles رسميا فى برن فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ (ويبدوا أنه كان فى سويسرا من قبل) كان جيسان قد وجد ردا على سؤاله وبدأ فى تنفيذه • فكون القسم N.S.I. من مخابراته واخذ فى تشجيعه • وكان مقر رئاسته فى كاستنينبوم Kastanienbum وهى ضاحية لطيفة على شاطىء البحيرة فى لوسيرن من جهة الجنوب • وشعر جيسان أنه سوف يهتدى هناك الى وسيلة لاشتراك سويسرا اشتراكا أساسيا فى هزيمة الجيوش الالمانية والاطاحة بهتلر • وكانت فيللا استيج Villa Steig حيث أقيم مقر الرئاسة تعرف فى أول الامر بمكتب ها Bureau Ha ورئيسه الادارى كابتن هوسامان وهو الشخصية المشاغبة والذى أدمجه جيسان بادارة المخابرات السويسرية عند نشوب الحرب × •

وقبل نشوب الحرب كان لهوسامان شهرة اليمينيين اكثر من اليساريين• ولكنه خشى نهوض الهتلرية ونظم حلفا من الوطنيين يعارض كلا من الدعاية النازية والاتجاه السلبى للديمقراطنيين الاشتراكيين وخاصة

---

(١) انظر الفصل الثانى •

المعارضة الاشتراكية المألوفة للدفاع الوطنى • وكانت النتيجة أن أصبح هوسامان من ألد خصوم الاشتراكيين •، ثم تبين له التفكك الخطير فى النظام السويسرى للدفاع الوطنى • حيث كان نظاما أخرق وذلك لأن التفسير الرسمى لحياد سويسرا دعا حكومات ما قبل الحرب لرفض أى شىء يماثل الجاسوسية والمخابرات فى الدول تحت سلطان النازى • وسرعان ما أدرك هوسامان واصدقاؤه أن الالمان فى استطاعتهم أن ينقضوا على السويسريين فى أية لحظة دون أن تفطن الحكومة السويسرية أو الجمهور الى ما يدل على خطط الاعداء •

هذا ما جعل هوسامان يشق طريقه الذى انتهى به الى فيلا استيج على بحيرة لوسيرن حيث أخذ يشاور بعض اصدقائه ومنهم من كان على استعداد للتعاون معه • وبهذه الطريقة ـ حتى قبل نشوب الحرب ـ بدأ فى تكوين منظمة خاصة للمخابرات للعمل ضد المانيا النازية • وأقام صلات فى المانيا والنمسا ودول اسكندناوة حتى وصل الى فنلندة كما أقام مراكز له فى فرنسا وايطاليا • وفى نفس الوقت أخذ هو وأصدقاؤه يعدون حملة لبث روح القتال فى الجمهور السويسرى • وعند ما اصبحت الحرب على الابواب وتنبه السويسريون الى ضعف مخابراتهم الحربية وعدم كفايتها وجدوا أمامهم جهازا دوليا خاصا واسع المدى وعلى استعداد للعمل • وقدر جيسان مغزى هذا الجهاز فعمل على توسيع دائرة هوسامان وألحقه بادارة المخابرات السويسرية تحت رئاسة كولونيل روجر ماسون • ولكن مكتبه المشهور لم يمتصه الجهاز الحربى حيث قد يفقد كثيرا من امكانياته وفاعليته • وترك ليعمل منفصلا بمقر رئاسته Pilatus ومستقلا الى مدى بعيد ويتبع مباشرة رئيس هيئة أركان حرب الجنرال وتحت اشراف جيسان • وفى نفس الوقت حدث أن وجد هوسامان شيئا ما فى طريقه حيث اكتشف عند نشوب الحرب وانقسام الاراء داخل البلاد أن الوقت قد حان لدعامة قوية للتصميم على سياسة المقاومة من ناحية أصدقائه القدامى من اليمين ومن القدامى من خصومه على اليسار • وتبين نفس الاتجاه للزعماء من الاشتراكيين الذين بدءوا فى تقدير سلوك هوسامان وفهم وضعه أكثر مما كانوا يفعلون فى أعوام ما قبل الحرب • وطلبوا منه بيانا مختصرا عن موقف البلاد من حيث الدفاع • وبموافقة الجنرال اصبح هوسامان كمستشار للحزب الديمقراطى الاشتراكى لشئون الدفاع • وفى الوقت ذاته اشترك مع كثيرين آخرين من ضباط الجيش العاملين فى الحملة الشاملة التى أعدها جيسان لتوعية الشعب حول الاسباب التى تدعو السويسريين لرفض التنازل عن استقلال البلاد وتسريح الجيش ثم

الاستمرار فى تعايش مثمر ودى فى ظل نظام هتلر الجديد فى أوروبا • وفى صيف سنة ١٩٤٠ كان هوساماn ـ كما رأينا ـ أحد مؤسسى «الحركة الوطنية للمقاومة • »

ولكن مع كل هذا لم يهمل هوساماn دور المخابرات فى هذا الصدد • وحسب فهمه للامور رأى من اللازم أن يدرك مدى نشاط الالمان • ليس من الناحية العسكرية فحسب بل كذلك عليه أن يرقب انقلاباتهم الشخصية والسياسية • وعلى ذلك أخذ مكتب « ها » يمتد مجال نشاطه بالتدريج لمراقبة أى دبلوماسى أو ضابط أو موظف حكومى يشتبه فى قيامه بالتجسس أو تكون له صلة بالالمان عن غير قصد • وقبل وصول دالاس الى برن بعام تقريبا كانت الجاسوسية المضادة التابعة لمكتب « ها » قد انطلقت واصبحت مثار نزاع عنيف بين وزارة الخارجية السويسرية وما تسمى « الادارة السياسية » وجنرال جيسان •

وبتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ أرسل بيليه جولاز الذى لم يعد الرئيس الفدرالى بل ظل رئيس الادارة السياسية خطابا مطولا شديد اللهجة الى زميله الوزير الفدرالى كوبلت Cobelt الذى خلف مينجر كرئيس للادارة العسكرية فى وزارة الحربية السويسرية • وأحال كوبلث هذا الخطاب الى الجنرال لابداء ملاحظاته عليه • وذلك لان بيليه جولاز تحدى فى عنف حق المخابرات الحربية فى ممارسة الجاسوسية والمراقبة ـ فى بعض الحالات ـ ضد الدبلوماسيين السويسريين فى المانيا أو فى الدول التى يحتلها الالمان •

وكان بيليه جولاز قد اصبح على علم بشبكة الجاسوسية الواسعة التى نصبتها المخابرات السويسرية • وذلك بناء على تحذير ودى جاءه من كولونيل ماسون رئيس المخابرات العسكرية • كما علم بيليه جولاز أن الالمان يلمون الماما تاما بجميع محتويات التقارير اليومية الواردة من البعثات السويسرية • وعلى ذلك يعرفون ما تحتويه هذه التقارير حول المشاكل الاقتصادية والموقف السياسى وحالو الصناعات العسكرية وغير ذلك من الشئون المرسلة الى برن • وعلى ذلك أمرت السلطات فى برلين باحكام الرقابة على الدبلوماسيين السويسريين فى المانيا وفى الدول التى تحت احتلالها ـ كما فرضت رقابة دقيقة على الافراد السويسريين الذين يعملون فى مصانع الاسلحة والذين كانوا موضع اشتباه فى أنهم يمارسون الجاسوسية هناك •

وكان ماسون حسن النية فقد ظن أن تحذيره لبيليه جولاز سوف يلقى ارتياحا ورضى فى نفسه وانه سيبعث به الى كل من يعنيهم الامر • وعلى العموم كان المعتقد أن هذا التحذير سوف يدعوا الى مضاعفة الاحتياطات لحماية الرجال والنساء الذين يعملون مخبرين للدبلوماسيين السويسريين• ولكن فى نظر جولاز كان آخر شىء يقام له وزن • ولم يأخذ بهذا الاتجاه• واتهم قسم المخابرات الحربية فى لوسيرن ـ مكتب ها ـ بانه يتدخل فى العلاقات الدبلوماسية مع الريخ الالمانى دون سند من القانون •

ولم يقبل جيسان هذا الاتهام واخذ يبحث اسباب الشكوى بحثا مفصلا أسفر عن قلقه الشديد حول شئون الادارة السياسية وخاصة فى بعض بعثاتها وراء البحار • ثم الدليل الذى ظهر من هذا البحث ألقى الضوء على حماقة أعضاء السلك السياسى وسوء سلوكهم • واتهم بيليه جولاز بأنه أبدى شعورا ساخرا حول تعضيد الديمقراطيات الذىأبرقت به السفارة الامريكية الى بلادها • كما اتهم بتدخله شخصيا لاستدعاء دبلوماسى فرنسى له ميول معادية لفيشى وموالية للحلفاء × • وكان أحد الاوضاع الرئيسية التى مثلت سويسرا فى أوروبا الجديدة يظهر انها اتخذت المانيا عشيقة لها تصحبها دائما حتى فى المهمات الرسمية • ووضع آخر يبدى أن فيها عميل هام من الجستابو يندس بين أعز أصدقائها واغلب ضيوفها دون أن تدرى من ذلك شيئا • وكذلك اتهم بيليه جولاز قسم المخابرات الحربية بأنه يحاول استخدام الملحقين العسكريين وموظفى القنصليات فى اعمال التجسس • وانكرت المخابرات ذلك الاتهام • ولكن تفصيلات هذا النزاع كانت أقل اعتبارا من أن تكشف عن الفجوة الواسعة بين الآراء السياسية والعسكرية حول مقاومة الالمان •

نجم عن هذا الحادث نتائج هامة لان بيليه جولاز ذكر اسم « ها » فى لوسيرن وهاجمه بصورة علنية لاول مرة • وربط بينه وبين مؤامرة الضباط فى السنة الماضية واشار اليه فى الفاظ تدل على العداء المطلق • وكانت النتيجة الوحيدة هى أنجيسان اتخذ له حجابا يقيه وأحكم الستار حول نشاط مكتب « ها » اذا ما اقدم هوسامان ورفاقه على توسيع نطاق نشاطهم للوصول الى كل صلة ممكنة قد تكون عونا لهم فى اداء مهمتهم •

هذا وقد أصبحت لدى جيسان فكرة صائبة عما يجرى بين ذوى الرتب العالية فى الجيش وفى ادارة المخابرات السويسرية ـ وعلى أى حال لم تكن

---

(١) انظر الفصل الرابع •

الامور تختلف كثيرا عن الشعور السائد في البلاد • فقد كان هناك من لا يزال يعتقد أن انتصار المانيا محقق ــ وعلى ذلك من صالح السويسريين أن يقيموا علاقات وثيقة مع أسياد أوروبا الجدد • وبعد ذلك ازدهرت دائرة الاعمال واصبح القوم اغنياء بفضل الارتباطات التجارية الجديدة وما استجد من طلبات كبيرة لسد الاحتياطات الحربية التى استلزمها النظام الجديد • وكان نفس الانقسام فى الرأى السائد فى ادارة المخابرات • فقد كانت هناك مجموعة قوية تؤمن بتفوق الالمان واستحالة قهرهم ونظموا اعمالهم واقاموا اتصالاتهم طبقا لذلك • حتى أن ماسون نفسه ــ رئيس المخابرات الحربية ــ كانت وجهة نظره ان الالمان سوف يخرجون من الحرب مكللين بالنصر • ولكن لم يشاركه فى وجهة نظره الذين كانوا يعملون فى فيللا استيج قسم N.S.I. • فقد كان هوسامان لا يقيم وزنا للآراء الاخرى وكان اتجاه جيسان يبعث فى نفسه الشجاعة واعتقد ان الالمان سوف تلحقهم الهزيمة فى نهاية الامر • وقام هو وزملاؤه المقربون ويبل رئيس القسم الايطالى وأرنست باستغلال هذه الحرب غير المعلنة على حكم هتلر استغلالا غير عادى •

فقد تبين لهم خلال السنوات الاولى من الحرب أن أهم عامل وحيد فى سلسلة انتصارات هتلر السياسية والعسكرية هو ما صاحبها من عنصر المفاجئة المتوالية • ولمدة سنوات أخذ يفاجىء الديمقراطيات ويتركها عاجزة تواجه المستقبل المجهول • فقام بمفاجأة البولنديين والفرنسيين والبريطانيين واليوجوسلاف واليونانيين ثم الدانمارك والنرويج وهولندة والبلجيك وحتى عند ما توقع خصومه أنه سيلقى ضربته فاجأهم بالطريقة التى هاجمهم بها وباختياره الموقع حيث ألقى ضربته • فكان هناك دائما عنصر المفاجأة التى كانت أكبر خطر واجهه جيسان حيث حاول أن يقدر كل موقف ممكن يستطيع الالمان اتخاذه لمفاجأته ولكنه كان يشعر بصعوبة العمل فى الظلام ضد خصم كهتلر يمتاز برجاحة الخيال وحدة الذهن وسرعة الحركة • وكان جيسان لا يميل الى الحط من شأن هتلر أو أثر المفاجأة سواء وقت الحرب أو فى زمن السلم • ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة للخروج من مثل هذا الموقف •

ولكنه كان موقفا دقيقا لأن جيسان كان يعلم أنه مع ظروفه الراهنة والانقسامات السائدة بين قادة الجيش لا يستطيع المجازفة باصدار أى توجيه لتوسيع دائرة الجاسوسية فى المانيا • كما فهم ان المشكلة ليست تلك التى تشغل غالبا المجهود الاساسى للمخابرات الحربية دون جدوى • وكانت المخابرات موضع عنايته وكذلك المعلومات المتغيرة من وقت لآخر

التى تحدث ارتباكا فى اجهزة المخابرات · وتبين لجيسان أن هناك طريقة واحدة لحماية البلاد من مفاجأة هتلرية أخرى · وهى الوقوف على حقيقة ما يقصده هتلر ومتى يقوم بتنفيـذه · وكان المقر الوحيـد حيث يمكن الحصول على مثل هذه المعلومات قبل أن تصبح عديمة الاثر هو مقر قيادة الفوهرر · ولزم جيسان الصمت لا يدخل فى حديث آخر · وفهم ماسون الموقف وكذلك فعل هوساماان · فلم يتكلم أحد · ولم يسـأل أحـد أية اسئلة ·

وكان مكتب « ها » على أتم استعداد للعمل · فقـد وضع هوسـامان الاسس لخطواته التالية أثناء رحلاته الخاصة التى قام بها قبل الحرب · وكان فى تصرفاته اكثر حرية من ماسون لانه اذا ارتكب خطأ فأن من السهل على جيسان أن يتخلى عنه بعكس ماسون اذا وقع فى الخطأ · كما أن كلا من جيسان وماسون كان عليه أن يتذوق مرارة هذه التجارب فى حياتهما فيما بعـد · والمشـكلة الان كانت من نوع آخر · ثم أن فرع الجاسوسية الممتد الى مقر قيادة فيرماخت Wehrmacht كان قد أدى مهمته من قبل وظهر انتاجه المثمر فى المعلومات التى جاء بها مقدما قبـل هجوم الالمان على اسكندناوة وفرنسا · ولكن كان هناك نقص فى تلك المعلومات لا يبعث على الرضا · فقد حـددت الوقت للهجمـات الوشيـكة الوقوع ولكن لم تذكر شيئا عن المكان أو عن طبيعة العمليات المرسومة · واتضح منها أن هتلر قد أعد مفاجأته المعتادة · اذن ــ لكى يكون الامر محققا ــ يجب الاعتماد على مصدر واحد للمعلومات العامة المفيدة وهو من الفوهرر مباشرة · وقد تم الان اعداد هذا المصـدر · وأطلق عليـه اسم Viking line ·

وبعد أن أخذ هذا الفرع يمارس مهمته فى حرص بدأ يمد مكتب «ها» بالمعلومات بانتظام · ووجد جيسان ــ لاول مرة ــ أن بين يديه صورة كاملة يمكن الاعتماد عليها وتوضح الجبهة الالمانية كما تراها قيادة الفوهرر · وكان غالبا ما تصل اليه معـلومات عن أوامر صـادرة بتحركات القوات الالمانية قبل أن تصل تلك الاوامر للقادة المختصين · ووجد أن لديه فيض من المعلومات عما يدور بين المانيا وراء الستار · ولكن الموقف لم يكن يبعث على الطمأنينة اطلاقا · فقد كان أمام الالمان أمور معقدة واحداث تسبب الخسائر وكان للالمان اخطاء وأوهام · ولكن فى نفس الوقت كان هنـاك دليل واضح على أن هتلر مازالت لديه امكانيات هائلة يستطيع استخدامها للنهايه · وكانت هناك دلائل توحى بوجود معارضة داخل الحكم فى المانيا ولكن اتضح لجيسان أنها لم تكن معارضة فعالة · استنتج للمرة الثانيـة أن الشىء الوحيد الذى يوقف الاستيلاء على أوروبا بأكملها بانتصار الحكم

النازى هو هزيمة الالمان فى ميدان القتال• وبالنظر الى الميدان سنة ١٩٤١ لم يكن الامل مشرقا تماما • ولن يكون هنــاك أمل مطلقــا اذا ســقطت روسيا • فهل يستطيع السويسريون أن يفعلوا شيئا لمساعدة الروس فى الوقوف أمام العدو ؟

وها نحن الان على اعتاب رحلة غريبة من التاريخ تكاد تكون غامضـة حيث لا نجد سجلات رسمية للاحداث وحيث ينبغى أن نلزم جانب الحرص عند تناول الدلائل التى دارت على ألسنة القوم أو ما كتب عنها فى ذلك الحين • ولكننا نعلم ما فيه الكفاية عما حدث • وما يتبقى سرا مخيفا لغاية اليوم هى اسباب تلك الاحداث وكيف جرت •

بينما كان هوسامان ورفاقه منهمكين فى اعـداد الفرع الحســاس من مكتبهم للتسرب الى مركز العمليات فى اجهزة الحرب الالمانية قدم أحـد صغار الضباط ممن هم فى خدمة مكتب « ها » هوسامان الى صديق له من المهاجرين يشترك معه فى العمل فى احدى دور النشر فى لوسيرن • وقال الضابط الشاب • وكان فى الثلاثين من عمره فى ذلك الحين — ان صديقه هذا كاثوليكى تقدمى محب للسلام ومن اخصـام هتـلر • وانهمـا قاما بتأسيس دار النشر Vita Nova التى صـدرت كتبا لفلاسـفة من الكاثوليك المعروفين وغيرها من تأليف استانلى بولدوين وولهلم فورستر وشيانج كاى شك • كما أن صديقه خبير فى النظريات العسكرية وناقد حربى لبعض الصحف ولديه مصادر استثنائية يستقى منها معلومات عن الريخ الالمانى . ويقول الضابط ان صديقه على صلة ببعض فئات معارضة لها نفوذ كبير فى ألمانيا • ثم أعد اجتماعا بين صديقه وهوسامان •

وكان الضابط الشاب هو دكتور كسافر شنيبر Xaver Shniper • درس الاداب وكان صحفيا وصاحب دار للـكتب • وتدرج سياسيـا من الكاثوليكية الى مدى بعيد من الجناح اليسارى ثم عـاد ثانيـة الى موقف وسط بين ذلك • وصديقه الذى جاء به الى الفيلا بجانب البحيرة اتضح أنه رجل مشهور وسر خفى من اسرار الحرب التى لم يتيسر اكتشافها • ويدعى رودلف روسلر فى متوسط الاربعين من عمره • وكان هناك بعض الاسرار تكتنف ماضية • فمنها ما يقال أنه من بافاريا ذو حيثية وله ماض فى الصحافة • وبيان آخر يدل على أنه كان أحـد ضبــاط اركان حرب هبسبرج من أصل ألمانى من السوديت Sudeten والذين استبعدوا بعد الحرب العالمية الاولى • وحارب مع التشيك ضد الشيوعيين قبل توجهه الى برلين كلاجىء وبعدها الى سويسرا . ثم ان معلوماته الوافية عن العسكرية

تدل على أنه انحدر من مثل هذا الوسط العسكرى • ولكن من له خبرة بضباط اركان الحرب ـ سواء من هبسبرج أو من الفئات الاخرى فيما بعد ـ لا يدعى أن أى فئة تتبع الاخرى •

وكان روسلر لا يتسم بالطابع الاصلى للاجئى وسط أوروبا • فقد كان شاحب اللون متوسط القامة مع انحناءة طفيفة وعلى عينيه منظار سميك • وعلى رأسه قبعة كبيرة • ويرتدى معطفا طويلا فضفاضا • ولم يكن يبدو كأنه جيمس بوند • وليس هنا منافسة للجمال فسرعان ما اصبح كل من هوسامان وروسلر يفهم كل منهما الاخر • وكان روسلر كذلك له صلاته فى المانيا • وكانت هذه الصلات من الاسرار الخفية التى تعمل من وراء حجاب • فكيف استطاع هذا اللاجىء الذى يعمل ناشرا فى لوسيرن أن يحصل على معلومات يوميا من مصادر موثوق بها خلال شبكة الامن المحكمة والجاسوسية المضادة فى كل من المانيا وسويسرا ؟ ولم يحاول هوسامان أن يلقى اسئلة قد لا يحظى بالاجابة عليها فقد تطوع روسلر أن يزود مكتب « ها » بالمعلومات اللازمة • وما لبث أن أصبح حلقة بالغة الاهمية فى سلسلة المعلومات التى تصل الى السويسريين• وتفوق على خط فايكنج Viking Line فى كثير من الاحيان • لانه كان جاسوسا نادرا للمخابرات السياسية والعسكرية ولو أنه كان يصر ـ وله ما يبرره ـ على أنه ليس جاسوسا معادلا لجواسيس منظمة المخابرات • وكانت معاملة السويسريين له بهذه الصورة • واصبح مشهورا بتقديره لقيمة المعلومات وبوسائل الحصول عليها × .

وهكذا فى نهاية سنة ١٩٤١ أصبح لدى جيسان معلومات استثنائية عن الالمان تحت تصرفه • معلومات تقدر بعدة فرق من القوات فى نظر اعداء الريخ الالمانى • وماذا كان عليه أن يصنع بها • هل يحتفظ بها للرجوع اليها وقت الحاجة ؟ وليس من اليسير أن تكون موضوعا للمشاورة مع الرؤساء السياسيين فى الحكومة الفدرالية • وذلك لان رسالة بيليه جولاز الى كوبلت بشأن ادارة المخابرات كانت انذارا كافيا بأن استخدام المعلومات بصفة غير رسمية لن يلقى عطفا فى برن • وهى المعلومات التى تكون فى صالح الحلفاء •

× ما ورد فى هذا الفصل خاصا بروسلر ورادو والكسندر فوت سيصدر قريبا بتفصيل كبير فى كتاب (فن الجاسوسية) •

ومرة اخرى كانت الفيللا بجانب البحيرة قد توصلت الى حل مؤقت على الاقل • حيث جاء حوالى هذا الوقت قادم جديد واقام فى مبنى مكتب « ها » وعرف بأنه كندى من ذوى قربى زوجة هوسامان • وينادى بصفة عامة بالعم توم • وكان في أغلب الاوقات حاضرا عند ما تصل رسائل روسلر • ويغادر المكان فجأة اذا كانت هذه الرسائل تحتوى على معلومات حول سفن U-boats أو على شئون تبدو للضابط شنيبر أنها تهم البريطانيين بصفة خاصة • فقد اتضح فيما بعد أن العم توم كان ضابطا من تشكوسلوفاكيا ملحقا ببعثة الحلفاء في برن واسمه الحقيقى كولونيل سدلاك Sedlacek • وعلى ذلك كان من الظاهر على الاقل أن العم توم كان يمد السلطات البريطانية بالمعلومات التي يأتى بها روسلر • ولم يعرف اذا كانت لندن اهتمت بتلك المعلومات أو ابدت رأيا فيها • ولن يكون من المدهش أن نجد المعلومات لا تزال باقية فى زوايا الاهمال في مكاتب المخابرات البحرية • وعلى كل حال كيف يمكن تصديق التقارير عن تحركات السفن • وهى معلومات جاءت من لاجىء ألمانى ويعمل ناشرا مقيدا بالاقامة فى لوسيرن • ولكن اذا كان البريطانيون فى ريب من تلك المعلومات فأن غيرهم كانوا يتلهفون عليها •

وبينما كان هذا التحالف بين روسلر وسلطات المخابرات السويسرية يسير فى طريق التقدم واخذت بعض المعلومات المتحصلة تتسرب الى البريطانيين . كان فى جنيف رجل مجرى وصناعته اعداد الخرائط يتم عملية انشاء ثلاثة أجهزة قوية للارسال • اثنان منها في جنيف وواحد فى لوزان لارسال معلومات اثناء الليل الى السلطات السوفييتية فى موسكو • وكان الرجل يعرف فى جنيف باسم الكسندر رادولفى ويعرفه الروس باسم رادو • ومن أوائل سنة ١٩٤١ وما بعدها قام بارسال معلومات ضخمة اعتبرتها القيادة العليا للجيش الاحمر كأنها مائدة انزلت عليهم من السماء • وكان المصدر الرئيسى لرادو شخصا مجهولا لم يكن له صلة مباشرة بالمجموعة ولكنه كان معروفا باسم « لوسى » فقط • وكان هناك رجل انجليزى يدعى الكسندر فوت Foote ويدير جهاز الارسال فى لوزان لحساب مجموعة رادو • ويعرف « لوسى » بأنه شخص يدعى سلزنجر ويقيم فى لوسرن • وفى الواقع كان روسلر هو الذى يزودهم بالمعلومات •

واما شعبة فايكنج Viking Line فكانت مهتمها معرفة تحركات القوات وأوامر العمليات التى كان رادو يقوم بارسالها الى موسكو غالبا قبل أن تصل الى رئاسة العمليات الالمانية أو قبل تنفيذها • وكان نقل

المعلومات بهذه الصورة هو الذى حير فوت Foote (عامل جهاز الارسال) كما حير اولئك السويسريين الذين كانوا لا يدركون حقيقة الامر • حيث كان هناك ثلاثة رجال فى ادارة المخابرات السويسريين هم الذين يعملون عن شعبة فايكنج • وعدد أقل من ذلك على علم بمصادر معلومات روسلر وتفصيلاتها • وكل هؤلاء كانوا تائهين فى خضم الالغاز• ولكن بطبيعة استعدادهم كان من الممكن أن يتصلوا بروسلر باللاسلكى أو بمن يعرفه من السويسريين لمساعدته مساعدة فعلية والتواطؤ معه • كما أن الشيء الذى لا تعرفه لوسيرن هو من الذى ارسل هذا الرجل ؟ وكذلك كانت جميع مخابرات الحلفاء متلهفة على معرفة ذلك • فقد كان له الفضل فى اقامة علاقات مع جميع الجهات المعارضة فى المانيا • وأول مجموعة هى روت كابل Roie Kapelle البورجوازية الكاثوليكية الشيوعية ذات النفوذ • وبعد أن قضى عليها الجستابو كان من المعتقد أن روسلر يحصل على معلوماته من دائرة كريسو Kreisau وهى مجموعة من الضباط والموظفين من ذوى النفوذ • وظن بعضهم أنه يلتقط معلوماته من محيط الجاسوسية الالمانية المضادة ذاتها من ادميرال كانارس أو يحتمل أن يكون مساعده الاول أوسترر Ostrer • ولكن بعد أن قضى الجستابو على هذه المصادر واحدا تلو الآخر استمر روسلر فى حصولهعلى المعلومات ولم يتوقف نشاطه حتى قرب نهاية الحرب •

وكان ثمة مظهر غريب لرسائل « لوسى » التى كانت تبعث بها مجموعة رادو الى موسكو • فقد كان الروس لا يقبلون أية معلومات من مخبرين لا يعرفونهم ويتأكدون من شخصياتهم • ولكنهم لم يسألوا عن « لوسى » ولا عمن وراء الاسم . وكانت مجموعة رادو بما فيهم فوت يعللون ذلك بدقة معلومات « لوسى » وسرعتها • وظنوا أن الروس لا يميلون الى انتقاد منحة عرضت عليهم • وكانت تبدو على الروس مظاهر الارتياح والشكر اكثر من مظاهر القلق حول معلومات « لوسى » التى كانت تأتيهم فى سهولة ويسر • وكان هذا كثيرا • وربما كثيرا جدا • لان عملية روسلر ــ كما كان موقفها ــ كانت أمرا غير معقول •

فقد فسر روسلر موقفه عندما قدم الى محكمة سويسرية سنة ١٩٥٣ بتهمة ارسال معلومات حربية حول ظروف المانيا الغربية المحتلة الى حكومة تشيكوسلوفاكيا بأنه كان لديه فهرس لمعلومات جغرافية مطبوعة (وكان هذا حقا) التى منها يستطيع معلق وناقد حربى قادر وعلى جانب منالذكاء أن يستخلص النتائج والآراء الشخصية • واستطاع أن يشير الى ما يزيد عن عشرين الفا من قصاصات الصحف فى ملفاته • وصرح بصلات كثيرة

وثيقة المعلومات استطاع أن يستقى منها معلومات خاصة تتعلق بالماضى بنفس الطريقة كأى صحفي آخر قدير • وكل هذه حقائق لا نزاع فيها • فقد روى عن فيلد مارشال مونتجمرى أنه قال مرة عند ما كان رئيسا لهيئة أركان حرب الامبراطورية أن فى رأيه أن الروس كان فى استطاعتهم الاستغناء عن مخابراتهم • وان كل ما كانوا فى حاجة اليه هو خمس وعشرين نسخة من نيويورك تايمز يقرؤها يومية الاخصائيون من رجالهم• ولكن كان هناك عنصر واحد مختلف فى قصة روسلر وهو سرعة حصوله على المعلومات خلال الحرب فقد كان هذا أمرا لا يستطيع الفرد العادى أن يعده أو ينظمه بمفرده •

واذا اعدنا النظر فى سجل هذا اللاجىء المقيم فى لوسيرن وهو الرجل العادى المتواضع لبرزت لنا حقيقة مذهلة • لان المعلومات التى نقلها الى السويسريين والروس والتى ارسلها السويسريون بدورهم الى البريطانيين كانت الوسيلة الوحيدة لحصول روسلر عليها هى عن طريق شخص يعمل فى قلب جهاز اعداد القرارات فى مقر قيادة هتلر • ولديه التسهيلات الكافية للاتصال مباشرة بروسلر • وعلى الانسان أن يتبين الموقف على حالته هذه ليدرك أن رجلا بمفرده لا يستطيع تداول مثل هذه الوثائق مهما كان مركزه رفيعا فى حاشية هتلر المقدسة • لانه لابد أن يكون ضمن تلك الهيئة للحصول على المعلومات التى كانت تصل الى روسلر أولا بأول حسب تسلسل الاوامر فى القيادة العليا • وزيادة على ذلك أيا كان هذا الشخص لابد له من شركاء يتولون ادارة اللاسلكى لارسال الرسائل الى روسلر • وهنا نلتقى بسر آخر • فكيف واين تمكن روسلر من التقاط هذه الرسائل اللاسلكية الواردة من قيادة الفوهرر ؟ وهل كان هذا يتم اعداده بمعرفة قسم بليتس Pilatus التابع لادارة المخابرات الحربية السويسرية والذى يعمل من وراء ستار فى مقره الممتاز وبما لديه من التسهيلات الفنية المعدة لهذا الغرض ؟ فاذا سلمنا بهذا الوضع حيث لا يمكن أن يتم بأية طريقة اخرى فنكون قد حصلنا على جزء من الاجابة على لغز روسلر وهو الجزء الاقل اهمية • ولكن ما هو الجزء الآخر ؟

من الواضح أن العلاقة بين روسلر والمجموعة التى تعمل لصالحه فى مقر قيادة الالمان مع ما لديها من أجهزة للارسال والرموز والرسائل المحددة الوقت لا يمكن أن يقيمها ويتعهدها لاجىء رقيق الحال • وقد يتساءل المرء: ما الذى دعا تلك المجموعة فى مقر قيادة الالمان وما لديها من معلومات تزيد فى قيمتها عن اية معلومات اخرى يمكن الحصول عليها ان تقرر ارسالها

الى ذلك الناقد الحربى الغامض فى لوسيرن رغم كفاءته التى لا شك فيها ٠ وما على المرء الا أن يسأل هذا السؤال حتى تبدو له بادرة من الاجابة عليه ٠ فأن روسلر لم ينشىء علاقته هذه ارتجالا بل كانت مدبرة على مر السنين فى عناية واحكام . ولابد أن بعضا من كبار ضباط القيادة الألمانية Wehrmacht كان لهم ضلع فيها ٠ وظلوا محتفظين بها لا يحركون ساكنا للنهاية ان كان قدر لهم البقاء طيلة تلك المدة ٠ ومن المحقق أن روسلر لم يتحدث عنهـا مطلقا كما أن رفيقه الاقرب اليه شنيبر لم يكن فى هذا السر الكبير ٠

دليل آخر على هذا السر هو أن الروس لم يدر بخلدهم حب استطلاع شخصية « لوسى » وشيء واحد يمكن أن يفسر لنا هذا على وجه مرضى : اذا كانت موسكو تعرف شخصية « لوسى » فلا بد أنها كانت حريصة على الا يكون تواطؤ روسلر معها موضع اشتبـاه ٠ وكلمـا أمكن تحليل قصة روسلر وما انطوت عليه من معميات معقدة كلما ظهر انها خطة محكمة وضعتها احدى الوكالات السرية فى موسكو ـ وكالة ترغب فى الا يكون هناك أى فرد ـ حتى ولا ستالين ـ يعلم أن هذا الفرع الممتد الى مقر قيادة الفوهرر قد انشىء وانه يؤدى مهمته على أحسن وجه ٠

ولكن باستيلاء الالمان على أوروبا وهو أمر لم يكن متوقعا ثم امتداد الحرب الى روسيا ٠ وجد روسلر لزاما عليه أن يبحث عن حليف موثوق به يستطيع العمل معه وبذلك توصـل الى التعـامل مع السويسريين الذين يستطيعون الاشراف على الناحية الفنية من المواصلات بينه وبين قيـادة الفوهرر وتجاهل ارتباطه بموسكو ان يزودهم روسـلر بمعـلوماته عن المانيا ٠ وبغض النظر عن رئيس روسلر المباشر فى موسكو نجد أن السلطات هناك وستالين ووزارة الخارجية و M.V.D. لا يعلمون شيئا عن هذا التعاون اكثر من السلطات السويسرية (ما عدا الشرطة وضباط الجيش المختصين مباشرة) ٠ وجملة القول أن روسلر كان احدى حلقات جاسوسية الجيش الاحمر القليلة ان لم يكن أكبرها ٠ وهى العلاقة التى لم يستطع ستالين أن يقطعها عند ما عقد الاتفاقية بين النازى والسوفييت فى أغسطس سنة ١٩٣٩ لانه لم يكن يعلم بوجودها ؟ وكل حلقـات التجسس الشيـوعى الاخرى فى المانيا صدرت لها الاوامر بايقاف نشاطها مؤقتا مما يبدو أمرا غريبا

وخلال هذه السلسلة من الظروف الملتوية نجد أن المعلومات عن الاسرار الداخلية للريخ الالمانى قد تركزت فى قلب سويسرا وقت أن بلغت المانيا ذروتها فى الانتصار على أوروبا ٠ ولكن قادة السوفييت ٠ وكانوا يعانون

ضغطا شديدا ـ لم يهتموا بهذه المعلومات (وكانت قد اذيعت فى الدوائر الداخلية فقط) لان ما كان يهمهم هو معلومات تساعدهم فى جهادهم اليومى فى ميدان القتال· فلم يكن لديهم وقتلتذوق الكماليات السياسية وانما كانوا يرغبون فى الحصول على انباء عن القوات الالمانية وتحركات الفرق العسكرية والاسلحة المتوافرة لدى الالمان ·

ولكن فى أواخر سنة ١٩٤٢ تحول اتجاه التيار · فقد أخذ رومل فى التقهقر يطارده الجيش البريطانى الثامن· ونزل الحلفاء فى شمال افريقيا· واندحر الجيش الالمانى السادس وتشتت شمله فى ستالينجراد . وفى الدار البيضاء بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٣ أعلن كل من روزفلت وتشرشل سياسة التسليم دون شرط أو قيد · وبدأت تثار المطالبة السابقة بقيام حركة فعالة لمعارضة الالمان · ولاحظ السويسريون أن خيوط مثل هذه المؤامرات كلها قد امتدت الى سويسرا . وحان الوقتليقوم فرد بمراقبتها · ولكن ذلك لم يكن فى استطاعة السويسريين لانها كانت مخاطرة كبرى · ولم يبد البريطانيون والروس اهتماما بهذا الامر · وفى ذات يوم علم السويسريون بوصول آلان دالاس Dullss وشروعه فى القيام بمهمته ·

وكان مقره الرسمى فى برن ملحقا بالمفوضية الامريكية هناك · ولكن المركز الحقيقى لعملياته كان فى زيورخ فى مسكن غير ظاهر فى هرنجاس Herrengasse · وهنا بدأ يجتمع بالمعارضين من السويسريين · وبما يعوزه من أفراد ، ثم أقام صلات على كل جانب مع أى شخص أو مجموعة تساعده فى مهمته · واصبح الآن يعلم شيئا عن الموارد الاستثنائية التى كانت تمتلكها ادارة المخابرات السويسرية وعن فشل الحلفاء الذريع فى استغلال الفرص التى اتيحت لهم· والواقع أن التجسس من أجل السلام قد تطور الى أقصى حد ملحوظ حين جاء دالاس الى سويسرا حيث سرعان ما شعر القوم بشخصية : ويكهام الحرب العالمية الثانية قد بدأ فى العمل ·

ولم يلبث الالمان أن وقفوا على حقيقة أمره سواء فريق المعارضة أو الجستابو . وكان دالاس قد قام فى أول الامر بصلات بعناصر قليلة من المعارضة · وما لبث أن تبين له انهم ما زالوا عاجزين كل العجز عن اتخاذ أية خطوة فعالة ضد الحكم النازى . ولكن دالاس ـ خلال هذه الاسابيع الاولى ـ كان قد شاهد وسمع ما يكفى لكى يستنتج أنه اذا نجحت اية حركة ضد هتلر فمن المستطاع أن تأتى من الخارج مساعدة ذات أثر فعال · وبدأ فى عناية يحيك خيوط ذلك اليوم الحاسم ٢٠ يولية سنة ١٩٤٤ · ولكن المدى كان لا يزال بعيدا ·

وفى الوقت نفسه كان جيسان قد لاحظ التطورات الغربية التى لحقت باحدى وكالاته المفضلة لديه فلم يتدخل ولم يذكر شيئا عن خططه الخاصة . ولكن جاء دوره لكى تجذبه الشبكة التى نصبها الالمان وهى الالاعيب المضادة ـ كما يقال ـ والتى كشف عنها آلان دالاس . فقد أظهرت الى أى مدى انتقل الصراع بين الرغبات حول استقلال سويسرا وحيادها من الطاقة العسكرية والمرحلة الدبلوماسية الى غيوم المخابرات .

ونحن لا ينبغى لنا ـ بطبيعة الحال ـ أن يغرب عن بالنا الاسباب التى أدت الى هذا التطور . فقد بذل الالمان جهودا ضخمة فى الدبلوماسية والضغط السياسى والجاسوسية والتخريب وألوان الرشوة وفى اعداد كل الوسائل التى تؤدى الى اضعاف المعارضة السويسرية للحكم النازى . ونجحوا فى هذا المضمار وحصلوا على قسط وافر من المعلومات وتمكنوا من وضع رجالهم فى المراكز الرئيسية وخلق ازمات داخلية فى البلاد وفى الجيش . ولكنهم لم يحققوا اهدافهم . فكل ما حدث كان تعزيزا لقوة جيسان . حيث تمت منشآت الحصن وأعيد ارسال القوات المسلحة بما يكفى لمقاومة فعالة لمدة طويلة . واصبحت البلاد راضية عن فكرة الحصن وعن جيسان . باعتبار أنها صدى لتصميم السويسريين على عدم الخضوع .

وكان المراقبون قد لاحظوا فى صيف سنة ١٩٤٢ القلق المتزايد فى الدوائر المحيطة بهملر الذى اصبح يدرك ان الحرب فى البحر الابيض المتوسطة قد أوشكت على الدخول فى مرحلة حاسمة . وأن رومل قد أعد للقيام بضربته القاضية قرب القاهرة . ولكن اذا اصابه الفشل ـ وكان لقلة موارده يتردد فى القاء ضربته ـ فسوف يسطع نجم البريطانيين كما أن التصرف فى مثل هذا الموقف غاب عن أذهان معظم الالمان الذين سبق أن حاربوا فى الجبهة الشرقية وفى الزحف نحو نهر الفولجا . ومن ناحية اخرى كانت التقارير الواردة من مخابرات هملر تقول أن الحالة فى روما لم تكن على ما يرام . ورأى الالمان أنه لابد من الاستعداد لقطع تحالفهم مع ايطاليا اذا ساءت الامور فى شمال آفريقيا . ثم أن هذا كله كان من قبيل التكهنات وكان الرأى السائد ان الالمان عليهم أن يقدروا قيمة السويسريين من جديد فيما اذا انهارت الجبهة الايطالية . ولم يكن هناك داع للعجلة ولكن الاحتمالات كانت جديرة بالملاحظة .

وكان جنرال ولتر شلنبرج رئيس مخابرات هملر الاجنبية القسم السادس ضابطا فى مقتبل العمر المحيا لا يتسم بمظاهر ضابط المخابرات وبذلك كان موضع اعجاب وارتياب لدى كل من اجتمع به لاول مرة . وخاصة

الاجانب الذين تأثروا بهذا الرجل الذى لم يكن يبدو بالمظهر المفروض فى ضابط كبير بالمخابرات ـ وعلى الاخص فى نظر الدعايات المعادية ، كما أن شلنبرج لم يكن واضح المعالم تماما فقد كان شخصية غامضة تستطيع أن يكون لها طابع الامانة والاخلاص فى نفس كل من يريد أن يؤثر فيه • وفى أواخر صيف سنة ١٩٤٢ أخذ على عاتقه أن يستغل الموقف الذى اثاره هملر بمناقشته حول ايطاليا وسويسرا •

ومن بين موظفى شلنبرج كان هناك رائد من الفرسان وقائد مخابرات فرقة العاصفة • وهو ضابط يدعى أجن Eggen قام بأعمال تجارية ضخمة فى لوسيرن بسويسرا لتكون ستارا لمهمته فى المخابرات • ولو أنها درت عليه ارباحا وفيرة • وعن طريق معاملاته التجارية من حيث شراء ثكنات ومعدات اخرى للخدمات السرية تعرف على ضابطين من المخابرات ضمن موظفى ماسون وهما كابتن ماير Meyer وكابتن بول هولزاخ Holzach • وقاما باخطار ماسون بصلتهما بأجن • ووافق ماسون على هذه الصلة واستنتج انها قد تكون خطا هاما يمتد مباشرة الى شلنبرج اذا احتاج الامر • ومن وجهة نظر ماسون كان هذا شيئا طبيعيا عاديا فى جميع اعمال المخابرات • وكان عليه أن يستخدم هذا الخط احيانا فى اغراض انسانية مثل الافراج عن عائلة جنرال جيرو Giraud التى اعتقلها الالمان كرهينة للجنرال الهارب • ولكن شلنبرج عمل تقديراته ايضا ولم تكن مقصورة على المنافع الانسانية •

وتلقى أجن الاوامر باستغلال هذه العلاقة الى اقصى حد • وكان عليه أن يركز اهتماما فى خلق شعور متبادل من الثقة والتقدير وألا يفعل شيئا قد يزعج السويسريين • وتمشى أجن مع هذه الاوامر على أحسن وجه • فقد ازدهرت علاقته بالضابطين السويسريين فى الميدان الاشتراكى وفى مجال الاعمال • وتمكن أجن من اجتياز الحدود السويسرية دون نظم الامن الرسمية المعتادة • وعند ما كانت تمنعه شرطة الحدود السويسرية كان ماسون يأمر بالتصريح له • وبذلك وصلت الثقة المتبادلة الى أقصى مداها • وفى الوقت نفسه كانت مظاهر القلق تسود فى ازدياد دوائر هملر حول النتائج المنتظرة فى البحر الابيض المتوسط وفى ايطاليا •

بناء على ذلك قرر شلنبرج ان يكبح حماس السويسريين • وفى أواخر اغسطس سنة ١٩٤٢ دعا ماسون لمناقشة خاصة على أرض المانية لا تبعد كثيرا عن الحدود السويسرية فرحب بذلك ماسون وقبل الدعوة • وبعد ذلك بأيام قلائل اثناء استعراض للسلاح الجوى السويسرى فى ٣سبتمبر

أخطر ماسون كلا من جيسان وباربى Barbey ومدير مكتب جيسان بنبأ الاجتماع المقترح • واحتفظ باربى بسجل لمناقشته مع ماسون • ومما يأخذ بالالباب هو الصورة التى كونها ماسون عن شلنبرج • فقد وصفه لباربى بأنه شخصية لها نفوذ كبير على هملر ـ وحتى على هتلر • وأنه جنرال فى مقتبل العمر مثقف وجم الادب وينتمى الى اقسام المخابرات التى كانت تعارض مدرسة روبنتروب ويعطف كثيرا على موقف السويسريين• ثم أن ماسون كان متحمسا للاجتماع المقترح ولكن باربى حذره من التورط فيما يشبه المفاوضات وحثه على الاحتفاظ بالاجتماع فى طى الكتمان •

وكانت المقابلة التى تمت في فالدشت Waldshut بعد بضعة ايام قد اقنعت ماسون أن شلنبرج كان عند حسن ظنه به لما وعد • وفى ٩ سبتمبر دعا ماسون باربى وأخبره أن كل شىء قد تم على ما يرام • ثم لما اجتمع به بعد ذلك فى نفس الشهر قدم اليه بيانا وافيا عن المناقشة التى دارت بينهما وعن الانطباعات التى تركها شلنبرج فى نفسه• وما من شك فى أن باربى قد ادرك مدى تحول ماسون • واصبح يشعر بشىء من القلق حول النتائج المحتملة • فقد قبل ماسون تأكيدات شلنبرج أن المخابرات ليس لها ضلع فى الجاسوسية الالمانية الواسعة النطاق فى سويسرا • وكل تأكيدات شلنبرج هذه جاءت من مكتب روبينتروب • ولكن شلنبرج كان قد ذكر شيئا له أهمية عظمى فى الشهور التالية وأعرب لماسون عن قلقه الشديد حول سلامة الفوهرر شخصيا •

لماذا فاتح ماسون فى هذا الموضوع ؟ هل كان شلنبرج يعلم شيئا أو يشتبه فى أمر لم يكن يدركه ماسون عن احداث تلوح ظلالها فى الافق ؟ وهل كان يأمل أن ماسون قد يكون عونا له فى هذا الصدد ؟ وتعجب باربى ماذا تكون نتائج هذه التصرفات •

وفى هذه المقابلة الأولى لم يفصح شلنبرج عن شىء بل تريث حتى استسلم الجيش الالمانى السادس فى ستالنجراد • واعلنت فى الدار البيضاء صيغة التسليم دون شرط أو قيد • وبدأت جبهة رومل فى الانهيار • وبدا التحالف الايطالى يهتز فى ازدياد • ثم دارت المناقشات فى مقر قيادة هتلر اكثر من مرة حول تعزيز الجدار الجنوبى للقلعة الاوروبية • والقيت الاسئلة دون اجابة عليها عما اذا كان يمكن ذلك دون ادخال الجزء السويسرى من حصن الالب ضمن نظام الدفاع الالمانى • وما هو شعور السويسريين حيال هذا الامر ؟ وماذا يحتمل أن يصنعوه ؟ هل يستدعون مساعدة الحلفاء لهم • أو يوافقون على احتلال الحلفاء لهم (اذا أمكن ذلك من الوجهة الطبيعية) ليكونوا عقبة فى سبيل الالمان ؟

وكان الفوهرر على علم بما يدور من حديث بين السياسيين السويسريين في برن • فقد أطلع على التقارير المطمئنة التي ترد من الوزير الالمانى • كما رأى ملخصات تقارير المخابرات الالمانية حول الانشاءات في الحصن السويسرى وعزم السويسريين على القتال • وكذلك كان بين يديه بيانات عن مجموعة التخريب الالمانية والموجودة في سويسرا على استعداد للعمل • ولكن كانت هناك ثغرة واسعة في الصورة التي رسمها الالمان لآراء السويسريين واستعدادهم ـ وهى ماذا يدور في رأس جيسان وماهو موقف الجيش السويسرى ؟ فقد سبق في سنة ١٩٤٠ أن وقف الجيش في طريق الالمان •

ومن الواضح أن الوقت قد حان لشلنبرج لكى يستغل علاقته بماسون وينفذ بنفسه الى اعماق المشكلة • وعلى ذلك اتصل بماسون في فبراير سنة ١٩٤٣ وأخبره أنه سوف يقضى بضعة أيام في سويسرا بصفة شخصية ويرغب في اجتماع خاص بجيسان • وكان مستشارو جيسان يتوقعون مفاجآت في هذه المقابلة المقترحة وخاصة أن الحكومة لا تعلم شيئا عنها • وأما جيسان نفسه فقد كان مترددا بين التزامه جانب الحرص وبين شوقه لمقابلة ذلك الرجل وجها لوجه • وتغلبت عليه غريزة حب الاستطلاع • فتمت المقابلة في الفندق الصغير ببرن Baeren في قرية بجلن Biglen خارج برن في ٣ مارس وتناولا طعام الغداء • وكانت المناقشة الفعلية في مغزاها أقل من تاريخ الاجتماع كما سنأخذ به فيما بعد • وكان الطلب الذى تقدم به شلنبرج الى جيسان طلبا غريبا اذا ما اعتبرنا موقف سويسرا في ذلك الوقت ـ حيث ادعى شلنبرج أن الفوهرر يطلب بيانا من شخص له نفوذ مثل جيسان بأن السويسريين سوف يدافعون عن حيادهم ضد أية محاولة للحلفاء لانتهاكه • فأشار جيسان في حزم الى مقابلة تمت حديثا بينه وبين أحد الصحفيين السويديين • حيث صرح بأنه لابد من الدفاع عن حياد سويسرا ضد اية محاولة لانتهاكه •

ولكن كل هذا كان أشبه شىء بمباراة للبوكر اشترك فيها كل من شلنبرج وجيسان • ومما يبدو غريبا أن ماسون لم يعلم شيئا عنها • ولابد أن شلنبرج كان واعيا كجيسان أن سويسرا كانت تحيط بها من جميع حدودها دول تحت اشراف الالمان • ولم يكن على الحدود السويسرية

سوى القوات الالمانية وتوابعها • واقرب قوات للحلفاء كانت القوات البريطانية والجيوش الامريكية في تونس على شاطىء البحر الابيض المتوسط • وكانت قوات الجيش الأحمر في روسيا البيضاء وفى القرم

على مسافة ١٥٠٠ ميل • فمن الواضح أن شلنبرج لم يأت لجيسان ليعرض عليه هذا الطلب الذى لا معنى له • وأنه لابد أن السبب فى بلبلة الافكار (ليس من جانب باربى فقط) هو أن ماسون رئيس المخابرات الحربية السويسرية الذائعة الصيت وافق على وجهة نظر شلنبرج وايضاحاته • فلماذا جاء شلنبرج اذن ؟ وما هو الهدف الحقيقى لمجيئه ؟ ونحن الآن بصدد جدول الاعمال المحرج الذى كان جزءا من زيارة شلنبرج •

فقد حدث قبل مغادرة شلنبرج الى سويسرا ـ كما رأينا ـ ان دارت مناقشات فى مقر قيادة الفوهرر حول اعادة النظر فى تقدير موقف سويسرا على ضوء ادخال مواقع الالب السويسرية ضمن وسائل الدفاع الالمانى • ولكن لم يتقرر شىء • فقد جاء شلنبرج للاجتماع بجيسان وظل فى سويسرا أياما أخرى للاستجمام قبل عودته لتقديم تقريره عن محادثاته • وبعد عودته بقليل دعا هتلر الى عقد مؤتمر كبير يضم قادته فى مقر القيادة • وتم ذلك فى ١٤ مارس سنة ١٩٤٣ حيث سجل هتلر فى مدى دقائق تحذيره الذى يصر فيه على أن خسارة تونس معناها أيضا خسارة ايطاليا •

واثيرت فى الحال الخطط بشأن « موضوع سويسرا » • واستؤنفت المناقشة حول هذا الموضوع وانشىء مقر قيادة فى ميونخ • ثم وضعت العمليات ضد سويسرا موضع التنفيذ • وعلى ذلك أثبتت زيارة شلنبرج لجيسان وجهة نظر الالمان أن سويسرا لابد أن تؤخذ بالقوة • وما علمناه من المناقشة التى دارت بين شلنبرج وجيسان أنها تؤيد هذه النتيجة • وكان جيسان قد تأثر فعلا بجنرال المخابرات الالمانية • ولم يكن يسعى للحصول على تأكيدات من الالمان وتصرف على الوجه الصحيح • ولكنه كان يؤكد فى اصرار أن السويسريين سوف يكافحون ضد أى انتهاك لحيادهم • والى جانب ذلك كان يدرك ـ كما فهم شلنبرج (وليس ماسون) • أنهما عند ما تحدثا عن انتهاك الحلفاء لحياد سويسرا انما كانا يعنيان انتهاك الالمان للحياد • وها قد جاء شلنبرج والقى سؤالة واعطاه جيسان الاجابه عليه • ثم عاد شلنبرج الى برلين حيث كانت الاستعدادات الحربية قدبدأت تأخذ شكلا جديا • وفى ١٨ مارس ـ أى بعد اسبوعين من المقابلة التى تمت فى بجلن ـ كانت الاعدادات قد انتهت بما فيه الكفاية لاخطار مقر قيادة الفوهرر • كما وصلت انباؤها الى خط فايكنج Viking Line •

وارسل خط فايكنج المعلومات الى قسم المخابرات فى لوسيرن فى ٨ مارس • وعلم بها ماسون وكذلك الجنرال الذى أمر بعقد مؤتمر خاص مع ماسون وهيئة القيادة فى ٢٠ مارس ـ ولكن جاءت اذ ذاك احدى الفترات

الغامضة الغربية التى تلقى الضوء احيانا على المواقف المبهمة والتى يكتنفها الظلام ـ فقد قام ماسون باستدعاء ماير Meyer ضابط الاتصال بأجن والمخابرات وطلب اليه أن يتصل بشلنبرج ليتأكد من دقة الرسالة التى بعث بها خط فايكنج · وبدا أن كلا من ماسون وماير لم يكونا على حذر من الخطأ الذى كانا على وشك أن يقترفاه ·

اتصل ماير بأجن وافضى اليه بالانباء التى عرفت · وفهم أجن معنى هذه الانباء فى نظر الالمان · ورحل لتوه الى برلين للبحث عن شلنبرج واخطاره بموضوع الرسالة التى كانت الدليل الذى يبحث عنه شلنبرج على أن هناك فى قلب قيادة الفوهرر خونة وعملاء للسويسريين وربما عملاء لمخابرات اخرى · وبمجرد استلامه رسالة ماسون شرع فى التنفيذ·

وأخذ شلنبرج يفحص كل ناحية تكون موضع اشتباه فحصا دقيقا شاملا · وتم اعتقال عدد كبير من الضباط فى قيادة الفوهرر وآخرين كثيرين أوقفوا ريثما يتم التحقيق معهم· ومن بين المعتقلين كان أحدالرجال الذين يشرفون على خط فايكنج · وأخذ فى استجوابه مع آخرين لمدة خمسة أسابيع ولكنه فى النهاية تمكن من اقناع سائليه · وأفرج عنه واستمر فى عمله فى ادارة فايكنج· ولكن تشديد الرقابة وتدعيم اجراءات الامن فى محيط قيادة الفوهرر أدى الى صعوبة ادارة الخط ومضاعفة خطورته · وكان لحماقة ماسون رد فعل عنيف فى مكتب « ها » الذى وجد ان أهم حلقة للاتصال فى مخابرات الحرب قد فقدت تقريبا بسبب ماسون وثقته بشلنبرج الخاطئة ·

واما شلنبرج فقد شعر بأن لعبته مع ماسون اصبحت غير ذات موضوع وأن السويسريين يمتلكون فرعا مباشرا يمتد الى قيادة الفوهرر واشتبه فى أن مصادر الخط ليست مقصورة على المخابرات السويسرية · وحتى هذه المعلومات كانت هامة بالنسبة للالمان الذين حاولوا جهد استطاعتهم لكشف المصدر الحقيقى لمراسلات الخط

ولكن الالمان عرفوا الان أن خطط السويسريين تستحق التقدير وانهم يدبرون اعدادات محكمة فى هدوء لمجابهة أية حركة المانية ظاهرة ـ وعلى ذلك أخذ شلنبرج يحاول ان يكون سيد الموقف · وبعد ثلاثة أيام وصله استفهام ماسون · وعاد أجن الى سويسرا ومعه رسالة من شلنبرج الذى نجح فى اقناع القادة بأنه لا حاجة لنشوب حرب مع سويسرا فقد صرف النظر عن « موضوع سويسرا » فتأثر ماسون وشعر بالارتياح واصبح على يقين من أن هذا الكسب كان نتيجة لارتباطه مع شلنبرج · ولكن زملاء

وتابعيه كانت تساورهم عوامل الشك والغضب والمرارة واعربوا عن أن ثقتهم في رئيسهم قد تزعزعت بسبب تمثيلية شلنبرج ٠

وكان شلنبرج نفسه هو آلذى حقق مخاوفهم ٠ فبعد ما استجوبه البريطانيون بعد الحرب ادعى أنه احتفظ بعلاقته بماسون لكي يكتشف مواعيد غزو الحلفاء ومعلومات اخرى من مصادرهم ٠ ولكن لم تكن هناك حاجة للانتظار حتى نهاية الحرب فقد اقتنع زملاء ماسون بأن سياسة شلنبرج كانت ذات وجهين في معاملته مع ماسون ٠ كان آلان دالاس هو الذى أنار لهم الطريق وجعلهم على بينة من أمرهم ٠

وجاء من عملاء الحلفاء في المانيا ـ ومرة اخرى من « خط فايكنج » ـ أن المعلومات تصل الى قيادة الفوهرر حول مقاصد الحلفاء ٠ وان لها طابع المصادر الداخلية وانها كانت دقيقة مما يبعث على الاستياء ٠ كما لوحظ أن معظم هذه المعلومات كانت ألمانيا تنسبها الى مصادر سرية كانت تعرف بـ سينر ١ ، سينر ٢ ، سينر ٣ Senner ٠ وفشلت محاولات السويسريين لمعرفة هذه الشخصيات حتى جاءهم آلان دالاس Dulles ذات يوم وأصر على أن شخصية Sennes تشير الى ادارة المخابرات الحربية السويسرية ٠ ومن وراء ماسون قام قسم مخابرات لوسيرن باجراء تحريات خاصة وتبين له أن سينرا هو ماسون وسينر ٢ تشير الى ماير وسينر ٣ تشير الى هولزاش ٠ وان شلنبرج كان يدلى بقسط وافر من المعلومات وينسبها الى هذه المصادر الثلاثة ٠

وعند ما سئل شلنبرج فيما بعد أصر على أن معظم هذه المعلومات التى نسبها الى السويسريين كانت ـ في الواقع ـ تأتيه من نواح أخرى٠ ولكن الفوهرر كان يتأثر كثيرا اذا ظن أنها آتية من قبل ماسون وهكذا كانت شهرة السويسريين ٠

وفي فترة مارس اقتنع جيسان بانه لن يربح شيئا من علاقته بشلنبرج أو بأية سياسة اخرى مماثلة ٠ ولكن الحادث لم يمر دون أن يترك أثرا في نفس الجنرال ٠ فلم يكن قانعا بزوال خطر الغزو الالمانى مخالفا في ذلك بعض زملائه ٠ وعلى النقيض عند ما بدأت تحتشد الجبهة الالمانية أصبح في قلق متزايد حول التورط في فكرة الالمان من حيث القلعة الاوروبية وعلى أية حال رأى أن السويسريين يجب أن يلتزموا جانب الحذر والترصد اكثر من أى وقت مضى ٠ حيث أن عنصر اليأس الذىيتكهنوا به بدأ يدخل في تقديرات الالمان ٠

ألن دالاس

هل كان رئيسا للجواسيس ؟ ..
أو كانت سياسته من ذات الوجهين ؟ ..

ان كانت هناك فائدة من لقاء شلنبرج فقد افادت المقابلة في تأكيد وجهات نظر جيسان التي بعث بها في تقرير سرى حول الموقف الى الوزارة الفدرالية فى ٦ يناير سنة ١٩٤٣ ـ أى قبل شهرين من اجتماعه بالجنرال الالمانى • حيث أكد فى تقريره الخطر المتجدد الذى سوف يواجهه السويسريون بسبب عزلتهم المطلقة . ولان الالمان قد أقاموا استعدادهم للحرب المقبلة وخط سيرها على أساس (قلعة أوروبا) • كما أبرز فى تقريره أن ممرات الالب الجبلية وخاصة مراكز دفاع الحصن التى لا مثيل لها من العناصر التى لاغنى عنها لصيانة هذه القلعة • وان الغرض من أى عدوان المانى على سويسرا من الآن فصاعدا سيختلف عما كان فيما مضى فأن طول الكفاح لن يكون فى صالح الالمان • ولن ينفعهم احتلال البلاد بعد قيام السويسريين بتدمير الانفاق والممرات وبعد تنفيذ برنامج تخريب الطرق والجسور • وان الالمان فى حاجة الى سويسرا أشد من أى وقت مضى • ويريدونها بلادا عامرة سليمة • وهذا معناه ان الجيش السويسرى يجب أن يستعد لانقلاب مفاجىء قد رسمت خطوطه من قبل ويشمل تعاون القوات الآتية من الخارج مع العناصر المستعدة فى الداخل •

ولكى ينجح الالمان عليهم ان يجنوا ثمرة مفاجأة تامة • ولكى يحققوا النجاح لابد من أن يلقوا ضربتهم فى وقت وفى موقع وبصورة لا يتوقعها السويسريون • وعلى ذلك يكون الوقت قد حان لوضع القوات المسلحة والبلاد على أهبة الاستعداد وبصورة مستمرة والا يكون هناك مجال للتساهل اذا لم يحدث شىء • لان ركود السويسريين انتظارا للالمان ـ فى نظر جويسان ورفاقه المقربين ـ وسيلة واهية لضمان استقلال البلاد وحمايتها • اذ لابد ان تكون هناك وسائل أخرى اكثر فاعلية للفت نظر

الالمان الى مشاكل أخرى عاجلة بالقرب منهم • وكان اجتماع شلنبرج وما دار منه من المناقشة المنحرفة الملتوية مما أكد لجيسان حقيقة الانقسامات داخل ألمانيا • وكانت الجبهة الالمانية هدفا للجيوش الروسية وسلاح طيران الحلفاء ــ والرئيس الجديد لبعثة مكتب الاعمال الاستراتيجية فى برن ولم يكن جيسان قد بين هذا للوزارة الفدرالية ولكنه عندما سمع بالقادم الجديد اعتبره من العوامل الهامة التى قد تساهم فى اقصاء الالمان عن سويسرا • وكان كبار ضباط المخابرات الحربية لايعلمون شيئا عن وجهة نظر جيسان وأخذوا يقومون باستنتاجاتهم الشخصية •

فى نفس الوقت بدأ آلان دالاس يستقر فى عمله • وكان وصوله موضع ارتياح لدى موظفى مكتبه الذين رحبوا برئيس له نفوذ ومستعد لاتخاذ قرارات ويلجأ الى بعض الاعمال الجريئة القوية بسرعة • كما رحب به القسم الخاص من المخابرات الحربية السويسرية الذى لم يكن مطمئنا لكمية المعلومات التافهة ولعدم استغلال صلاته فى ألمانيا • وكذلك كان آلان دالاس موضع ترحيب من مجموعات الالمان من المنفيين فى سويسرا أو ممن كانوا يتخذون سويسرا فى بعض الاحيان مقرا للاتصال ببعض ممثلى الحلفاء الذين لايخشون أو يشتبهون فى مشاعرهم ومقاصدهم المعادية لهتلر •

ولكن كان وصول دالاس ــ فى نظر السويسريين مؤقتا ــ أمرا بالغ الاهمية • لانهم فهموا ان تعيينه هذا معناه ان وظيفة الحياد السويسرى فى العمل ضد هتلر قد اتخذت مظهرا جديدا وأن النتيجة المنطقية لعملية «التجسس من أجل السلام» قد بلغت مرحلتها التالية وهى «العمل من اجل السلام» • وبدأ بوصوله تبادل للمعلومات وتقديرها على نطاق واسع • ولم يعد ذلك مقصورا على المخابرات الحربية التى أصبحت فى الواقع أمرا له أهمية ثانوية • كما لم يستدع الامر ادخال تحسينات على جهاز المخابرات الحربية حيث كان يعمل على وجه مرضى • وكان العاملون فى خط فايكنج ومصدر روسلر يوردون المعلومات كاملة وبانتظام • وليس فى الامكان ادخال تحسينات أخرى على هذا الوضع • ثم ان دالاس أصبح ممن تصل اليهم هذه الرسائل وشعر انه يستطيع أن يركز مجهوده آمنا فى مجال أوسع مدى وهو المجال الذى أهمله الحلفاء حتى ذلك الوقت •

وعلى ذلك قام دالاس بتغيير الاجراءات المعتادة للمخابرات . فلم يحاول اخفاء شخصية واشاع أمر وصوله غير متظاهر بانه يحظى بعناية روزفلت وأن له نفوذا كبيرا ويرغب كثيرا فى معرفة المعارضين لالمانيا • وكانت

مجازفة في لفت الانظار اليه بهذه الطريقة • لان الجستابو وهيئات الامن الالمانية الاخرى سوف يسمعون به ويراقبون عن كثب أية اتصالات جديدة يقيمها دالاس • ولكنه أوضح في صدق أن الجستابو لا بد سيعلمون ـ باية حال ـ بوصول بعثته • وبذلك فهو لن يخسر شيئا بل قد يكسب قدرا كبيرا من الوقت • بما ابداه من الصراحة والصدق • ولكنه في الوقت نفسه يلزم جانب الحرص الشديد عندما يقصد فعلا ان يقيم اية اتصالات ولهذا الغرض كانت شروط فرض الظلام الشامل في سويسرا ـ وهي الشروط التي أصر الالمان عليها ـ خير وقاية لنشاطه •

ومهما يكن من أمر فان دالاس عندما وصل وجد قائمة العمل قد أعدت من قبل • فقد كان مكتبه الخاص برئاسة جيروفون جيفرنتز Gaevernitz وجيرهارد فان أركل Arkel ، وكان المكتب الخاص للمخابرات السويسرية الذى اعتمده جيسان على أهبة الاستعداد في انتظار من له سلطة تنفيذية من قبل الحلفاء لاشراكه في خط سير العمليات • وكانت الخطط يشوبها شيء من التعقيد عندما استقر دالاس في عمله • فقد جاء في منتصف تلك الفترة حيث كانت المطاردة العجيبة بين شلنبرج وماسون في الحديثالذى جرى بينهما وكذلك ـ ولو أن دالاس لم يعلم في ذلك الحين ـ حينما قام فابيان فون شلابلندورف بمحاولة فاشلة لاغتيال هتلر في ١٣ مارس سنة ١٩٤٣ لم تنفجر القنبلة التي وضعت في طائرته • وأيضا حين وصل الى مسامع هملر عن طريق شلنبرج • أول معلومات صادقة عن الحركةالتي كانت ترمي الى التخلص من هتلر • حيث علم من شلنبرج أن رجال القيادة ولاسيما فون بوك Bock أوضحوا انهم سوف يعادون هتلر اذا اشترك في حركتهم كل من هملر والمخابرات واذا تعهد هملر باجراء مفاوضات السلم التالية . واحتفظ هملر بهذه المعلوماتريثما تواتيه الفرصة المناسبة

ولابد أن أنباء وصول دالاس وتقدير السويسريين له قد وصلت الى مسامع ماسون وشلنبرج أو تابعيهم خلال اجتماعاتهم • وعلم الالمان بمجيئه والسبب في قدومه ودهشوا لذلك • ثم أصبح دالاس موضع اهتمام كبير لدى هملر الذى قرر انشاء خط مباشر يتصل به • وشجعه على ذلك مابلغه عن انتصارات شلنبرج في محادثته مع ماسون • وفي الوقت ذاته سمع دالاس بعلاقة شلنبرج بماسون وأعرب عن قلقه لرؤساء قسم المخابرات الخاص بالجيش السويسري • ثم أمر المخابرات الامريكية بفرض رقابة دقيقة على أى شيء قد يتسرب من السويسريين الى شلنبرج وتم هذا ولكن بعيدا عن سويسرا • حيث كان للامريكيين عيون داخل مكتب الامن التابع لشلنبرج •

ولكن شلنبرج كان غافلا عن هذه المراقبة غير المنتظرة • وعلى النقيض كان يشعر بأن الموقف فى سويسرا أصبح على خير حال ترضيه • وكان على وشك أن يتقابل مع جيسان . وخيوطه الى السويسريين تسير فى مجراها على أحسن وجه . فلماذا لايجابه الخطر الامريكى وجها لوجه ويختبر دالاس كما يختبر جيسان فى نفس الوقت ؟ فقد يكون شريكا نافعا لهملر اذا آن الأوان لاستبدال هتلر . ولم يكن من الصعب اقامة علاقة بدالاس حيث بدا أنه يستدعى زائريه ويقوم بمباحثات على أن تكون فى اطار من السرية وما جاء بعد ذلك كان أيضا من الاسرار الخفية • فلم يذكر دالاس شيئا وكذلك فعل شلنبرج كما التزم الصمت كل ضباط المخابرات الالمانية السابقون اللذين كانت تلك الشئون من عملهم والذين كانوا يرغبون فى ذكراهم الاحداث السرية فى مذكراتهم (ولو انها ليست فى غاية الدقة)

وكل مانعلمه عما جاء بعد ذلك هو وثيقة نشرتها السلطات السوفيتية فى يولية سنة ١٩٦٠ (فى نيوتايمز عدد ٢٧) كجزء من ملفات النازى التى استولت عليها • ومفهوم الوثيقة انها سجل لاجتماعين عقدا فى سويسرا فى فبراير ومارس سنة ١٩٤٣ حوالى نفس الوقت حينما كان شلنبرج فى سويسرا للاجتماع بجيسان . وكانت الاجتماعات بين دالاس والامير ماكس ايجون فون هوهنلو Hohenlohe أحد كبار العملاء من أدارة مخابرات شلنبرج • وبين دالاس وعميل آخر للمخابرات يعرف باسم « بوير » Bauer • وأقل ما يقال فى محتويات الوثيقة انها غريبة فى نوعها • حيث تشير الى حديث دالاس عن أشياء لا تعكس صورة صحيحة لوجهات نظره • ويعلم ذلك كل من كان على صلة به فى سويسرا • وتشير المحتويات ايضا الى أنه ذكر تعليقات ضد اليهود وضد الالمان المهاجرين • وأنه كان يحبذ عقد سلام على حدوده بين الالمان ودول الغرب• ثم ان هذا الاجتماع حيث ظهر دالاس كأنه مستر بول Mr. Bull قيل أنه عقد فى منتصف فبراير • ولكن التقرير الذى كتب بشأنه قدم الى شلنبرج وكان تاريخه ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٣ ـ أى بعد عشرة أسابيع ـ وهذا تأخير لمدة طويلة لتقرير عن مثل هذا الاجتماع الهام •

ولهذه التقارير ثلاثة تفسيرات ممكنة : فقد تكون ترجمة دقيقة معقولة لما حدث بأن تعمد دالاس أن يستدرج رجل المخابرات ـ وكان هذا يكتنفه شىء من الغموض ـ ويشجعه على الحديث وهو فى ثقة ممن يتحدث اليه ـ أو تكون قد كتبت خصيصا للالمان بناء على تعليمات شلنبرج لتغطية آثاره اذا ما تأزمت الامور • أو تكون التقارير مطبوخة بمعرفة الروس • ولو

أنها لا تبدو كذلك ـ والتفسير الاول أو الثانى هو الاكثر احتمالا • كما جاء فيما بعد فى تعليق صرح به دالاس لأحد كبار ضباط المخابرات الخاصة السويسرية • وبعد قليل من هذه الاجتماعات أخطر دالاس السويسريين بأنه لا يرى حاجة لاقامة علاقات خاصة مع مكتب شلنبرج لانه وجد أن « أى ضابط نازى كبير يمكن شراؤه » • وقد يكون هذا ايضاحا رابعا لذلك التقرير الغريب الذى ارسله الامير الى رئيس المخابرات ـ وهو التقرير الذى هيأ له عذرا مقبولا لاقامة علاقة مع دالاس •

ولكن اهتمام دالاس كان موجها الى ناحية أخرى • فقد تعرف بعد وصوله مباشرة بأحد موظفى الجستابو الالمان سابقا وكان يعمل فى القنصلية الالمانية فى زيورخ ويحمل الرسائل بصفة خاصة بين المتآمرين فى المانيا الذى يعدون الخطط للتخلص من هتلر وبين العالم الخارجى • وكان اسمه هانز جسيفياس Gisevius • وكانت لهما اجتماعات متعددة خلال فترة الظلام فى برن احيانا وفى زيورخ احيانا اخرى حيث رسم جسفياس لدالاس صورة واضحة للموقف • ولكن دالاس لم يكن على يقين من أن هذا ليس الا « دورا آخر يمثله هملر » • وبعد مضى الاسابيع القليلة الاولى حذر جسفياس دالاس من أن بعض الرموز التى كان يستخدمها فى ارسال رسائله الى واشنطن تمكن الالمان من معرفتها • وهنا تيقن دالاس أنه يتوخى الامانة فى عمله • ولم يكن كل زملاء دالاس يشاركونه فى تحمسه لجسفياس فى ذلك الوقت وهكذا بينما كان دالاس يجمع خيوط المؤامرة فى سويسرا ويرسم صورة جديدة للموقف الداخلى تبين لجيسان مظاهر اخرى للسياسة الالمانية بدأت تقلقه كثيرا •

فقد كان يؤمن بالنصيحة القائلة أن من اداد صيد سمكة فعليه أن يفكر بعقليتها • وبدأ يفكر ماذا يصنع لو كان مركز هتلر • وتناول تفكيره ظروف ايطاليا بنوع خاص • وكان من الواضح فى ربيع سنة ١٩٤٣ أن ليس هناك سوى بضعة اسابيع امام الحلفاء ليضعوا اقدامهم على الارض الاوروبية • كما جاءه من المخابرات الايطالية أن هذا سوف يتلوه انسحاب ايطاليا من الحرب • وكان قد بلغه انباء عن أوجه نشاط جراندى وشيانو Ciano فى أسبانيا والبرتغال • وكذلك كان الالمان فى حالة ذعر وأخذوا فى ارسال قوات أخرى شمال ايطاليا : لماذا ؟ فقد كانت الدلائل تشير الى أن سياسة هتلر بدأت تتحول نحو الشرق • ومهما نظر اليها جيسان من أية زاوية كان يرى أن مركز سويسرا فى محور هذه السياسة • فاذا كان هتلر يقصد أن يثبت قدمه فى شمال ايطاليا ـ وكان يبدو كذلك ـ

فلابد له من ضمان مؤخرة جيوشه • ثم أن جيشه الجرار في ايطاليا لابد له أن يعتمد على جبال الالب السويسرية • ولكى يزداد طمأنينة لابد من ادخال مراكز الدفاع السويسرية ضمن اطار نظام الدفاع الالمانى •

وهذا التفكير السابق لارتباط المانيا بسويسرا له معنى عسكرى • ولم يكن له علاقة بسلوك الصحافة السويسرية كما كان يدعي الالمان وكما كان الاعتقاد السائد في سويسرا • فقد كان تفكيرا عسكريا معقولا يتسم بالهدوء • وعلى ذلك رفض جيسان التخلي عن موقفه من حيث الاستعداد رغم كل المجادلات وانواع الضغط المتجدد من ناحية الحكومة ومن الالمان •

وأخذ يجادل فى أن تهديد استقلال البلاد الذى بدأت تخف حدته منذ أن شن الالمان حملتهم على روسيا بدأ يتزايد عندما تراجعت ميادين القتال واصبحت أقرب الى قلب أوروبا •

أخذ جيسان يراقب الحرب فى الجنوب من عدة نواحي • وكانت مخابراته في ايطاليا تسير سيرا حسنا وجاءته أنباء زادت من قلقه • فكان تقدم الحلفاء وما اقترن به من مفاوضات سياسية يسير فى بطء يبعث على الاسى • وكان من الصعب التكهن بالعواقب • ومن وقت لآخر كانت المخابرات تؤكد أن الالمان يستعدون للانسحاب لانهم شعروا بأنهم أضعف من أن يوقفوا سير تقدم الحلفاء • ولكن هؤلاء لم يتقدموا وآثروا البقاء لافساح المجال امام الالمان ليكون لديهم وقت كاف لضم صفوفهم • وكان فى مقدور الحلفاء الزحف نحو روما دون عائق بعد أن نزلت قواتهم فى انزيو فى يناير سنة ١٩٤٤ فلم يكن هناك ما يقف في وجههم خلال تلك الفترة من الحرب • وهذا مثال واحد من الامثلة الكثيرة التى دعت القيادة السويسرية لان تتساءل عن الحكم فى الاعتماد الكثير على قوات الحلفاء فى ايطاليا •

وكذلك كان موقف الاستعدادات السياسية للاطاحة بموسولينى واعلان حكومة بادوليو الحرب على ألمانيا • فقد استغرقت ثلاثة وثلاثين يوما من أول الاتصالات الرسمية الاولى فى لشبونة فى أوائل أغسطس حتى اعلان تسليم ايطاليا فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٤٣ • وكان الالمان على علم بمجريات الامور وجهزوا أنفسهم طبقا لذلك • وهنا أدرك جيسان على مضض أنه قد يضطر للاتصال بقيادة الحلفاء فى ايطاليا اذا ما حاول الالمان التقهقر الى سويسرا فقد كانت حالتهم فى ايطاليا لا تبعث على التشجيع •

وهنا ثانية ـ كما في المانيا ـ استنتج جيسان أنه لابد له من أن يبث عيونه ويقيم اتصالات له في ايطاليا · فقد كان لديه أحد ضباطه الاكفاء ميجر ويبل Waibel رئيس المكتب الايطالى من شعبة مخابراته· وكان ويبل شخصية بارزة فى مؤامرة الضباط سنة ١٩٤٠ وعليه أن يلعب دورا هاما في وضع حد للحرب في ايطاليا · وصدرت اليه الاوامر مؤقتا أن يراقب كل شيء في الجنوب مراقبة دقيقة · وكان من المتوقع العمل على انقاذ موسوليني ولابد من اتخاذ الحيطة من هذه الناحية · ولكن الشهور مرت والحلفاء يزحفون فى شبه الجزيرة فى بطء أليم · واتضح لجيسان أن الحلفاء ليسوا على استعداد لانهاء الحرب واغتنام الفرص التى اتيحت لهم ـ على الاقل فى الجبهة الحربية ·

وفى نفس الوقت بدأت جبهة اخرى تكشف عن نفسها · ولكنها لم تتسم بطابع الجد ولم تكن معقولة اذا ما قورنت بما مضى من الحرب · فقد فشلت المحاولة لقتل هتلر فى مارس أثناء عودته من الجبهة الشرقية بالطائرة · ولكن المعارضة الالمانية استمرت فى الحديث ورسم الخطط وتدبير المؤامرات · حتى صيف سنة ١٩٤٣ كان هذا مادة طريفة للحديث بين كبار الضباط والدبلوماسيين وكبار الموظفين يتناولون منه أفضل الوسائل لازالة مقاليد الامور من يد الفوهرر · وقيل فى برن أن سكان المدينة كلهم تقريبا قد اشتركوا فى الحديث عن هذا السر بناء على الطريقة العلنية التى تحدث بها المتآمرون الالمان الذين اتصلوا بدالاس أو بالبريطانيين · حيث كان الكلام فى الاماكن العامة وعن طريق التليفونات فى العاصمة السويسرية ·

وحقا كان هذا فيه شيء من المغالاة ولكنه كان ينطوى على شيء من الصدق · فقد كان كبار المسئولين من المشتركين فى المؤامرة يطيلون من القيل والقال فى شيء كثير من العلانية · ولكن ما كان أمرا فريدا حقا هو أن أحد الشخصيات الرئيسية فى المؤامرة وممن وقع عليهم الاختيار ليكونوا وزراء في الحكومة المقترحة يتوجه الى هملر ويناقشه فى موضوع المؤامرة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤٣ أى قبل تسليم ايطاليا بأسبوع · ثم يحرضه بأن يعرض عليه القيام بدور الفوهرر أو ما يماثله من مركز له طابع الديمقراطية · وكان السبب فى ذلك واضحا معلوما يعيد الى الذاكرة ما وصل الى شلنبرج من معلومات من قبل بشأن فيلد مارشال فون بوك أحد قادة وهرماخت واشتهر بأنه أكثرهم استقلالا فى الرأى

واشدهم حدة فى الذهن · والذى اخطر المتآمرين فى برلين أنه مستعد للاشتراك معهم اذا كانت المخابرات طرفا فى المؤامرة لان القيادة العليا بمفردها لا تستطيع التخلص من هتلر ·

وهكذا حتى مستهل خريف سنة١٩٤٣ كان هملر ونائبه جنرال وولف ورئيس مخابراته شلنبرج لا يعلمون بأمر المؤامرة فحسب بل اجتمعوا ببعض المتآمرين البارزين ولكن هملر سمح لهم بمواصلة نشاطهم ـ لماذا ؟

فقد شعر هملر فجأة ـ ولاول مرة فقط خلال قيامه بعمله ـ بأنه وهيئة المخابرات افراد لا غنى عنهم · حيث سعى المعارضون يطلبون العون منه ويقترحون أن يكون هو الزعيم الجديد · ورفض رجال القيادة القيام بعمل عدائى ضد هتلر مالم يكن طرفا فى هذا العدوان · كما علم من اصدقائه فى السويد أن الحلفاء على استعداد لعقد صلح معه وليس مع هتلر · وانه لدى الحلفاء موضع تقدير واحترام وانهم يخشون جانبه باعتباره الوارث الوحيد لهتلر· وفهم هملر أن مثل هذا الموقف لايستدعي اتخاذ قرارات عاجلة بل عليه أن يتناول الامور فى شىء كثير من الدقة والاحكام ريثما تواتيه الفرصة المناسبة ·

ولكن خصوم هتلر وافضلهم ـ ركبوا متن الشطط فى تفكيرهم وكان عليهم أن يدفعوا الثمن غاليا · فقد رفضوا الاخذ بمنطق جدال جيسان ـ وهو الجدال الذى كان اقوى دعامة تمسك بها لينين للقيام بالثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ · وذلك لان المتآمرين من الضباط الالمان والمدنيين لم يتقبلوا ما استنتجه جيسان من أنه لن تكون هناك حركة فعالة ضد هتلر الا بعد أن تقاسى الجيوش الالمانية الاهوال فى ميادين القتال ولا تمنى بالهزيمة فحسب بل تتوالى عليها النكبات · وكان هذا الخوف من نتائج أعمالهم سببا فى تأخير المحاولة للاعتداء على هتلر لمدة عام خشية على أنفسهم وعلى سير الحرب وما قد ينجم عنه من الكوارث وأخذ الضباط يجادلون أنه لن تكون هناك حاجة لهزيمة عسكرية ووافق هملر على ذلك كما وافق الاحرار والكاثوليك والاشتراكيون ·

وكان أملهم أن يتمكنوا من عقد صلح منفرد مع دول الغرب اذا اتيح لهم الاطاحة بهتلر ونفوذه تم بمساعدة البريطانيين والامريكيين يتسنى لهم أن يوقفوا زحف الروس الى أوروبا الوسطى والمانيا · ولكن فى

هذه المرحلة ظهر اختلاف عجيب بين المعلومات التي يتلقاها دالاس وبين التي تصل الى السويسريين . وقد يكون من الصعب في ذلك الوقت التوفيق بين هذه المعلومات المتناقضة ولكن اذا نظرنا الى الماضي يتضح لنا أنها تعكس التيارات المختلفة والسائدة في المانيا . فكانت تبلغ مسامع دالاس الحركات الاساسية الموجهة ضد هتلر وشبكة المعارضة المحكمة الاطراف ذات النفوذ ولواسعة لنطاق . وهذه بطبيعة الحال غيرت وجهات نظره نحو الموقف . وأما من جهة السويسريين فقد كانت المعلومات تأتيهم من مقر قيادة الفوهرر حيث كانت دلائل قليلة على الفشل في الحرب مما يبعث على الدهشة . وحيث تركز التخطيط والمناقشات حول خير الطرق لاستغلال « قلعة أوروبا » . ومن ناحية دالاس كانت المعلومات تؤكد الخلافات الداخلية والانقسامات بين حزب النازي والقيادة العليا وبين المخابرات وفريق الجستابو . وكان تأثير هذه التقارير بوجه عام هو ابراز نواحي الضعف في الحكم النازي . وأما السويسريون فقد وجهوا عناية كبرى الى ماسوف يصنعه الالمان في أوروبا : على الجبهة الايطالية وفي فرنسا والبلقان وربما سويسرا أيضا . فكان كل اهتمامهم بمظاهر القوة وليس بأوجه الضعف .

وكانت صورة الموقف بوجه عام كما يراها جيسان لا تبعث على الرضا كما بدت في نظر دولس كما لا تبعث على الوجوم كما بدت لقوات الحلفاء الذين كانوا يحاربون أجهزة الحرب الالمانية المنيعة وجها لوجه . ولكن كان على جيسان أن يواجه تعقيدا آخر . فقد كان مستشارو مخابراته منقسمين على أنفسهم في تقدير التهديد الالماني . وأصر مكتب ماسون - وكان لا يزال على صلة بشلنبرج - على أن فترة الخطر على سويسرا قد انتهت اطلاقا . ولن تكون هناك محاولات المانية أخرى لغزو أو احتلال سويسرا . ولم يقبل جيسان هذا الرأى . وظل هو وجونارد أحد قادته من الشبان الاكفاء على اعتقادهما بان سويسرا قد دخلت أكبر مراحل الخطر في صيف سنة ١٩٤٣ بعد سقوط موسوليني وتحويل الاوضاع بمعرفة حكومة بادوليو .

وعند ما قربت سنة ١٩٤٣ من نهايتها بالانتصارات الروسية الرائعة وانهيار الالمان المذهل في تونس وزحف الحلفاء البطيء المؤلم في ايطاليا . كان جيسان في قلق متزايد حول مشاكل جيشه الداخلية حيث دبت عوامل التعب والضجر في جنوده المرابطين في حصن الجبل يراقبون الحدود ولم يستجد شيء له تأثير مباشر على الموقف . وعند ما بدأ الخطر

الالمانى يبدو فى صورة حقيقية تخلت القوات عن مراكزها واختل النظام وازدادت مظاهر الاستياء واعتبر جيسان هذا الوضع أنه يشكل خطرا مزدوجا . وذلك لان الالمان اصبحوا يشعرون ثانيا بحاجتهم للاشراف التام على سويسرا وقد ينتهز الالمان فرصة تساهل الجبهة الوطنية لاستغلال التدهور الادبي الذى أصاب قوات الدفاع السويسرية ويلقون بضربتهم من الداخل وهى فرصة طالما ترقبوها .

واراد الجنرال مرة ثانية أن يظهر للجمهور حقيقة موقف البلاد بأن أصدر أوامره بالتعبئة العامة فى يولية سنة ١٩٤٣ ولكن الحكومة عارضت فى ذلك معارضة شديدة . وانبأه بيليه جولاز فيما بعد بأن رفض الحكومة كان «لأسباب اقتصادية» . وفهم جيسان من ذلك أن رجال المال وأصحاب الصناعات قد عارضوا التعبئة معارضة قوية مما زاد فى عوامل قلقه حول حالة الجبهة الوطنية . فقرر فى اكتوبر اتخاذ اجراءات شاملة لاقرار النظام فى جيشه على الاقل . وبعد فترة طويلة من النزاع والخلافات المستمرة مع قائد السلاح الجوى السويسرى كولونيل باندى عقد مؤتمرا للقادة وأعلن فيه أنه سوف يستبدل باندى بضابط آخر يفوقه لياقة ومناسبة وان اثنين من قادة الفرق المتقدمين فى السن سوف يستبدلان بآخرين اصغر منهما سنا . ولم يكن من السهل على باندى أن يقبل قيادة صغيرة معروفة فكان كارها لها وغضب ولم يحسن القيام بها . ولكن جيسان أصر على تنفيذ برنامجه لتنظيم وتنسيق قواته وجعل السلاح الجوى اكثر ارتباطا بالجيش حيث استولت على مشاعره فكرة الخطر المتزايد الذى قد تسفر عنه مراحل الحرب الاخيرة . واذا كان هناك من اعضاء الحكومة أو من ذوى المناصب العالية فى الجيش من يرتاب فى النتائج التى قدرها جيسان (وكان هؤلاء كثيرون ومن ذوى النفوذ) فقد اصيبوا بصدمة لما تبين لهم ما يبرر قلق جيسان وعند ما انقضت الجيوش الالمانية على المجر واستولت عليها فى صباح ٢١ مارس سنة ١٩٤٤ .

وفى نفس الوقت استمر جيسان فى مراقبة سير أعمال دالاس باهتمام متزايد . ومتى تستطيع مهمته أن تؤتى أكلها ؟ لانه بدأ أن يعتمد على دولس اكثر من ذى قبل . وكانت الانباء الواردة من المانيا تدل على أن هناك تطورا يشبه السباق بين الاتجاهات المعارضة ـ وبين انصار هتلر وخصومهم ـ وكان اتباع هتلر فى ازدياد كبير (وقد يزداد عددهم فى عشية أو ضحاها اذا احرز نصرا آخر مثل احتلال المجر) . وظل هتلر على اعتقاده بأنه يستطيع أن يفرض شروطا على دول المغرب كثمن لانهاء

الحرب . وفى هذه المرحلة لم يكن جيسان يميل الى الحط من شأن هتلر ومن قدرته الخفية . وتساءل هل يستطيع خصوم هتلر أن يسبقوه قبل أن يقدم على مغامرة يائسة اخرى قد تتناول سويسرا فى طريقها ؟ وكان الجواب على ذلك أو على الاقل جزء منه فى أيدى دالاس الذى كان على اتصال دائم بالتيارات المتحركة فى محيط المتآمرين ضد هتلر .

ولم تكن يسيرة تلك المهمة التى اضطلع بها دالاس . وفى لندن ووشنجطن لم يكن هناك عطف كبير على المتآمرين . وحتى ثقة قليلة فى مقدرتهم على تنفيذ خططهم . والى جانب ذلك كانت تحوم الشبهات حول من تولوا شئون المعارضة . واذا اعتبرنا المتحدثين بلسان المتآمرين واتصالاتهم الاولى بدالاس لم تأخذنا الدهشة بما أبداه تشرشل وروزفلت من التحفظات ازاء الاطاحة بهتلر المقترحة . وكانت الخطط والمقترحات الاولى قد بنيت على أساس ثابت بغرض أن القادة يوافقون على أن الالمان والحلفاء الغربيين يتخذون سببا مشتركا للوقوف فى وجه تقدم الروس . وكان آلان دالاس يبذل مجهودا أكثر من غيره لكى يدرك القائمون بحركة المقاومة الالمانية انها ليست سياسة عملية الا تتفق بريطانيا وفرنسا مع المعارضة ضد هتلر على حساب التحالف الروسى .

وعند ما أعلن تشرشل وروزفلت صيغة « التسليم دون قيد أو شرط » فى يناير سنة ١٩٤٣ فى الدار البيضاء كان ذلك صدمة لممثلى جواسيس الالمان ومثار القلق بينهم . واتصل هؤلاء على وجه السرعة بدالاس مباشرة وغير مباشرة . وجاء جسفياس ليحتج وكذلك فعل آدم تروت زوسولز Adam Trott Zu Solz من أكبر الاشتراكيين الاحرار من خصوم هتلر الالداء . وظن أن الوقت لا يزال يسمح باعداد رد اشتراكى على الدعاية الشيوعية الآتية من موسكو وان الغرب لا يزال يستطيع أن يكسب طبقة العمال الالمان لاغراضهم الديمقراطية . ولكن فى كل هذه المقترحات التى عرضت على دالاس ـ حتى جاء اليه آخرها فى مايو سنة ١٩٤٤ ـ كان افراد المعارضة الالمانية ـ فريق اليمين وفريق اليسار ـ يفرضون أنهم سوف يوفقون لعقد صلح مشرف مع دول الغرب . ومع حلفائهم الجدد يستطيعون البت فى المسألة الروسية .

ورفض دالاس جميع المقترحات التى وصلت اليه أو الى مساعديه المقربين . والتى كانت ترمى الى أن هذه الاجراءات من الممكن أن تتم دون اشتراك الروس . وأصر على أن الحلفاء لن يتوقفوا قبل أن يحرزوا نصرا

حربيا شاملا • ولن يكون هناك تفكير فى أى حل آخر • وكان فى نفسه انطباعات لما ظهر من صحة النتائج التى توصل اليهـا جيسـان وهى أن القادة الالمان لن ينقلبوا ضد هتلر الا اذا نكبوا بالهزيمة فى ميدان القتال• وسارت الحرب فى طريقها حتى وصلت الى هذه النقطة الآن • وكان القادة صادقين فى القيام باعمالهم • موالين لهتلر فى كل حملة ناجحة شنها • على وارسو وأوسلو ولاهاى وبروكسل وباريس وبلغراد وأثينا وبوخارست وصوفيا وبودابست • وقاموا بالزحف بجيوشهم على الاتحاد السوفييتى طالما توقعوا انهم يسيرون نحو النصر • ولكن عند ما اختفت الانتصارات واصبح التقهقر أمرا لازما كان قسم الولاء لهتلر شيئا لا يحتمل بعد ذلك• ولم يترددوا عند ما وجدوا بدلا من الانتصاراتالوانا من الخداع والهزيمة• ولكن دالاس ظل ثابتا • وفقط فى آخر لحظة قبل محاولة الاغتيـال فى ٢٠ يولية عند ما أوشك ستوفنبرج على وضع القنبلة • وافق المتآمرون مع الاذعان فى نفس الوقت الى الحلفاء الرئيسيين الثلاثة• واستغرقت الصيغة التى أصر عليها دالاس عدة شهور قبل أن تقبل على أنها الصيغة الوحيدة الممكنة •

وبطبيعة الحال كان دالاس باصراره على رأيه سببا فى فساد خطط هتلر الذى ظل مختفيا وراء الستار ولكن مخابراته كانت رقيبة على كل مشترك فى المؤامرة ممن تحوم حولهم الشبهات • وكان هذا من السهل عليه بعد أن جاءته المعلومات من المتآمرين • وأبدى هملر استعداده لتولى رئاسة حركة المقاومة اذا ما قبلت دول الغرب شروط المتآمرين • وكان يشعر بالسعادة من حيث موقفه فهو الرابح سواء كسب المتآمرون أو خسروا • فكما أن القادة تمسكوا بانهم لن يستطيعوا القيام بثورة ناجحة ضد هتلر الا بمساعدة هملر والمخابرات• فقد ادرك هملر أن هتلر لن يستطيع اخماد مثل هذه الثورة دونمساعديه وكل ما كان يجبعليه هو أن ينتظر ويرقب الموقف ويستعد للعمل مع أحد الجانبين •

ولكن أخيرا عندما أذعن المتآمرون لضغط دالاس المستمر بأن عليهم أن يقبلوا شروط التسليم دون قيد أو شرط سواء فى الشرق أو فى الغرب ادركوا أن هملر والمخابرات لن يكونوا فى صفهم • وقد يثار الجدل حول أن هذا الموقف مما يؤدى الى تصدع فى أركان المؤامرة قد يؤدى بها الى الانهيار • وان بوك Bock والآخرين كانوا على حق فى اعتقادهم أنه لن تكون هناك ثورة ناجحة ضد هتلر دون مساعدة هملر • وقد يذهب البعض بعيدا بقولهم أنه رغم المحاولة الفاشلة لقتل هتلر فأن تعاون هملر

مع المتآمرين لا يزال صامنا لنجاح المؤامرة • وقد يكون الامر كذلك • ولكن قد يؤدى ايضا الى فك عرى التحالف بين بريطانيا وامريكا وروسيا ويترك لحزب النازى وللقيادة العليا موقفا يحتفظون فيه بميزان القوى فى أوروبا • والسبب فى أن هذا لم يحدث يرجع – الى حد بعيد – الى اصرار دالاس • خلال فترة الاستعداد – على صيغة التسليم غير المشروط والتى لم يرغب القوم فيهـا • وكان الوحيـد تقريبـا • بين زملائه فى الادارة الاستراتيجية والافراد البريطانيين المعارضين • الذى يقر هذه الصيغة •

واذا كان دالاس يفعل ذلك فماذا كان يحدث ؟ هل كان يقدر للمؤامرة النجاح ؟ والجواب على ذلك كان فى ايدى رجل واحد ليقوم بالمؤامرة أو يتخلى عنها • وهذا هو السبب الحقيقى فى اخفاقهـا • وكان همـلر هو الوحيـد الذى يستطيع تغيـير مجراها • ومن الادلة الموجودة الآن فى الملفات السرية السويسرية ما يؤكد أنه حتى لو كانت قنبلة استوفنبرج قد قضت على هتلر لاستولى هملر على مقاليد الامور بعده وواصل الحرب مع المتآمرين وأخذ فى مفاوضة الغرب والشرق على عقد صلح منفرد • وعلى ذلك يكون مما يدعو كثيرا الى الشك هل كانت المؤامرة – حتى لو قدر لها النجاح – تكسب شيئا غير زحزحة هتلر من منصب الرئاسة • ومن الوجهة السياسية قد يكون نجاح المؤامرة سببا فى اضطراب الموقف أكثر من صيغة التسليم غير المشروط • لان محاولة اغتيال هتلر بقيت الى النهاية مؤامرة صممت على انقاذ المانيا من احتلال روسيا لها وانقاذها من هزيمة شاملة فى الحرب• وبطبيعة الحال كانت هناك فئة قليلة من المفكرين مثل آدم تروت Trott ممن كانت لهم نظرة بعيدة • ولكنهم كانوا قليلين ولهم نفوذ ضئيل على السياسيين والقادة• ولكن عند ما فشلوا كان على الجميع أن يتكبدوا الثمن الباهظ الذى دفعهم هتلر لتكبده • ولا تزال المانيا الى اليوم تدفع ثمن الفشل وخسارة جيل من الزعماء •

أخذ جيسـان ورجـال المخـابرات السويسرية يرقبون سير المؤامرة باستنكار متزايد ومشاعر تبعث على الفزع• فقد تميز المتآمرون بالسذاجة والاهمال ويؤدون مهمتهم علانية حتى بدا للسويسريين الذين يلتزمون جانب الحرص أنهم يساقون الى الموت رغبة منهم وكأنهم لا يقصدون النجاح فى مهمتهم أو حتى البقاء على قيد الحياة • وبدا أنه ليس هناك ايضاح آخر للتفاخر بمؤامرتهم دون اكتراث فى برن وفى ألمانيا ذاتها • وليس السر فى سبب فشلهم وانما كيف تسنى لهم – وهنا الايضاح ثانية كغيره من معظم التفسيرات التى تناولت هذه المأساة أن ينسبوا الى هملر ذلك

الاستغلال الذى يدل على الغباء ويؤدى الى الهلاك • فقد كانت تدبيراته فى الخفاء كفيلة بسلامة المتآمرين حتى يحين لهم الوقت لمهاجمة هتلر الذى قدر له البقاء واختار هملر الوقوف الى جانبه • ومن ذلك الحين اصبح هتلر لا يستطيع القيام باعباء الحكم مالم يعضده هملر • وادرك هتلر وتابعوه هذه الحقيقة • ولم يكن هملر موضع ثقتهم بل كانوا يكرهونه ولكن لا مناص من الاعتماد عليه • وذلك لفهمهم أن فى يده ميزان القوة فى محيط حزب النازى ولانه يشرف على أجهزة المخابرات •

وعلى النقيض من هتلر لم يكن هملر يمتاز بقوة العزيمة ولم يكن ـ حتى من النادر فى رجال السياسة ـ زعيما على استعداد لاتخاذ قرارات • وكان يشغل منصبا رئيسيا لا يمكن مهاجمته•وفى استطاعته أن يملى سياسته• ولكنه لم يصنع شيئا • وكان هتلر هو اليد العاملة • حيث اسند اليه القيادة العليا لجيش المانيا الوطنى • كما كان هتلر هو الذى صب جام غضبه وانتقامه على كل من اشترك أو حامت حوله الشبهة فى الرغبة فى الاشتراك فى المؤامرة على حياته • وقام هملر فقط بدور رئيس منفذى الاعدام فى أولئك الذين وضعوا ثقتهم بين يديه بمثل ذلك التهور • ولكن كان حسن طالع هملر ـ ذلك الحظ الذى لا يكاد يصدقه العقل ـ هو الذى أخرجه من بحر دماء القصاص الذى اعده لهتلر أشد قوة لا يتحداه أحد بوصفه البديل الوحيد لهتلر طالما لم تسلم المانيا دون قيد أو شرط •

ولكن الفوهرر وهملر سرعان ما تنفسا الصعداء فيما بعد • خلال سبتمبر سنة ١٩٤٤ عند ما أدركا تلكؤا ملحوظا فى هجوم الحلفاء فى الغرب وفى ايطاليا كما أن الضغط الروسى فى الشرق قد خفت وطأته • لان كلا من الفوهرر وهملر اتفقا على الحاجة العاجلة لكسب الوقت ولو أنهما (والضباط الكبار المرتبطين بالمعسكرات التابعة لكل منهما) اختلفوا فيما بينهم حول ماذا يصنعون فى ذلك الوقت المكتسب •

وأصبح هتلر مشغول البال حول ان يكون مثله كمثل فردريك الاكبر• حيث لم يكن التكتل الطاغى للحلفاء ضد فردريك قد تفكك حين ظن فردريك أيضا تمكن من اشاعة القلق بين صفوف اعدائه وبلبلة أفكارهم بمواصلة الثبات والاستعداد للمهاجمة • ولذلك تمكن فردريك بما يقل عن أربعة ملايين من البروسيين أن يجعل بينه وبين اثنين وخمسين مليونا من الاوروبيين مسافة يطمئن اليها • وظن هتلر أنه فى وسعه أن يقوم بنفس العمل • وقدر أنه بهذه الطريقة يتوقع الحلفاء أنه تراجع الى مراكز دفاعية ولكنه لا يزال فى استطاعته أن يباغتهم • ورأى أن أفضل وسائل

الدفاع من الوجهة الاقتصادية أن يلقى الالمان ضربتهم فيآخر لحظة يتوقعها الحلفاء • وفي غمار هذه المعارك قد يحدث شيء يؤدي الى تفتيت هذا التحالف غير الطبيعي بين الانجلو سكسون والروس •

وكذلك هملر كان يأمل في شيء قد ينقذ المانيا واستعد للمساهمة في اتمامه • وتوقع أن موت هتلر قد يؤدي الى الحل اللازم لتكتل الحلفاء • حيث كان على يقين من بواطن الامور بالرغم من التأكيدات الاخيرة التي تلقاها آلان دالاس في برن من أن ستوفنبرج قد وافق على تسليم الجيش الالماني بوجه عام الى الروس وكذلك الى الحلفاء • فكان يعلم أن جحافل الجيوش المرابطة في الشرق لن تسلم طوعا للروس طالما في استطاعتهم أن يشقوا طريقهم عائدين الى احضان القوات الغربية • ولكن هذا يعد من الوجهة النظرية لغاية ذلك الحين لان هتلر كان لا يزال على قيد الحياة ويبدو أنه سوف يظل كذلك •

ولكن هملر ورجال مخابراته المقربين لم يكونوا على ثقة بخطط هتلر الهجومية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بمجموعات الريخ لمدة طويلة على قدر المستطاع • وبدأوا في دراسة ما يمثل شبح الخوف على أبواب ديارهم — وهو السويسريون وقلعتهم — فترة طويلة • ويقدرون في عناية الميزات والامكانيات هنالك وعلى الاخص فيما يتعلق بالمنطقة المجاورة التي تحت اشراف الالمان : وهي الغابة السوداء وآرلبرج وجبال بافاريا وبرنر ودولوميتس وكل هذه قلاع قد أعدتها الطبيعة ومن العبث عدم استخدامها كما نال السويسريون نصيبهم من قبل • ولم يكن هملر أول من فكر على هذا النحو . فان مدير ادارة التيرول The Gauleiter of the Tyrol × سبق أن دبر خطة لتحصين الجبال وجعلها منيعة ضد الهجوم • ثم ارسل الخطة الى هتلر ولكنها لم تعرض عليه لانه كان يعتبر أن كل اقتراح يستند الى استراتيجية دفاعية ليس الا دلالة على الخذلان •

ولكن المغزى الظاهر كان ملموسا في مناقشات هيئة قيادة الالمان في ايطاليا حيث لم يعتبروا أنفسهم جيشا لحقته الهزيمة • وبذلك ارتفعت روحهم المعنوية • واستمروا يمثلون اجهزة حربية هائلة قوامها عشرون فرقة — هي خير ما لدى القيادة العليا • وعندما بدأت القوات في التقهقر شيئا فشيئا أخذ يساورهم في أغلب الاحيان هل تتمكن القوات الالمانية

× GOULEITER تطلق على من يتولى ادارة ولاية في حكم النازي–معجم ويبستر ص ٦٠٠

فى ايطاليا من الاستيلاء على المواقع السويسرية • ودارت بينهم المناقشات حول أن هذا الوضع سيكون درعا واقيا أمام هجمات الحلفاء • وانهم يستطيعون الصمود هناك أمام أعدائهم •

ولم تسفر تلك المناقشات عن شيء ثابت أو حاسم • فقد وضع بعضها على الورق • وحتي صيف سنة ١٩٤٤ لم يتخاوز حد الكلام • بيد أنه فى نهاية سبتمبر توقف زحف الحلفاء فى الغرب كما فشل هجوم الكسندر فى ايطاليا فى محاولة اختراق صفوف الالمان بالرغم من وجودهم على مقربة منها • وهنا آن الاوان لهتلر مرة اخرى • فقد وصل القاء القنابل على لندن اقصى مداه • وكان هتلر مؤمنا بنتيجة ذلك • ثم أن الحلفاء أتاحوا له فرصة لجميع صفوفه ومعاودة الهجوم • ولكن الامر كان اكثر من مناقشات داخلية لان نتيجة سير الحرب في المستقبل سوف تتقرر بين اراء هتلر وما يراه هملر • وكان تفكير هتلر سببا فى خسارته •

وكان جنرال كارل وولف ـ الساعد الايمن لهملر ـ رئيسا للمخابرات فى الجبهة الايطالية وكان هناك غيره ممن يفكرون مثله في النمسا وفى التيرول الايطالية • وكانت القوات الالمانية فى ايطاليا قد زيدت الى ثلاث وعشرين فرقة من الالمان بما فيها وحدات البانزر وجنود المظلات ترتبط بها أربع فرق ايطالية • وفى النمسا كان ما يقل عن عشرين فرقة لا تشترك فى القتال مؤقتا • والآن بعد أن اتم العام دورته وبعد أن فشلت المؤامرة على هتلر ولم يوفق فى هجومه على العدو ـ وكان ذلك يعد حلا للموقف • اصبح من المستطاع الحديث حول خلق « قلعة أوروبا » بصورة واقعية وفى داخلها تستطيع قوات القيادة الالمانية الصمود انتظارا لتفكك تكتل الحلفاء • ولكى تكون هذه القلعة ذات أثر فعال لابد أن تضم قلعة الجبل السويسرية • وكان الالمان متفوقين على المحاربين السويسريين بنسبة٦ : ١ • فاذا استطاعوا احتلال ممرات الالب بانقضاض مفاجيء تمكنوا من اطالة زمن الحرب اشهرا ان لم يكن لمدة سنتين مع كل الاحتمالات السياسية التى قد تطرأ بعد ذلك ـ لماذا لم يحاول الالمان ذلك ؟ لقد فعلوا ولكنهم توقفوا بعد أول تدخل سويسرى مباشر فى سير الحرب •

ولابد لنا من العودة مرة أخرى الى مقر قيادة جيسان• فقد اذاع الراديو الانباء الاولى عن نزول الحلفاء فى نورماندى صباح يوم ٦ يونية سنة ١٩٤٤ • وكان بمثابة اغاثة لجيسان أكثر من أن يكون مفاجأة له • حيث

بدت عليه مظاهر الابتهاج والاهتمام وهو يحيي موظفيه . وأمر بالرحيل فورا الى العاصمة حيث كان على استعداد لهذه اللحظة . وسر أشد السرور لان الحلفاء ألقوا ضربتهم اخيرا ولكنه كان على حذر من الاخطار التي قد تستجد مع هذا التطور الجديد . وكان الحرب لا يزال بعيدا عن الحدود السويسرية . ولكنه كان يتوقع أن تقترب من سويسرا مما يشكل خطرا عليها في وقت قريب . وادخل فى اعتباره التورطات الاستراتيجية والفنية فى هذه المرحلة الجديدة من الحرب . لان كلا من الالمان والحلفاء قد يلجأوا الى اتخاذ اقصر الطرق للاستيلاء على مراكز منيعة أو لتجنب الوقوع فى أيدى العدو . ثم أن الجسور المقامة على نهر الرين فى بال تشكل هدفا يلفت انظار القوات المتقهقرة أو الجيوش المطاردة بنوع خاص . فأراد جيسان أن يكون مستعدا لجميع الاحتمالات ولو أنه لغاية ذلك الوقت كان الخطر من قيام الالمان بغزو شامل أو احتلال على نطاق واسع قد خفت وطأته لان القوات الالمانية كانت تعمل كلها فى جميع الجهات .

ولكن جيسان لم يكن يرغب فى المخاطرة فى هذه اللحظة الاخيرة حيث كان مقتنعا بأن سويسرا مدينة بمناعتها ضد الهجوم لمواصلة تدعيم مراكز الدفاع ذات الاثر الفعال والتى كانت اداة ارهاب جعلت هتلر يخشى بأسها وينأى عنها طيلة هذه السنوات . وعلى ذلك عاد الى برن وهو على يقين من أن الحكومة لن تتردد فى تلبية طلبه بشأن التعبئة العاجلة لقوات الحدود والاستعداد لتعبئة أخرى واسعة النطاق اذا لزم الامر . وقبل أن يتوجه جيسان الى الحكومة جمع كبار ضباطه وأوضح لهم الاجراءات التى يقترح اتخاذها . ونصحهم بأن يكونوا على حذر . وكانت هناك حلقة من التشاؤم نوعا ما حول اصراره على أن سويسرا تتخذ موقعا وسط الرقعة التى يقترح الالمان اقامة « قلعة أوروبا » عليها . ووافق كبار الضباط واقتنعوا بأن سويسرا قد دخلت مرحلة حاسمة من مراحل دفاعها . ثم غادر الجنرال كبار ضباطه ليقدم الى الحكومة طلباته بشأن التعبئة الجزئية. وظن هو وضباطه أن المسألة اكثر من أن تدخل فى نطاق الرسميات ولن تستغرق بضع دقائق لتبت فيها .

وبينما كانت الوزارة الفدرالية تنظر فى الطلب.واصل الجنرال واركان حربه الاستعدادات العاجلة فى القصر الفدرالى . وكانت الاجراءات جاهزة للتنفيذ بمجرد تصديق الحكومة عليها . ولكن الدقائق مضت وتلتها الساعات . فأصبح جيسان فى حال من القلق وسادت مظاهر الحيرة بين أركان حربه . واخيرا استدعى جيسان لمقابلة كوبلت رئيس الادارة

العسكرية ــ ولم يعد هناك صديقه القديم مينجر ــ وعند ما قدم الجنرال طلبه بعد بضع ساعات أيده كوبلت تأييدا تاما وتعهد بتقديمه الى الوزارة ولكنه غير رأيه بعد مناقشة الوزارة فقد شارك الحكومة فى رأيها • اذ تعتبر أن حتى التعبئة الجزئية أمر لا لزوم له وانها سوف تكون مثارا « لسوء الفهم » بين المواطنين •

ولكن ما هى الخطوة التالية بعد ذلك ؟ وليس فى الدستور السويسرى دليل واضح حيث تقول المادة ٢١٠ فقط « للحكومة أن تأمر بتعبئة وحدات اخرى من الجيش بناء على طلب الجنرال » • وماذا يحدث اذا لم تصدق الحكومة على طلب الجنرال ؟ فأما جيسان فقد رمق كوبلت بعين الشك متسائلا هل ستعقد الحكومة جلسة على الاقل لمناقشة رأى قائدها أولا • وهنا أوضح كوبلت فى اختصار أن الحكومة قد اتخذت قرارها وانها سوف تتحمل المسئولية كاملة بعد ذلك • وهى لا ترغب فى سماع وجهات نظر الجنرال • بعد ذلك عاد جيسان الى هيئة اركان حربه وأوضح ما حدث أمام الضباط الذين كانوا فى انتظاره والذين لم يصدقوا حديثه •

بيد أن جيسان كان لا يزال يعتقد أنه لابد من فعل شىء حاسم يكون له وقع فى قومه وفى جيرانهم الالمان يوحى بان اوجه الدفاع السويسرية لا تزال على أتم استعداد • وبناء على ذلك اعاد كتابة طلبه الى الحكومة وارسله الى برن فى اليوم التالى ٧ يونية • ومرة اخرى توجه مع اركان حربه لزيارة كوبلت . فأعاد هذا ذكر الاسباب التى دعت الحكومة لرفض رأى الجنرال • وقال أن نزول الحلفاء فى نورماندى يشكل خطرا متزايدا على أمن السويسريين على أية حال • وأخذ كوبلت فى مناقشة الجنرال حول بلبلة أفكار الالمان • وان الحكومة تشعر بالقلق حول ما قد يصيب البلاد من الصدمة النفسية والنتائج التى قد تسفر عن أثر التعبئة المفاجئة •

واجاب جيسان بأن هذا هو قصده بالذات ــ ان البلاد فى حاجة الى مثل هذه الصدمة لكى تكون على وعى تام بالاخطار التى تحيط بالموقف • ثم اشار الى الموقف فى ايطاليا والى الامر الواقع وهو أن الممرات السويسرية اصبحت المسالك الوحيدة التى تتاح للجيوش الالمانية على الجبهة الجنوبية • وحذر ــ بناء على معلومات سرية ــ من استمرار العداء بين زعماء النازى والسويسريين • وكرر اعتقاده فى اهمية استعداد سويسرا واتخاذها موقف الارهاب • وطالبه ثانيا بالتعبئة العاجلة لقوات الحدود • وأيده

زملاؤه فى وجهة نظره ولكن بدون جدوى • فقد اجاب كوبلت بأن الحكومة الفدرالية مصممة على رأيها • وانه ليس هناك خطر عاجل وبالتالى لا حاجة لهذه التعبئة •

واصر جيسان على موقفه • وكل من يلقى نظره على عناده هذا الذى ضاق به المجلس الفدرالى يخيل اليه أن جيسان فى ذلك اليوم استطاع أن يستشف ما وراء الافق ويقرأ افكار كل من هتلر وهملر • وفى ١٠ يونية بعد عقد اربعة اجتماعات وتأخير خمسة أيام اجتمع المجلس الفدرالى ثانية ووافق على التعبئة التى طلبها جيسان ولكن ليس بصورة عاجلة • وبذلك اختفى الاثر الذى اراد جيسان أن يتركه داخل الوطن وخارجه •

ولم يكن هذا كل ما فى الامر فأن ما حدث القى ضوءا على العلاقة بين الحكومة والجنرال • وخلال ازمة يونية لم يؤخذ رأى جيسان فى وقت ما • وفى الواقع اصبح من الواضح كيف تنوعت اتجاهات الحكومة فى برن وفى قيادة الجيش • والى أى مدى خلال أزمة الخمس سنوات كان جيسان يدبر أمره معتمداً على نفسه وعلى انصاره من الضباط • وبعد مضى عشرة أيام من هذه الاشتباكات مع الحكومة الفدرالية وفى ٢١ يونية دعا جيسان بعضا من الشخصيات البرلمانية القيادية لتناول الغذاء بما فيهم رئيسا المجلس • وعلى مائدة الطعام سأله ألبرت بكتت Pictet أحد الضيوف عما اذا كان حقا ان المجلس الفدرالى لم يستمع اليه رسميا منذ ٦ يونية أى لمدة تزيد عن اسبوعين ؟ فأجاب جيسان • « ليس فقط منذ ٦ يونية فأن الحكومة لم تستشرنى منذ مايو سنة ١٩٤١ » ــ أى منذ مائة وستين اسبوعا • ثم استعرض احدث التجارب التى مرت به واعرب عن اعتقاده أنه فى المرة التالية قد تمضى خمسة أيام قبل أن تتكرم الحكومة باتخاذ قرار بالتعبئة أو برفضها•وانه لا يثق بكل من هتلر أو هملر أو شلنبرج• وهو لا يرغب فى اية مخاطرة • وعلى ذلك قرر أن يتبع طريقه بعرض الامر بطريقة مختصرة على الشخصيات السياسية القيادية من ذوى النفوذ فى برن • وكان بعض الضيوف فى ريب مما يقول والبعض الاخر فى مركز حرج • ولم يعبأ جيسان بذلك فقد كان الموقف ينذر بالخطر الى حد بعيد•

وذلك لان نزول قوات الحلفاء فى فرنسا لم يدل بعد على أنه المعجزة التى سوف تنقذ سويسرا • واوضح هذا الامر لاركان حربه • فقد يؤدى الى اختصار مدة الحرب والى هزيمة المانيا • ولكن هذه المرحلة النهائية تكون أشد خطرا على سويسرا • وعلى أية حال ازداد تفاؤل جيسان وهو

يتابع أول زحف لقوات الحلفاء عبر فرنسا واصبح متفـائلا اكثر عنـد ما جاءته الانباء عن النكسة الحقيقية التى لحقت بالجبهة القومية للالمان • وكان على يقين اذا واصل الحلفاء الضغط بقواتهم فان الحرب سوف تضع أوزارها في سبتمبر • ولكن في اللحظة الحرجة عند ما اقبل شهر سبتمبر توقف الحلفاء وانتظروا • وعادت سلطات الحلفاء النظر فى التكهنات حول انتهاء الحرب فى سنة ١٩٤٤ • وارسل تشرشل مذكرة شديدة اللهجة الى لورد اسماى Ismay حول خطط الجيوش فى ايطاليا • ومن هذا يبدو ان أمامهم ثلاثة اشهر ابتداء من فبراير سنة ١٩٤٥ لكى ينتهوا من مهمتهم •

واصبح جيسان يضيق ذرعـا بمـا رآه من تخلى الحلفـاء عن فرصتهم الكبرى • حيث استمروا فى تقدير قوة الالمان اكثر مما يجب وخاصة حالة جبهتهم القومية • وقد كان الامر يحتاج الى ضغط آخـر فى الغرب فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ لكى تنهار الجبهة الالمانية فى كل مكان عدا ايطاليا • ثم أن السويسريين ساعدوا فى كل مكان على قدر المستطـاع • واتسع نطاق الاشتراك مع دالاس لكى يزود الحلفاء بصورة واضحة صـادقة لمـا يجرى داخل الريخ المنهار • ولـكن لم يحن بعد موعد الضربة القـاضية وواصلت الحرب سيرها الى السنة الجديدة •

وفى ذات يوم فى منتصف الشتاء جاء نذير بخطر جديد وركز جيسان عنايته على تهديد من نوع آخر من اغرب التهديدات خلال الحرب • وهو الذى كان يخشاه من ايام شهر يونية عند ما اشتبك مع حكومته •

٧

من خــدع من
دالاس أم ويبــل أم وولف ؟

فى يوم ما فى يناير سنة ١٩٤٥ أبلغت السلطات دكتور ماكس هوسمان Husmann ناظر مدرسة معروفة للبنــين بالقرب من زيورخ بأن أحــد الايطاليين بارون ليجى باريللى Luigi Parrilli قدم طلبا للحصول على تأشيرة لدخول سويسرا وذكر اسم هوسمان كأحــد معــارفه . وكان هوسمان يعرف البارون وأيده فى طلبه . ولكن فى ذلك الوقت كانت الشرطة السويسرية تمعن فى المراقبة والمراجعة قبل السماح لاى شخص قد يعتبر من مجرمى الحرب فيما بعد . وعلى ذلك استغرقت المراجعة ستة أسابيع وتمكن البارون من الحصول على التأشيرة بعد أن أودع هوسمان عشرة الاف من الفرنكات السويسرية ضمــــانا بأن باريللى لن يبقى فى سويسرا . وفى ٢١ فبراير سنــة ١٩٤٥ وصل البــارون الى مدرســة هوسمان فى زوجر برج .

وكان باريللى قــادما فى بعثــة . واخــبره هوســمــان (الذى كان من اصدقائه القدماء) أن لديه معلومات بأن الالمان يدبرون الخطط لتحويل ايطاليا الشمالية بأكملها الى صحراء اقتصــادية . كما يدبرون المعــدات لازالة المدن التى ينسحبون منها . بما فيها ميلان وتورين وجنوا والمراكز الصناعية الاخرى فى الشمال . ولنسف المصانع وتدمير الموانى والسكك الحديدية والسدود المائية ولن يتركوا شيئا للحلفاء ــ أو للايطاليين .

ومضى باريللى يقول أن له اصــدقاء فى المخــابرات يعــارضون هــذه السياسة . ويرغبون فى منع مثل هذه الكارثة التى تلحق بالايطاليين . وانهم على استعداد لانهاء الحرب فى ايطاليا واقــامة جبهــة مشتركة مع الحلفاء لتكون بمثابة حاجز لتقدم الروس فى أوروبا . ولكن هوسمان

نصحه بأنه لا يظن أن الحلفاء سوف يرحبون بمناقشات على أساس اقامة جبهة مشتركة ضد الروس • وفى الوقت نفسه كان متأثرا بانباء التهديد بتخريب ايطاليا الشمالية وما قد تحدثه هذه السياسة من تورطات ممكنة تلحق بالسويسريين •

وقرر هوسمان ـ ويبدو أنه يعلم شيئا كثيرا عن الشئون الايطالية ـ ان هذا أمر يخص السلطات الحربية واستدعى صديقه مينجر ماكس ويبل رئيس القسم الايطالى فى مجموعة المخابرات الخاصة فى لوسيرن والتى كانت تتصل مباشرة بهيئة اركان حرب الجنرال • وتأثر ويبل بملخص اقوال هوسمان • وتهيأ لمقابلة باريلى بعد الظهر فى نفس يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٥ • وبعد سماعه قصة البارون اقتنع ويبل بدقة المعلومات لانها كانت مماثلة لتقارير خطط التدمير الالمانية فى ايطاليا • وهى الانباء التى جاءت الى رئاسة المخابرات السويسرية •

ولكن ويبل كان يوجه معظم اهتمامه للأشخاص الذين تبنوا رحلة باريلى الذى أوضح الامر فى صورة غير صادقة تماما • بيد أن ماظهر هو الرغبة المفاجئة التى أبداها ضابط كبير فى المخابرات هو الكومندر زيمر من المظلات والذى كان على صلة وثيقة بالبارون • ولم يكن ويبل يعتقد أن هناك من له شخصية بارزة وراء زيمر • ومن الواضح أن باريلى لم يكن على بينة من حقيقة شخصية من تبنوا رحلته • وفى الوقت ذاته أكد ويبل أن ليس هناك مجال لفكرة « اقامة جبهة مشتركة ضد الشيوعيين » ولكن حتى بغيرها فان الخطوة التالية لن تكون فى سهولة ويسر •

ولم يكن هناك شيء يمكن تنفيذه بمعرفة السلطات السويسرية • بل على النقيض كان من صالح الحكومة فى برن ان تنأى بجانبها عن أى شيء قد يصبح معروفا بصورة علنية • ولكن ماذا كان من أمر الجنرال ؟ وقد جاءت المخابرات بانباء محرجة عن حالة الجبهة الايطالية التى لامست الحدود السويسرية فى الجنوب • ومن الواضح أن جيسان لابد أن يكون على علم بجلية الامر ولكن بطريقة غير رسمية • ومن ذلك الوقت تعهد ويبل بأنه يقوم بعمله على مسئولية الخاصة وان جيسان لن يكون طرفا فى المفاوضات غير الحيادية التى ستأتى بعد ذلك • وعلم جيسان بالامر ووافق على الاجراءات التالية غير العادية ولو أنه ظل متجاهلا بصفة رسمية •

ولكن الامور أحسن حالا فى الناحية الرسمية للحلفاء • وكان ويبل يعلم أن هناك خطرا شديدا على موظفى الحلفاء فى السلك الدبلوماسى فى سويسرا من أن تكون لهم أية اتصالات بممثلى الأعداء . ويستثنى من هذه القاعدة شخصية هامة ذات نفوذ ـ هو آلان دالاس • فتم الاتفاق بينهما على الاجتماع فى لوسيرن بتاريخ ٢٥ فبراير • وأبدى دالاس اهتمامه واستعداده للسير مع ويبل ولكنه لم يستطع التغلب على شكوكه نحو البارون ومعضديه • وأصر على أن هناك شبهات تكمن وراء مايبدو على وجوههم وانه لا يرغب فى أن يعرض مركزه أو مركز الحلفاء قبل الاوان • فأدرك ويبل ما يقصده دالاس وتعهد بأن يستمر فى المحادثات على مسئوليته حتى يتضح ما يطلبه هؤلاء الالمان فى ايطاليا على وجه التحقيق ومن هم • ووافق دولس على ذلك ثم غادر دون أن يلتقى بباريللى •

وادرك ويبل أنه شرع فى لعبة خطرة • وكان عليه أن يضع ستارا على كل حركة يقوم بها حتى أن الالمان ـ عدا أولئك الذين يعملون معه ـ لا يدركون أى دليل على الدور الذى يقوم به وكذلك حكومته ـ لصالحها ـ ينبغى أن تظل جاهلة اية اجراءات • وكان جيسان على استعداد للثقة به ولكن هذا كان أمرا خاصا بينهما • وفى ذلك المساء ٢٥ فبراير (والتواريخ معروفة طيلة هذه الفترة) اجتمع هوسمان وويبل بباريللى بعد مغادرة دالاس . وأكد له أنه من المهم أن يعرب معضدوه عن شخصياتهم فى كثير من الدقة • واجاب باريللى ان الشخصية الهامة الاخرى هو ضابط المخابرات الذى يستطيع أن يجرى معه هذه المحادثات ويدعى يوجين دولمان Eugen Dollman الرئيس السابق لشرطة المخابرات فى روما• ويشغل أحد المناصب الرئيسية فىرئاسة المخابرات فى ايطاليا الشمالية• ويستطيع أن يجعله يواصل اتصالاته •

وغادر البارون سويسرا فى ٢٧ فبراير ثم عاد بعد ثلاثة أيام • فى ٢ مارس ـ ومعه معلومات تدل على أن ضابطى المخابرات ـ دولمان وزيمر ـ سوف يصلان الى الحدود مبكرا فى صباح اليوم التالى • وابلغ ويبل الامر الى دالاس الذى أعد نائبه لمقابلة رجال المخابرات • ولكن الرجل الامريكى لم يستطع الذهاب الى لوجانو الا بعد ثمان ساعات من وصول الالمان • وبذلك ترك ويبل وحيدا مع ضابطى المخابرات وباريللى • وكان أمامهم أمور كثيرة للبت فيها قبل وصول نائب دالاس •

وسرعان ما ادرك ويبل أن الالمان لا يزالون على غير استعداد اطلاقا من الوجهة النفسية للاجتماع بالامريكي • وكان ما يدور في اذهانهم لا يمت بأية صلة الى انهم يتوقعون احتمال تسليم الالمان للحلفاء • حيث أخذوا في الحديث كما لو كانوا لا يزالون في مركز قوى ويستطيعون مساومة الحلفاء • وعند ما اقترح ويبل بلهجة رقيقة أنهم مخطئون في ظنهم • وان القاعدة الوحيدة لوضع حد للقتال هي التسليم دون شروط صعد الدم الى وجه دولمان وانتصب واقفا على قدميه وصاح في وجه ويبل « أتريد أن اتحول واصبح خائنا » • وكان ويبل يتوقع ذلك منه ولم يتأثر بكلامه • وسأل الالمان هل في رأيهم أن القادة الذين اشتركوا في المؤامرة ضد هتلر في ٢٠ يولية كانوا خونة أو وطنيين ؟ فتخبط كل من دولمان وزيمر في اجابته ولم تسفر المناقشة عن أى شيء حتى قبل وصول الامريكي • وهنا ألقى باريللي سؤالا « كيف يكون تصرف الحلفاء مع اولئك الالمان الذين سوف يعملون على وضع حد للحرب ؟ وفهم دولمان •

ولما وصل الامريكي في الثالثة بعد الظهر كان ويبل قد حصل على موافقة دولمان على الثلاث نقط الضرورية لاستمرار المحادثات : ان ألمانيا قد خسرت الحرب • وان حلفاء الغرب لن ينشقوا على الروس • وانالحلفاء لن يتفاوضوا مع أى مندوب عن هتلر أو هملر • وشرح ويبل الموضوع باختصار للامريكي قبل أن يجتمع بدولمان وزيمر • ودهش ضباط المخابرات عند ما صافحهم الامريكي واوضح أنه مادام مستعدا للتحدث مع أى شخص فمن الطبيعي ان يلقاه في شيء من الكياسة • وبعد ذلك استغرق الاجتماع عشرين دقيقة فقط • وأوضح دولمان أنه كان في رحلة استكشافية خاصة به • وأنه سوف يقدم تقريرا الى رئيسه وينصح السويسريين بأن هناك تطورات أخرى • وفي هذه اللحظة أعطى الامريكي قصاصة من الورق الى هوسمان الذى كان حاضرا • وذكر في الورقة اسمين بارى وأوسمياني Parri and Usmiani • وهما القائدان السابقان غير المنتمين للشيوعية اللذان أسرهما الالمان • وقال الامريكي انه لايملي شروطا وانما سوف يتأثر رئيسه بحسن نية المفاوضين الالمان اذا ما أطلق سراحهما •

وبعد أن انفض الاجتماع عاد على الفور دولمان وزيمر وباريللي الىايطاليا ثم غادر دولمان رفيقيه وتوجه الى فاسانو على بحيرة جاردا مقر قيادة القائد الاعلى للشرطة والمخابرات في ايطاليا جنرال كارل وولف نائب هملر السابق • وكان وولف رئيس دولمان والمنظم الاول لبعثة باريللي ولو ان

هذا لم يكن يعلم بذلك • وكانت المقابلة بالغة الاهميـة أكثر مما قـدر المشتركون فيها فى ذلك الوقت وذلك لان دولمان قرر الا يخبر وولف بانه ليس هناك أمل فى تغيير الجبهة الانجلو أمريكية وحتى فى عقد صلح منفرد معهم • وظن ان وولف قد يقطع الاتصال بهم اذا علم بذلك فى تلك المرحلة وأراد أن يسمع وولف بنفسه ذلك من آلان دالاس شخصيا • وعلى ذلك لم يذكر دولمان شيئا عن هذه المرحلة الحاسمة في محادثاته الاستكشافية • وكان الاجتماع قد عقد فى ٤ مارس على وجه التقريب لان وولف غادر بعد ذلك مباشرة لمقابلة القائد الاعلى الالمانى فى ايطاليا ـ فيلد مارشال كسلرنج وطلب اليه عقد اجتماع شامل لمن يهمهم الامر من القادة فى مقر القيـادة لمناقشة الموقف ×

وكان الاجتماع فى فاسانو فى اليوم التالى ٥ مارس • وحضر كل من القائد الاعلى • فيلد مارشال كسلرنج • وجنرال وولف رئيس الشرطة والمخابرات • ونائبـه ونر Stormtroop leader Wenner ثم دولمان وراهن السفير الالمانى لدى موسـولينى • واخـذ وولف يروى ـ والامل يملأ جوانحه ـ عما ترامى الى سمعة من مجريات الامور في سـويسرا • ولـم يتحدث أحد عن التسليم بل كان حديثهم حول المفاوضة لتغيير جبهة القتال وفى الواقع كان الموضوع كله يسير على نفس الخطوط التى سبق ان رسمها هملر فى السويد • ولكن كانت فرصة أكثر للنجاح لان الجبهة مازالت فى موقعها ولم يشترك مباشرة فى المحادثات السويسرية كل من هتلر وهملر وعلى ذلك لم يكن فى هـذه المرحلة مايدعـو كسلرنج أو وولف لاخفـاء مايعتزمونه عن هملر • ثم ان فريتز هيس Hesse ضابط الاتصال بين رينتبروب وهتلر بشأن الشئون البريطانية أصر على ان وولف كان لديه اعتماد من هملر ليقوم برحلته الرسمية الى سويسرا للاجتماع بالامريكيين وأصر وولف على أن هذا لم يحدث • ويدعى هيس بأنه سمع ولترهيون Walter Hewen الذى كان مندوبا شخصيا لرينتبروب فى مقر قيادة الفوهرر وهو يقرأ عليه التعليمات المرسلة الى وولف بناء على أوامر هملر •

وعندما سمع باريللى فيما بعد بماحدث في اجتماع فاسانو ساوره القلق حول النتائج المحتملة من جهل وولف بسلوك الحلفاء وتوجه اليه وحثة على الذهاب بنفسه الى سويسرا ووافق وولف واضاف نه سوف يصطحب معه الزعيمين اللذين ذكر الامريكى اسميهما •

× راجع كتاب (اسرار الجواسيس) ص ٢٤ ـ ٢٨ ،

ووصل باريللى الى سويسرا فى ٦ مارس ليعد الاجتماع بين وولف ودالاس فى ٨ مارس • وقد أعد ذلك فى سرعة ولكن بعناية • وجاء وولف الى الحدود ومعه الزعيمان اللذان كانا لا يدركان شيئا عما يجرى •واللذان كانا يتوقعان الاعدام رميا بالرصاص أو النفىعندما ايقظا وأخذا منالسجن ولكن وجدا انهما فى سويسرا • ثم ان بارى Parri ـ ولو أنه لم يعلم فى ذلك الوقت ـ أنه سيطلق سراحه ويتقلد منصب أول رئيس للوزراء فى ايطاليا • وقابلهما هوسمان وواصل رحلته مع وولف حتى غادروا القطار فى محطة الضواحى زيورخ ـ أنج Enge حيث استقبلهم ويبل • وقبل ذهابهم الى المسكن حيث كان دالاس فى انتظارهم طلب ويبل من وولف ان يؤكد له انه لايمثل هملر أو هتلر وانه لايعلم شيئا عن بعثته • واعرب وولف عن تقديره للموقف مما دعا ويبل الى الثقة به •

وعندما اتم الفريق رحلته من تسينو Tessino عن طريق حصنسويسرا الجبلى الى زيورخ لابد ان وولف كان فى حال من القلق ولو أن ذلك لم يكن ظاهرا عليه • وذلكلان هوسمان وافاه ببيانكامل فى صورة مختصره خلال تلك الرحلة الطويلة • وقد فهم الآن ماكان يجهله من قبل • وادرك ماصنعه بسبب جهله بحقيقة الامر • وكان قد لجأ الى هذه المفاوضة على فرض أنها سوف تؤدى الى تكتل مسلح مع الانجليز والامريكان وأخطر كلا من كسلرنج وهملر بذلك • ولما وصل الى زيورخ فطن الى انه لكى يرضى خاطر الأمريكيين عليه أن يوافق على صيغة للتسليم أو يعود خالى الوفاض ثم ان وولف عند مقابلته مع دالاس أصر رأيه على أن يلعب دورا خطيرا وسوف يلعبه فى الجانبين ـ مع هملر ومع دالاس •

وفى الوقت ذاته كان وولف ودالاس قد ترك كل منهما أثرا طيبا فى نفس الآخر • وكان وولف رجلا طويل القامة يزيد طوله على ستة أقدام عريض المنكبين شاحب اللون أقنى الانف • ولايبدو فى صورة ضابط المخابرات المعتاد • وكان فى حديثة طلق اللسان ظريف المحيا ولم يجد صعوبة فى تذكر بعض ما قام به حديثا من اعمال مجيدة • فقد انقذ روما من خراب شامل عندما انسحب الالمان • كما انقذ أيضا كثيرا من كنوزالفن فى فلورنسا • وقليل ماعرف فى ذلك الحين عن ماضى وولف عندما كان نائبا لهملر وضابط الاتصال المعروف مع هتلر • وعندما لم يكن هناك من يفكر فى التسليم سوى أعداء هتلر وربما السبعين ألفا من الركاب السيىء الحظ الذين استقلوا قطارات البضاعة وأخى وولف لها الطريق لتصل الى المصير المحتوم حيث لارجعة منه • ولدينا سجلات قليلة عنماضى

وولف • ولكن المثال الصادق منها خطاب منه الى وزارة النقل وصورةمنه الى جلوبكنك Globocnik قائد المخابرات والمسئول عن الابادة الجماعية وقال وولف فى خطابه •• لقد سررت بنوع خاص عندما بلغنى منكم انه لمدة اسبوعين كان كل يوم يقوم قطار يحمل خمســة آلاف من «الشعب المختار» لنقلهم الى تربلنكا •• وقد اتصلت شخصيا بالادارات المختصــة لضمــان تسهيل جميع هذه الاجراءات ، ولم يكن دالاس يعلم كثــيرا عن هذه القصة • ولكن وولف كان يعلم • ومن المحتمل انها ساعدت فىدفعة لمتابعة هذه الحلقة الجديدة برغم الصدمة الكبرى التى اصابته عندماكشف هوسمان عن نيات الحلفاء أولا وثانيا عندما فطن الى الصيغة الدقيقة التى أعدها دالاس للتسليم غير المشروط •

وبعد مناقشة استغرقت نحو ساعة قال وولف لدالاس أنه قبل فكرة التســليم غير المشروط وأنه ســوف يتخــذ الخطوات اللازمة لنشرها فى الجبهة الايطالية فورا • وكان واثقا من انه سوف يكسب كسلرنج ليوافق على وجهة نظره وافترقا عند هذا الحد ـ وصحب ويبل وونف ورفاقه الى الحدود • وكان ويبل قد تأثر بوولف وتأكيداته له • وعلى ذلك قرر أن يثير معه موضوعا مفصلا عن سويسرا وكذلك مشكلة انسانية عامة •

فسأل وولف عما اذا كان الالمان سيمتنعون عن تدمير منشآت الميناء فى كل من جنوا وسافونا التى هى الممرات اللازمة للتــوريدات المخصصــة لسويسرا • وأعرب عن نفس الاهتمام بالقطاعات الايطالية على خطــوط السكة الحديد المؤدية الى ممرات جونارد وسمبلون • ووعده وولف بأنه سوف يشمل هذه الامور بعناية (ولم يذكر له ويبل انه جرت اتصالات مع الحلفاء اسفرت عن التعهد بعدم القاء القنابل عــلى Swiss Qui فى جنوا وميناء سافونا) ، وقد قام كل من وولف والحلفاء بالوفاء بعهودهم ولم يحدث تدمير أو تخريب كبير فى أى ميناء منهما •

كما كان ويبل قلقا بسبب الاجراءات الانتقامية التى تتخذها القــوات الاجنبية الملحقة بالالمان فى ايطاليا ضد القرى التى يشتبه فيهــا انهــا تساعد المنتمين الى الاحزاب • وأوضح ويبل انه من غير المعقول ان تجرى مفاوضات لوقف اطلاق النار فى سويسرا بينما على مسافة بضعة أميــال من الحدود تقوم قوات فلاسوفالتى تشرفعليها الالمان والمؤلفة من المنغول والاتراك والاجناس الاسيوية الاخــرى بنسف المنــازل وسلب واغتيال المدنيين • فوعد وولف بايقاف جميع العمليات الانتقامية ضــد المنتمين

للاحزاب وجميع حركات «التطهير» الاخرى التى تقوم بها القوات الخاصة وشعر ويبل انه قد كسب كل مايستطيع ان يتوقعه الانسان في مثل هذه الظروف • ومن حسن الطالع الى حد كبير انه لم تكن هناك عقبة فى اجراء المفاوضات •

وبعث دالاس تقريرا عما جرى بينه وبين وولف الى واشنطن والى كاسرتا Caserta مقر قيادة الحلفاء فى ايطاليا • وبعد مشاورات بين تشرشل وروزفلت تقرر اخطار حكومة السوفييت بشأن طلب الالمان فى ايطاليا التسليم بصفة رسمية • وهنا تطور سوء التفاهم وبلغ اقصى مداه • فقد كان كل من دالاس وويبل على يقين من أن قيادة الحلفاء فى كاسرتا تحت رئاسة فيلد مارشال الكسندر مقتنعة بأن الالمان اصبحوا على أتم استعداد لتسليم عسكرى مطلق دون مفاوضة وبلا شروط ـ تسليم بلا قيد ولا شرط في الواقع • وكانت تعليمات القيادة الى دالاس قد صيغت واعدت على فرض أن الالمان قد استعدوا للتسليم بصفة نهائية • ولكن كلا من دالاس وويبل سرعان ما أدركا أن ما توقعه الحلفاء كان خطأ مبينا • وحقيقة الامر أنه فى ٨ مارس ـ وهو اليوم حيث جرت المقابلة الاولى ـ لم يكن هناك قائد المانى واحد فى ايطاليا يدور بخلده موضوع التسليم غير المشروط • وكان دالاس وويبل ووولف هم الرجال الثلاثة الذين أدركوا تماما مدى اتساع الفجوة التى تفصل بين هذين التقديرين• وبدأ كل منهم يعمل على اغلاقها بطريقته الخاصة •

ويتضح مدى اتساع الفجوة اذا ما قورنت التقارير التى أرسلها الكسندر الى لندن ووشنجطن وتلك التى أرسلها وولف الى كسلرنج وربما الى هملر • فقد أكد الكسندر الطابع العسكرى لشروط التسليم المقترحة• وكان على وولف ـ لسلامة شخصه (وربما لاسباب اخرى أيضا) أن يؤكد الامكانيات التى قد تنجم من المحادثات والتى تؤدى الى دق اسفين بين الحلفاء • وهذان التقريران المتشابهان على اختلافهما البين لم يصلا الى اهدافهما المقصودة فحسب • فقد رأينا مافيه الكفاية منجدارة الجاسوسية السوفييتية فى المانيا لكى نقدر أن ستالين لم يلبث الا قليلا حتى أصبح على وعى تام بالمحادثات التى جرت فى سويسرا والقصة التى كانت بين يديه هى ترجمة لقصة وولف ومناقشاته المدعمة التى كشفت عن أنه كان يضع الاساس لاقامة جبهة مشتركة ضد الروس • ولاذ ستالين بالصمت ولم يصنع شيئا •

وأراد ستالين أن يرى ما سوف تأتيه به الحلفاء من الاخبار · وفي ١٢ مارس أبلغ السفيران الغربيـان في موسـكو مولوتوف بشـأن المحادثات التمهيدية في سويسرا لاجراء تسليم عسكري · وأخبره أنهم في انتظار تصديقه لكي يواصلوا محادثاتهم · وفي اليوم التالى أجاب مولوتوف بأن الروس ليس لديهم مانع من اجراء المفاوضات في سويسرا · ولكنه طالب باشتراك السوفييت على الفور في جميع المحادثات فيما بعد · ثم أرسل سفير الولايات المتحدة في موسكو ـ أفريل هاريمان ـ الرد مع نصيحته الشخصية بأن الروس لا ينبغى لهم أن يشتركوا فىالمحادثات السويسرية· فقد كان على يقين من أنهم لن يتدخلوا لتقديم يد المساعدة · ووافق رؤساء أركان الحرب المجتمعـين في وشـنطن على نصيحة هاريمـان حيث كانوا يعارضون ايضا في اشتراك السوفييت في هذه المرحـلة · وطبقـا لذلك أخطر سفراء الحلفاء مولوتوف بأن محادثات سويسرا كانت بشأن الاعداد لمرور مندوبى الالمان الى قيادة الحلفاء في كاسرتا ثم يدعون الروس لارسال مندوبيهم العسكريين للاشتراك في مفاوضات التسليم التى تجرى هناك· وفي ١٦ مارس عاد مولوتوف متجهما غاضبا بسبب « سلوك الحلفاء غير المفهوم في سويسرا » ·

ومن السهل أن نفهم أكثر من أن نعطف على هذه الشبهات المتزايدة في موسكو · ففى أول الامر تسمع موسكو باجتماع فاسانو حيث مجموعـة الجيش تحت رئاسة كسلرنج كانت تعمل على تسوية مستقلة مع الحلفـاء على أساس منع قوات الروس من التقدم الى أوروبا الوسطى · ووصول قائد شرطة المخابرات في ايطاليا الى سويسرا ومعه الزعيمان من رجـال الاحزاب غير الشيوعية · ثم يعلم مولوتوف أن النائب الامريكى للفيـلد مارشال الكسندر · جـنرال ليمـان لمنيتزر Lymen Lemnitzer — والرئيس البريطانى للمخابرات ـ جنرال ايرى Airey — في طريقهما الى سـويسرا لـكي يخبرا وولف بانه يجب أن يبت في أمر التسليم في كاسرتا · فهل لم يكن في اسـتطاعت آلان دالاس أن يخطر وولف بهذه الرسالة ؟ من الواضح أنه كانت هناك أمور اخرى تجرى مجراها · ولم تلبث موسكو أن سمعت بها · فقد كانت مفاوضات مماثلة يجريها هملر عن طريق كونت بارنادوت وغيره من الوسطاء السويديين · وكان الهدف واحدا : التسليم للبريطانيين والامريكيين ومواصلة القتال ضد الروس لابعادهم عن المانيا والنمسا · ثم بعـد ذلك بينمـا كان وولف موجودا بالفعل في سويسرا يتحدث الى دالاس في ٨ مارس (ولم يذكر الحلفـاء

شيئا عن هذه المحادثات لمولوتوف) دلت أنباء المخابرات السوفييتية على أن هملر استدعى كسلرنج الى مقر قيادته • فاذا لم يكن هذا خداعاً ومكيدة ــ فماذا كان ؟

وجاءت حركة هتلر التالية لتزيل عوامل الشك والتردد التى ظلت تساور كلا من ستالين ومولوتوف • فقد أمر كسلرنج أن يتولى قيادة الجبهة الغربية ضد البريطانيين والامريكيين ــ وكما كان يعتقد الروس ــ كان نفس الرجل الذى اجرى المفاوضات عن طريق وسطائه فى سويسرا • وهى المفاوضات التى استبعد منها الروس بتدبير سابق • وفى نفس الوقت وردت أنباء هذا التحول المدهش الى قيادة الحلفاء فى كاسرتا حيث أزعجت فيلد مارشال الكسندر الذى كان مبعوثوه فى طريقهم للاجتماع بوولف فى سويسرا • وطلب من دالاس على عجل بأن يبحث ما قد يطرأ على مفاوضات وولف من تورطات بسبب رحيل كسلرنج •

واجتمع دالاس وويبل خلال ليلة ١٢ مارس واتفقا على ايفاد البارون باريللى ليتصل بوولف فى فاسانو • وكان عليه أن يقدم له أربعة أسئلة رئيسية : ماذا يقترح عمله اذا لم يعد كسلرنج • أو اذا استدعى نفسه لمقابلة هملر • وما هى القوات التى تحت قيادته مباشرة • وعما اذا كان فى استطاعته أن يقوم باتصال مباشر بالحلفاء فى الميدان • وعاد باريللى بعد أن حصل على اجابات مرضية من وولف حيث انبأه هذا أنه سوف يتفاهم مع خليفة كسلرنج بمجرد أن يعلن عنه • وانه على استعداد للتعاون الوثيق مع الحلفاء حتى ولو أدى الامر لاقامة جهاز اذاعة للحلفاء فى مقر قيادته • ولكنه حذر من دسائس رئيس أمن المخابرات كولتنبرنر **Kaltenbrunner** وقال أنه كان يحاول الاتصال بالحلفاء عن طريق وسطائه فى سويسرا •

ولكن وولف بدأ يتلكأ بعد ذلك • وبالرغم من اجاباته الجريئة على الاربعة الاسئلة التى أرسلها اليه دالاس عاد فأرسل باريللى فى ١٧ مارس رسالة تنطوى على معنى مختلف تماما وأشار فيها الى منصب كسلرنج الجديد • وأوضح أن القائد الجديد فى ايطاليا أحد أصدقائه القدامى ومن المقربين اليه وهو جنرال فون فتنجهوف • وبسبب هذه المعرفة الوثيقة لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل استشارة القائد الجديد والصديق القديم • وأضاف وولف أنه مع ذلك فسوف يأتى الى سويسرا فى زيارة « للمجاملة » حسب الاتفاق •

ولم يكن هذا ما يتوقعه ويبل • فقد كان مقتنعا ــ وهو على حق ــ أن الجنرالات البريطانيين والامريكيين الذين جاءوا لاعداد تسليم القوات الالمانية

في ايطاليا سوف يثورون غضبا اذا سمعوا أن جنرال المخابرات الالمانية انما جاء في زيارة للمجاملة • فستكون هذه هي النهاية • وكما بدا لويبل أن هـذا التصرف مثـال آخر لمدى الفجوة التي لا تزال تفصـل بين التفـكير العسكري للالمان وبين الحلفاء في الجبهة الايطالية • وعلى ذلك التزم ويبل جانب الحرص في تصرفاته واجتمع بكل ليمنتزر وأيرى دون حضور وولف وأوضح لهما التغيرات التي تناولت قيادة الالمان والصعاب التي ترتبت على ذلك • ثم اجتمع ويبـل بوولف على انفراد وادخـل في روعه أنه لابد من مناقشة تفصيلات التسليم ولكن الامر يستدعى مهلة ريثما يتمكن وولف من استشارة فتنجهوف • وبذلك تمكن ويبل من ايجاد قاعدة عملية للمناقشة•

بعد ذلك اجتمع وولف بجنرال ليمنتزر وجنرال أيرى في فيللا بجانب البحيرة في أسكونا • وكان الحاضرون ثمانية عشر رجلا ومن بينهم ويبل دالاس وظل هذا المؤتمر سرا من أسرار الحرب المحتفظ بها على أحسن وجه . فلم تعلم لحكومة السويسرية شيئا عنهذا الاجتماع كما أنتفاصيل القرارات لم تصل الى علم المخابرات الروسية • ولم يسفر المؤتمر عن نتـائج كثيرة سوى الاتفاق على السماح لوولف بمدة أسبوع آخر لتهيئة أموره للحصول على تأييد فون فتنجهوف لخططه بشأن التسليم • وكان هذا آخر اتصـال مباشر بين الحلفاء ووولف • لان الاتصال طيلة الستة الاسابيع التالية كان يتم في مواجهة صعاب لا يمكن تصديقها بسبب المجهودات الخاصة لكل من باريللي وهوسمان وويبل ـ مع مايبذله دالاس من مجهودات بصورة غير رسمية وعلى نطاق واسع ومن وراء ستار •

ولكن حتى اذا كان الروس لم يعلموا تفصيلات مؤتمر أسكونا فقد علموا بأمره كما علموا أن الجنرالين اللذين حضرا الاجتماع قد عادا الى كاسرتا • وبمجرد أن اصبح الامر واضحا أمام الروس بادر مولوتوف بارسال مذكرة عدائية شديدة اللهجة الى الحلفاء بتاريخ ٢٢ مارس • وكان هذا أكثر ممـا يحتمل روزفلت فكتب بعد يومين مباشرة الى ستالين يطمئنـه من ناحيـة ويستنكر اشتباهه بالحلفاء من ناحية اخرى • وكان رد ستالين في٢٩ مارس• وبتاريخ أول ابريل جاءت رسالة من وولف تنبىء بقبول فتنجهوف ولـكنه قرر عددا من الشروط « للاحتفاظ بشرف جيشه » • وضاق الحلفاء ذرعـا بشروط الالمان في هذه المرحلة • ولكن ويبل حثهم على مسايرة الالمان • ثم أن روزفلت كتب ثانيا في نفس اليوم الى ستالين لكي يهدىء باله من ناحية مقاصد الحلفاء في ايطاليا • وجاء بعد ذلك اسبوع تبادل فيه كل من ستالين وروزفلت وتشرشل رسائل وبرقيات تتسم كلها بشدة اللهجة والمرارة •

وأصبح الامر يبدو فى ذلك الحين كما لو كانت الاحلام الخيالية التى كانت تداعب أذهان هتلر وهملر فى طريقها الى التحقيق وكما لو كان الالمان شعروا بالضجة الكبرى التى اجتاحت معسكرات الحلفاء وبذلوا ما فى وسعهم لاذكاء لهيبها ٠

وأما روزفلت فقد فطن الى مظاهر الخطر ٠ وبتاريخ ١١ ابريل فى آخر رسالة له قبل وفاته لفت انظار ستالين الى الاخطار المشتركة ابان الحرب ٠ ومضى يقول أن « حادث برن » يبدو الان أنه اندثر فى احضان الماضى دون ان يحقق اية اغراض نافعة » ٠ وفى كاسرتا فقد الكسندر تحمسه حول التسليم الذى عرضه الالمان ٠ وكتب فى رسالة له الى لندن فى نفس اليوم ١١ ابريل يقول « أرجو ملاحظة أن شيئين رئيسيين موضع اشتباه كبير لدى وهما المخابرات ورجال هملر » ٠

وانقطعت الاتصالات الرسمية ولكن الثلاثى ــ دالاس ــ ويبل ــ وولف ظلوا يواصلون مهامهم لان أول شىء فعلوه هو اقامة جهاز ارسال سرى للاتصال بدالاس مؤقتا وبعد ذلك للاتصال بمقر قيادة الحلفاء فى كاسرتا ٠ وكان موضع الجهاز فى مبنى قيادة المخابرات فى ميلان ٠ ويقوم بتشغيله عامل تشيكوسلوفاكى جاء به آلان دالاس . وسهل الجهاز ــ الى حد بعيد ــ المشكلة الفنية وهى توصيل المعلومات عن خط سير وولف الى كل من ويبل ودالاس ٠ وأفاد وولف أنه توجه الى مقر قيادة كسلرنج فى الجبهة الغربية ووجده يعرب عن عطفه على مهمتنا ولكنه غير قادر أو لا يرغب فى أن يدع التسليم المقترح يمتد موضوعه الى جبهته الجديدة ٠ وأن كسلرنج انبأه بأنه وجد هيئة موظفيه الجديدة لا يثقون كثيرا بالمشروع٠كما روى وولف بطريق المصادفة أن هملر قد استدعاه الى مقر قيادته عند ما سمع بوجوده فى مقر قيادة كسلرنج ٠

والظاهر أن هملر علم برحلاته التى قام بها حديثا الى سويسرا ومن الواضح أنه ارتاب فى غرضهم الحقيقى ٠ وأمر وولف بأن يظل يباشر عمله والا يسافر الى سويسرا أو الى المانيا ٠ ولكن هذا الجزء من حديث وولف الى ويبل يبدو ناقصا بشكل غريب ويقصد به الدفاع عن نفسه ٠ وفى هذه المرحلة لا يستطيع الانسان أن يتجاهل شعور هملر وشوقه لمعرفة مدى تقدم جهود وولف لكى يدق اسفينا فى جبهة الحلفاء ٠ وأما رد وولف على ذلك فلن يكون الا من باب الحدس والتخمين بالنسبة الينا حيث لم يذكره فى تقاريره الى السويسريين ٠

وعاد وولف الى قيادته بتاريخ ٧ ابريل • واجتمع في فاسانو بمعظم أفراد القيادة وامرهم بالكف عن اعمال التخريب ويدافعون عن أنفسهم فقط فى حالة مهاجمتهم بمعرفة أعضاء الحزب• كما أرسل خطابين الى ويبل يبين فيهما ردوده التى تضمنت اعرابه عن قبوله اصدار الامر بالتسليم على شرط أن تنسحب القوات الالمانية مع الاحتفاظ بكرامتهم وتقديم الضمانات اللازمة لذلك وان يستطيع الاحتفاظ بقوة صغيرة من جنود الامن لاستخدامها فى ألمانيا • وكان باريللى حاذقا فىتفسير هذين الطلبين ولم يقتنع دالاس بذلك لانه كان لا يزال يشتبه فى أن وولف يلعب دورا مزدوجا • ولكنه لم يفعل شيئا يكشف عن شكوكه •

وأى شيء كان وولف يحاول أن يفعل ؟ لقد كان يحاول كسب الوقت فى ذلك شأن كل من هتلر وهملر • ولكن فى يده شيء ينقصهما ـ كان لديه قوة محاربة لا تزال تشكل تهديدا • وقد تكون قوة أشد بأسا اذا انتبذت لها مكانا فى الجبال • وكان هناك وجه آخر لهـذا النشـاط الغريب الذى ينتهجه وولف وقد يكون اكثر وضوحا حيث اعتقد فى أول الامر أنه من الممكن اقامة جبهة مشتركة مع الحلفاء ضد الروس ثم فطن الى أن الحقيقـة غير ذلك • ولكنه واصل مساعيه لكى يقنع هملر أنه انما يعمل من أجل هذا الغرض • والان بدا له ـ برغم استنكار الحلفـاء للمشروع ـ أن الفرصـة ما زالت قائمة لخلق جبهة معادية للروس •

ومن الواضح أن الروس كانوا فى حالة غير مستقرة لاحتمالهم أن الالمان فى ايطاليا قد يسمحون لقوات الحلفاء بحرية المرور عبر الخطوط الالمانية للوصول الى اقليم الدانوب واجزاء من يوجوسلافيا قبل أن يصل الروس • ووصلت قوات تيتو الى هناك •

وكان تيتو قد توجه الى موسكو للمفاوضة لعقد اتفاق مع الروس • وورد من الانباء الى وولف ما جعله يلتزم جانب اليقظة • فقد ارسل تيتو أحـد ضباطه الشبان ومن المقربين اليه ـ جـنرال فلبت Velebit الى قـائد المجموعة F من الجيش الالمانى فى يوجوسلافيا الشمالية • وقال فلبت للالمان أن تيتو على استعداد للقيام بعمل مشترك معهم اذا ارادوا أن يقاوموا محاولة الحلفاء انزال قواتهم على ساحل الادرياتيك بجوار فيوم وتريستـا ولم يكن وولف فى حاجة الى ايضاحات اكثر فقد حانت الفرصة •

وبينما كان الالمان في دهشة حول ماذا يصنعون حيال بعثة فليبت وعما اذا كانت هذه أول دلالة حقة على قطع التحالف بين موسكو ولندن ووشنطن جاءت أنباء اخرى عن موت روزفلت المفاجيء · وظن هتلر أن هـذه سوف تكون نقطة التحول وكذلك ظن كثير غيره من الالمان · ونحن لا ندرى ما ظنه وولف ولكننا نعلم ما فعله . حيث أرسل زيمر Zimmer موضع ثقة فى المخابرات بخطاب الى دالاس . ووصل زيمر الى سويسرا بتاريخ ١٥ أبريل أى بعد وفاة روزفلت بثلاثة أيام وبعد قليل من وصول بعثة فليبت الغربية الى مجموعـة F فى الجيش الالمـانى · واعرب وولف فى خطـابه عن مواسـاته بمناسبـة موت الرئيس واضـاف أن ذلك لن يؤثر على خططـه واعداداته · وانهم سوف يسيرون فى عملهم كما كانوا من قبل ·

ومضى يقول فى رسالته أنه بطبيعة الحال يهمه السرعة فى العمـل لأن الامر يحتاج الى السرعة · وبهذه المناسبة اراد أن يشير الى شبـه الجزيرة تريستا ـ فيوم ليس بها الان مراكز المانية للدفاع فعلا · وان المنطقة من بولا الى نهر أيسونزو عبارة عن أراضى مكشوفة فى الواقع · وحث الحلفاء على انتهاز الفرصة لا تزال قواتهم هناك لكى يسبقوا الروس · وقد نتساءل هل كانت هذه النصيحة بطريق المصادفة اطلاقا أو كانت نتيجة لما أدركه وولف من أن تيتو (ويقصد الروس ايضا) كان يحاول يائسـا أن يبعـد الحلفاء عن الادرياتيك لدرجة أنه كان على استعداد لمساومة الالمان · وكان وولف مدركا لما يصنع · الامر الذى كان محل اشتباه كبير لدى دالاس · لانه اذا نجح وولف فى خطتـه فقـد يؤدى ذلك الى صراع على شـواطيء الادرياتيك بين قوات الحلفـاء وبين الموالين لتيتو · ان لم يكن مع القـوات الروسية فعلا ·

وفجأة نشرت احدى الجرائد السويسرية الفرنسية نبأ غريبا اذ قالت أن مفاوضات بشأن التسليم تجرى فى سويسرا وان بارى Parri الزعيم الحزبى قد وصل الى البلاد · ولم يستلفت هذا النبأ ـ وكان نشره بصورة غير ظاهرة ـ الانظار والعناية التى كانت متوقعة · ولكن موسيلينى علم به وطلب ايضاحا عنه · واستطاع وولف أن يغض النظر عن طلب موسولينى ويلقيه جانبا ·

ولكن المحاولة الثانية كانت أشد خطورة · ففى ذلك الحين تقريبا وفى صباح يوم فى منتصف ابريل ظهر أحد الضبـاط الانجـليز أمام مدخـل مجموعـة ليجوريا Liguria فى الجيش الالمـانى وطلب أنه يرغب فى

الحديث عن الصلح وسأل عن كبير الضباط الالمان فدلوه على كولونيل فوجل Vogel • واخذ الضابط الانجليزى يوضح للكولونيل الذى تولته الدهشة أنه جاء لمناقشة التفصيلات حول تسليم المجموعة الالمانية وأنه قد تم الاتفاق على ذلك أثناء المحادثات التمهيدية التى جرت مع آلان دالاس فى سويسرا • وطلب الضابط الانجليزى ان يحصل على رد جنرال فتينجهوف عند عودته بعد مضى ثمانية عشر ساعة •

وفى الحال حول فوجل الرسالة الى القائد العام جنرال فتينجهوف الذى تولاه ذهول عند قراءتها • وجلس ليكتب تعليله لمحادثات التسليم فى خطاب موجه الى جنرال جودل Jodl فى مقر قيادة الفوهرر • ولكن قبل أن يرسل خطابه جاءه وولف وحرضه على عدم ارسال الخطاب • ولو كانت هذه الرسالة قد وصلت الى يد جودل لكان ذلك دلالة على قيام هتلر بانتقام رهيب آخر ــ وفى هذه المرة فى ايطاليا • وأما الضابط الانجليزى فانه لم يعد ليتسلم رد جنرال فتنجهوف •

ولكن من كان هذا الانجليزى الغامض ؟ فان قيادة الكسندر لم تبعث بمثل هذه الرسالة ومن المحتمل أنها لم ترسل من أية قيادة بريطانية اخرى • من اذن أرسل هذا الرجل الذى انتحل شخصية الضابط الانجليزى ؟ هل كان هملر ــ أو على احتمال أكثر ــ كانت حركة من قبل الروس لتحذير هملر وهتلر حول حقيقة المفاوضات ؟ لان الروس كانت تصل اليهم المعلومات عن سير المحادثات عن طريق رؤساء أركان الحرب المجتمعين • وفى امكانهم الحصول على المعلومات من الاروقة الداخلية ليؤدوا هذا الدور الذى قاموا بتمثيله • وفى نفس الوقت تقريبا جاء رجلان من الجستابو لمقابلة دالاس فى برن . ومعهما رسالة يستدل من معناها أنها مرسلة من وولف • ولكن دالاس صرفهما • ومن الواضح أن هملر لم يكن يفطن الى مجريات الامور هناك • وهكذا ــ ولاسباب يعلمها الروس ــ أرادوا أن يمنعوا الالمان من التسليم قبل الاوان ــ ولاسباب يعلمها هملر ــ كان قلقا مخافة أن تسلم البقعة الهامة من جيشه قبل أن يحصل من حلفاء الغرب على ما يكفل حفظ كرامته وشرف جيشه his pieces of silver وفشل الروس فى محاولتهم كما فشل هملر ــ ولكن الى حد ما •

ثم أن هذا جعل هملر لا يزال فى ريب من مقاصد وولف • مع أن كل شىء فعله وولف كان يبدو أنه على منهاج همـلر وسياسته التى ترمى الى انقسام الحلفاء • وأثناء وجود وولف فى سويسرا استطاع أن يعلم ما فيه

الكفاية عن رد الفعل في روسيا • وبذلك توفر له عذر يتعلل به • وربما أكثر من عذر ـ قد اتيحت له الفرصة حيث اصبح الان على دراية تامة بالموقف من جميع نواحيه • كما انطبع فى ذهنه شعور بنجاح غير منتظر اذا فسدت العلاقات بين دول الغرب والروس • وهنا يحق للمراقب أن يعجب هل كان وولف نفسه واثقا من أى نوع من السياسة كانت سياسته الحقيقية وهل كان متمشيا مع دالاس أم مع هملر ؟

ولقد ساور هملر نفس هذا الظن الذى اقلق باله وقرر أن يتحقق من ذلك . وكان فى اعتقاده أنه يعرف وولف حق المعرفة . فقد كان موضع ثقته ومحبته دائما • وكثيرا ما كان يعجب بنائبه الارستقراطى الذى كان يشغل منصبا على منأى منه • وكان وولف يتميز بالذكاء ويختلف كثيرا عن معظم تابعيه الآخرين • والان يستطيع هملر أن يستدعى وولف ويتحدث اليه كما اعتادا أن يتشاورا فى الايام الحالية • وبذلك يصل الى جذور الشك الذى طالما شغل باله حول ولاء نائبه السابق •

وكان هناك اكثر من اهتمام شخصى بموقف وولف فيما يدور بخلد هملر حول دور نائبه السابق فى ايطاليا • لان البريطانيين فى نفس الوقت رفضوا ما عرضه عليهم هملر شخصيا وكان رفض تشرشل فى شىء من الازدراء • وعلى ذلك بقى وولف والجيش فى ايطاليا آخر ورقة فى يد هملر • ورأى من واجبه أن يوضح ذلك لوولف ويجعله على بينة من الامر حيث لم يعد هناك مجال لارتكاب الاخطاء أو سوء التفاهم • فاستدعى وولف الى مقر قيادته لاجراء محادثات ملحة وعاجلة فى ١٧ أبريل • ولم يكن وولف يدرك تماما معنى هذا الاستدعاء ولكنه كان على يقين من أن رفض هذه الدعوة قد تؤدى به الى الهلاك بالرغم من تأكيداته السابقة لدالاس أنه لن يلبى دعوة لهملر أو هتلر • وبطبيعة الحال أعد وولف شفرة خاصة مع موظفيه فى فاسانو قبل مغادرته لكى يستدل على أن رسائله التى يبعث بها اليهم قد نقلت بمحض ارادته أو قسرا عنه • فقد كان يعرف مخابراته •

واجتمع بهملر أولا وبدا أنه لم يجد صعوبة كبيرة فى اقناعه أن مفاوضاته فى ايطاليا قد وضعت بحيث تتفق مع خطط هملر وآماله • وعاد وولف من مقابلته مقتنعا بان هملر يميل الى تصديقه ـ ولكن هملر اراد أن يتأكد من صحة أقواله . فأخبر نائبه السابق بعد انتهاء الاجتماع بأن كالتنبرنر يريد أن يتحدث اليه ايضا • وعلم وولف أن هذا سيكون الامتحان الحقيقى • وسرعان ما اكتشف أن رئيس هيئة الامن فى المخابرات يعلم شيئا عن رحلاته الى سويسرا واجتماعاته بكسلرنج وعلاقاته بدالاس وويبلن ، ثم ان

كالتنبرنر أخذ يستجوب وولف بدقة لمدة عشر ساعات عن كل حركة أتى بها • ودهش وولف عند ما تبين له أن كل خطوة اتخذها (وكان كالتنبرنر على علم بها) لكى يضع حدا للقتال يستطيع أن يفسرها على أنها جزء من الحل الذى أراده هملر • واستطاع أن يشير الى أن زيارة فليبت الى مجموعة F فى الجيش وما عرضه تيتو من اقامة جبهة مشتركة مع الالمان دليل قوى على انتصاراته • وفى الواقع رسمت هذه المقابلة صورة مشجعة للالمان وكان لها أثرها فى أنفسهم • وذلك لان وولف أوجد شعاعا من الامل فى برلين أثناء الفوضى التى اجتاحت جبهات الالمان فى الشرق والغرب • وقرر كالتنبرنر أن وولف يجب أن يجتمع بالفوهرر نفسه •

وأخذ وولف لمقابلة هتلر فى مخبأه فى برلين فى الساعة ٤ر٣٠ فى صباح ١٨ ابريل سنة ١٩٤٥ • وبدا هتلر متعبا مرهقا وطلب من وونف أن يعود فى الساعة الخامسة بعد الظهر • فعاد وونف فى هذا الموعد وأخذ يوضح موقفه لثانى مرة • وقال أنه اتصل بالحلفاء ــ كما حثهم هتلر على ذلك ــ لكى يضمن ان التسليم اذا تم فى الغرب يصبح فى استطاعتهم اقامة جبهة مشتركة مع الانجليز والأمريكان ومواصلة الحرب ضد الروس . وهنا قاطعه هتلر قائلا أنه لا محل للخضوع أو التسليم لغاية الان حيث يستطيع ايقاف الروس فى الشرق لمدة شهرين آخرين • وانه على يقين من أن التحالف بين الروس ودول الغرب سوف ينهار خلال تلك الفترة • وعلى ذلك حث وولف على مواصلة اتصالاته ولكن فى نفس الوقت عليه أن يقاتل من أجل كل شبر من الارض فى ايطاليا • وقال أن هذا أمر حيوى بالنسبة الى خططه لانه قرر أن يتحالف مع أول جيش يصل اليه ــ سواء من الروس أو من دول الغرب . واستنتج هتلر أن النهاية ستكون فى صالح الألمان •

وبدا لوولف ــ لفترة قصيرة ــ أنه قد تسبب فى احداث انقلاب لايصدقه العقل : لانه قد تفاوض فى ايطاليا بشأن التسليم للحلفاء مخالفا فى ذلك أوامر هملر • وفى نفس الوقت أثار أشد الوان الصراع بين الحلفاء مما هدد باشتباكات عسكرية فى الادرياتيك ــ وهو الامر الذى كان يريده هملر • ومع كل هذا فان الجيش فى ايطاليا لا يزال سليما • ولا تزال هناك فرصة قيمة لمساومة مضادة فى أية مفاوضات • ولكن وولف عند مغادرته المخبأ ليعود الى ايطاليا كانت كلمات هتلر الاخيرة ونصائحه النهائية سببا فى أن يفطن الى حقيقة الموقف • فقد أمره هتلر بأن يقاتل من أجل كل شبر فى ايطاليا ــ واذا لزم الامر ــ يتحالف فى النهاية مع الروس • ومعنى هذا نكبة كبرى للجيش فى ايطاليا وعقاب لقادته • وعند ما عاد وولف الى مقر قيادته فى فاسانو كان قد أقر رأيه •

وبالامس كان لا يزال يشعر بأن كل شيء يسير طبقا لخطة موضوعة وأنه لا يزال في مقدوره أن ينقذ المانيا من الدمار الى حد كبير · وهو يعلم الان أنه لم يبق شيء سوى ايجاد أفضل الطرق للوصول الى نهاية مشرفة · وأنه لم يعد هناك مجال للاختيار · كما أصبح في موقف لا يستطيع فيه أن يخدع أحدا . فهو لا يستطيع أن يخدع دالاس أو ويبل أو حتى نفسه لا يستطيع أن يغالطها ·

فعقد مؤتمرا يضم كبار الضباط جميعا وحضره فتنجهوف القائد الاعلى فى ايطاليا وكذلك قائد السلاح الجوى Luftwaffe وفون بوهل السفير الالمانى لدى موسولينى · ورئيس اركان الحرب روتيجر وجوليتر هوفر قائد التيرول . وتم الاتفاق على أن مواصلة القتال سوف تؤدى الى كارثة تامة . وان التسليم فورا قد ينقذ شيئا من الدمار · وطبقا لذلك أعلن فتنجهوف قائد المجموعة C من الجيش استقلاله عن القيادة العليا الالمانية وبذلك تتاح له حرية العمل على مسئوليته الخاصة · وبطبيعة الحال تنته المناقشة عند هذا الحد حيث كانت الاوهام التى تساور بعضهم لم تتبدد بعد · فقد أصر هوفر على أن أحد شروط تسليمهم يجب أن ينص على أن التيرول لا يحتلها الحلفاء بل تظل تحت سلطته·كما بدأ فى الحديث عن تنظيم انسحاب القوات الى سويسرا ومعهم اسلحتهم وان هذا قد لا يمكن تنفيذه · وحينئذ يكون التسليم الى السويسريين وليس للحلفاء · وسأل أحدهم ماذا يحدث لو أن الحلفاء اقتفوا أثرهم الى سويسرا ؟ وقطع وولف هذه المناقشات بعبارة مختصرة بشأن المراكز الدفاعية السويسرية فى الجنوب التى تستطيع مقاومة مثل هذه المحاولة لمهاجمة تسليم المانيا المسلح على أرض سويسرية ·

وصدر قرار المؤتمر بتفويض وولف لتسوية كل شيء مع دالاس · ثم أصدر فتنجهوف أوامره باتخاذ الاجراءات العسكرية التى نص عليها القرار· ومن حيث الجيوش الالمانية فى ايطاليا فان مصيرها قد تقرر · ولم يعد هناك مجال لمقاومة اخرى بعد ذلك اذ نصح فتنجهوف جميع قادته بأن المقاومة منذ تلك الليلة أصبحت أثرا بعد عين ولن تتخذ اجراءات ضد رجال الاحزاب طالما لم يهاجموا مراكز الالمان · وسرعان ما ظهرت النتائج التى أسفرت عنها أوامر فتنجهوف · فقد ظهر أن الحلفاء قد تقدموا عشرين ميلا فى مدى الاسبوعين منذ أن بدأوا عدوانهم فى الربيع ولكن ما لبثوا أن زادت سرعتهم وبدأت جيوش الحلفاء فى اكتساح الخطوط الالمانية تؤيدها جميع — المواطنين . ومن الناحية العسكرية قضى الأمر بالنسبة للألمان فى ٢٥ أبريل . ولم يعد هناك مجال للتقهقر كما أن اطلاق النار لم يوقف وبدا أن وولف قد أخطأ فهل تفوق آلان دالاس فى النهاية ؟

ولم تلجأ مخابرات الروس أو الحلفاء الى الركود خلال هذه الايام المثيرة • فقد كانت على بينة من كل حركة أتى بها وولف ومن كل ما أتى به هملر أو كالتنبرنر من حركات وسكنات : كانت على علم بذهاب وولف الى هملر كلما استدعاه لمقابلته • وعلمت بحديثه الودى الذى اجراه معه • وبمقابلته الطويلة التي تمت مع كالتنبرنر وتأكيداته له بأنه كان يرمى الى انقسام الحلفاء • ثم قبول كالتنبرنر لجميع ما تحدث عنه • واخيرا زيارته للفوهرر • وكل هذا لم يؤثر على الحلفاء اعتمادا على تعهدات وولف المتكررة بأن هتلر وهملر لا يعلمان شيئا عن علاقته بالحلفاء وانه لا يعمل بوصفه ممثلا لهم • وفي اليوم الذى توجه فيه وولف لزيارة هملر كان الحلفاء قد بلغهم عنه مافيه الكفاية • كما علم دالاس بأن جميع العلاقات مع وولف وزملائه يجب أن تقطع فورا • وفى ٢١ أبريل أخبر دالاس ميجر ويبل الذى أصبح يشعر بالحزن والاسى بأن الامر قد انتهى • ويعدو الامر كما لو كان صديقهم جنرال وولف كان يلجأ للخداع والمراوغة في معاملتـه ـ أو كان يحـاول ذلك ـ ولكنهم وضعوا حدا لهذا العبث . وهكذا وضع دالاس صورة للموقف أمام ويبل . وفى واقع الأمر كان دالاس هو الذى أوحى بقطع المحادثات • ظنا منه أن هذا الوضع يدع له مجالا لاجراء مناوراته وكان على حق فى ظنه هذا•

وذلك لانه عند ما شعر ويبل بأن جهوده خلال الشهرين الماضيين قـد ذهبت أدراج الرياح • وان آماله فى انقاذ ايطاليا الشمالية من دمار شامل قد تبددت واذا به يتلقى رسالة عاجلة من باريللى يقول أن وونف فى طريقه ومعه اعتماد مكتوب بالمفاوضة حول تسليم القوات الالمانية فى ايطاليا • وكان على ويبل أن يفكر سريعا فيما يقر رأيه عليه • وكما يحدث غالبا فى مثل هذا الدور الغريب الذى يقوم به احد كبار الضباط السويسريين • قام ويبل باستشارة الرجل الوحيد الذى كان يتابع سير مهمتـه فى شىء من الادراك والقلق ـ وهو جنرال جيسان • ووافق هذا على أن ويبل لابد له الا يتخلى عن جهوده فى هذه المرحلة • واكتفى ويبل بذلك وقرر أن يلعب دور الوسيط مرة اخرى حيث لم يجد لذلك بديلا •

ولما وصل وولف وصحبه الى شياسو Chiasso أخذهم ويبل الىضيعة قريبة وأوضح لهم أن هناك عقدة خطيرة من ناحية الحلفاء • ولكنه لم يذكر لوولف أن الامريكيين قد قطعوا جميع الاتصالات • وطلب الى وونف الا يعود الى ايطاليا بل يأتى الى لوسيرن ضيفا عليه ريثما يسوى الامر مع دالاس • وعلى الفور اتصل ويبل بدالاس وطلب منه القدوم الى لوسـيرن • ووافق دالاس على ذلك ولكنه أكد أن لديه أوامر مشددة بألا يتعامل مع وولف •

ثم جاءوا جميعا الى لوسيرن حيث كان رئيس الشرطة والمخابرات الالمانية مع كبار ضباطه في انتظارهم بينما كانت الحرب فى ايطاليا قد اشتد أوارها وبلغت ذروتها حيث تقدمالحلفاء وأثار المواطنونثورة علنية . وأما وولف فقد ظل فى دورنباخ Dorembach ضيعة ويبل ٠

وفى أثناء ذلك توجه ويبل لزيارة دالاس في فندقه بجانب البحيرة فى لوسيرن وحثه على اتخاذ خطوات عاجلة لاعادة النظر فى الاوامر التى منعته من قبول التسليم الذى يعرضه وولف . ولكن دالاس لم يكن فى عجلة من أمره فقد كان الحلفاء يكتسحون العدو شمالا وهذا قد يجعل الالمان أكثر انقيادا واذعانا . وكان دالاس قد تلقى درسا نموذجيا من محادثاته مع وولف حول الاخطار السياسية التي ما زالت تكمن في مراحل الحرب الاخيرة٠ وأما ويبل فانه لم يفهم معنى لتردد دالاس ٠ وكان متأثرا لخسارة الأرواح والممتلكات التي لا ضرورة لها . تلك الخسارة التى تنجم عن تصرف دالاس اضاعته للوقت . وبتاريخ ٢٤ أبريل أرسل دالاس اشارة الى قيادة الحلفاء فى كاسرتا وجاءه الرد من الكسندر في اليوم التالى ٢٥ ابريل بأنه على استعداد لمقابلة الضابطين الالمانيين ولكنه فى انتظار التعليمات من السلطات العليا ٠

وهنا رأى وولف أنه لا يستطيع الصبر طويلا بينما كل شيء فى ايطاليا يبدو أنه في طريقه الى الدمار لان مقر قيادته على بحيرة جاردا تقرر نقله الى الخلف فى بولزانو فى قلب منطقة دلماسيا Dolomites ٠ وكان موسولينى يجرى مفاوضات مع رئيس اساقفة ميلان ولم تكن هناك جبهة يمكن الاستدلال عليها ٠ وشعر وولف بأن دالاس قد خدعه بطريقة ما ليقوم بمهمته التى أدت لان يصدر فتنجهوف أوامره فى ٢٢ ابريل والتى كانت نتيجتها التراخى فى مقاومة القوات الالمانية (ونسى أن هذه كانت اتجاهات هتلر أكثر مما يرمى اليه دالاس وهي الاتجاهات التى أقنعته بصلاحية التسليم) ٠ ولكن قبل أن يعبر وولف الحدود الى ايطاليا ذكره ويبل بمناقشة حدثت من قبل ٠ حيث قال وولف أنه قد اخفى معظم كنوز الفن المضبوطة في ايطاليا لكى لا تقع فى أيدى زعماء النازى فى المانيا ـ ثم سأله ويبل أن يزوده بمعلومات أوفى ٠ فقدم اليه وولف قائمة ببيان أماكن الاخفاء بالضبط ٠ واسرع ويبل بتقديم طلب للحلفاء بتجنب القاء القنابل على هذه الاماكن على قدر المستطاع ٠

ومر يوم ٢٦ ابريل دون أن ترد انباء من وولف فى ايطاليا أو من وشنطن لدالاس . وكان الضابطان الألمانيان باقيين فى لوسيرن فى انتظار السفر الى

كاسرتا • ولكن بعد ذلك فى المساء جاءت وردت الانباء بأن وولف لم يستطع الاتصال بفتنجهوف أو الوصول الى مقر قيادته على بحيرة جاردا • فقد رأى أن يتخذ طريقه الى ميلان بدلا من قيادته • واسفر البحث عن عدم الاستدلال على وولف أيضا • وحتى القيادة الالمانية المحلية فى سرنوبيو Cernobbio على بحيرة كومو لم تستطع الاتصال به • وبدا الامر كما لو كان قد وقع فى أيدى الحزبيين • فقرر ويبل أن يساهم فى البحث عن وولف حيث كانت لديه مهمة هامة يريد أن ينجزها اذا أمكن انقاذ ايطاليا من فوضى شاملة •

وبوصول ويبل الى لوجانو علم أن وولف قد أحاطت به فئة من المواطنين بالقرب من سرنوبيو على مسافة عشرة اميال من الحدود السويسرية فى شياسو • وقرر ويبل أنه لابد من الحصول على وولف بطريقة ما • ودبر الاتصال باصدقاء له من بين الحزبيين الايطاليين ولكن هؤلاء لم يستطيعوا الاستدلال على المجموعة المسئولة عن هذا الامر فى سرنوبيو • وشعر ويبل بطبيعة الحال بأنه لم يعد هناك مجال لضياع الوقت وتوسل لاصدقائه من بين المناضلين كى يساعدوه فى تنظيم فريق للبحث عن وولف • ولم يدم الوقت طويلا حيث بعد منتصف الليل كان زعيم أمريكى من الحزبيين يدعى فرانكو ليفيو ويعرف بين رجاله باسم أميكو سكوتى Scoti وضابطان المانيان لضمان وولف ونفر من الايطاليين وعلى رأسهم ويبل مسافرين فى طريق ثانوى الى سرنوبيو • وتعرض الجميع لاطلاق النار عليهم من مجموعات أخرى من الثوار . ولكن المهاجمين اطمأنوا بوجود سكوتى بين الفريق • ثم عادوا بعد ثلاث ساعات ومعهم وولف وويبل الذى تنفس الصعداء • الصعداء . وهكذا كان خلاص رئيس المخابرات على يد الثوار الايطاليين !

وكان الموقف يتغير من دقيقة الى أخرى • ففى ذلك اليوم اخطر تشرشل ستالين بأن الالمان مستعدون للتسليم فى ايطاليا • ولكن الظروف فى شمال ايطاليا وصلت الى مرحلة حيث أفلت الزمام من كل من الجيوش الالمانية وقوات الحلفاء • وأخذ الثوار فى السيطرة على الموقف • ولكن الامر لم يكن بسيطا الى هذا الحد • فقد ظهر ما تنبأ به دالاس من قبل . حيث أسر الى ويبل عند ما بدأت مشكلة الخلاف مع الروس أنه يعتقد أن أحد الاسباب التى دعت الروس الى عدم الموافقة على تسليم الالمان فى ايطاليا قبل الاوان هو أن الشيوعيين لم يكونوا على استعداد للاستيلاء على زمام الامور • وللسبب ذاته طالب دالاس باطلاق سراح القائدين من رجال الثورة بارى وأوسميانى لكى يستأنفا زعامة المجموعات غير الشيوعية •

وكان الروس يعملون على تأخير التسليم العسكرى مدة كافية لكى يزول الخطر من زحف سريع للحلفاء نحو حوض الدانوب الذى كانوا يرغبون فى الاشراف عليه دون منافسة الحلفاء لهم ولكن موضوع المنتمين للاحزاب كان لا يزال فى كفتى الميزان • وكانوا فى حاجة الى بضعة أيام اخرى وعدم التعجيل فى انهاء الحرب حيث يتاح للسلطات البريطانية والامريكية فرض نفوذها على المنطقة الايطالية الشمالية التى قد يتمكن الشيوعيون من الاستيلاء عليها • وكل شىء رآه ويبل أو سمع به فى بعثته التمثيلية الى سرنوبيو اقنعه أن الوقت لا يزال يسمح له ـ حتى فى هذه الفترة ـ لكى يمضى فى سيره الى الامام • فكل يوم يستغله قد يكون له اهميته •

وعلى ذلك اقترح ويبل أن يذهب كل من وولف وزيمر الى الحدود النمساوية السويسرية فى بوخس Buchs حيث تتاح لهما فرصة طيبة للوصول الى مقر قيادتهما فى بولزانو • وفى اليوم التالى كان وولف فى مقر قيادته الجديد • وفى نفس الوقت علم ويبل أن عليه أن يصطحب الضابطين الالمانيين الى كاسرتا للتوقيع على شروط التسليم فى اليوم التالى• وتمت الاجراءات الرسمية فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٢٩ ابريل وعاد الضابطان الالمانيان من ايطاليا ـ عن طريق سويسرا ـ الى مقر القيادة فى بولزانو • وتقرر عقد الهدنة فى ظهر ٢ مايو •

واثناء ذلك الوقت اجتمع وولف بزملائه ورئيسه فى جلسة صاخبة استمرت طول الليل حيث لم يقبل هوفر تأكيدات وولف بأنه كان من المستحيل تنفيذ الشروط التى سبق أن أصر عليها • وهى أن التيرول لا تحتلها قوات الحلفاء • ولكن عند ما بدا أن الامور قد استقرت عادت فتعقدت واكفهر الجو اخيرا • لان وولف وفتنجهوف اتفقا على أن يتولى الزعيم الحزبى مسئولية القانون والنظام فى الاقليم ويتصل بالقائد الامريكى فى هذا الشأن • واعتبر هوفر هذا التصرف المستقل استخفافا بسلطته وقرر أن يتخذ اجراءاته مستقلا عنهما •

فكان أول شىء فعله أن اتصل بالتليفون بكسلرنج وابلغه أن فتنجهوف وولف قد نفذا التسليم دون تفويض منه (لان كسلرنج اصبح القائد الاعلى لجميع القوات فى الجنوب الغربى منذ ذلك اليوم) • وفى نفس الوقت أصدر هوفر أوامره بالقاء القبض على الالمان والايطاليين الذين ظنوا انهم اصبحوا آمنين واخذوا يتجولون فى كل مكان • وبعد محاكمة تدعو الى السخرية حكم عليهم بالاعدام • ثم أمر كسلرنج بطرد فتنجهوف ورئيس أركان حربه روتيجر Rottiger وعين ضابطين آخرين مكانهما ولكنه لم يحاول

الاتصال بوولف الذى سبق أن أوضح له مقاصده مساء رحيله الى سويسرا قبل خمسة أيام • ثم اتخذ كسلرنج علة اخرى لتبرير مسلكه مع وولف • وأما فتنجهوف فقد رضى بطرده ولكنه لم يقبل طرد رئيس أركان حـربه روتيجر الذى حل محل رئيسه وألقى القبض على الضابطين الجديدين اللذين عينهما كسلرنج واصدر أوامره بالسير فى اجراءات التسليم • واصبح الجو الان مشحونا بعوامل الارتباك والاضطراب الى اقصى حد • فقد رفض بعض كبار الضباط قبول روتيجر قائدا لهم وخشى وولف من أن كالتنبرنر قـد يغتاله • وأخذ هوفر يعمل على الاخـذ بالثـأر من وولف وانصـاره ثم أن الضابطين الالمانيين أثناء عودتهما من ايطاليا بشروط التسليم ــ وهما يجهلان ما يجرى فى مقر القيادة ــ كانا عرضة لاطلاق النار عليهما بمعرفة هوفر أو الجستابو اذا عثر عليهما وفى حيازتهما هذه المستندات •

هذا • وكان موت هتلر بعد قليل قبل منتصف ليل أول مايو بمثابة انقاذ للموقف بالنسبة لكسلرنج وأولئك الضباط الآخرين الذين كانوا فى صراع مع ضمائرهم لآخر لحظة • وعلى أية حال فان كسلرنج فى الساعات الاولى من صباح اليوم التالى ــ قبل أن يسمع بوفاة هتلر ــ أمر باعتقال اكثر الضباط المنشقين فى ايطاليا • ثم اجرى محادثة تليفونية صاخبة مع وولف بدأت فى الثانية صباحا وانتهت فى الرابعة • وبعد نصف ساعـة علم كسلرنج بالنبأ وفى الحال وافق على التسليم وتمت الاجراءات ظهر ذلك اليوم • وبذلك ألقى مليـون فى الجنـود الالمان أسلحتهم ووضـعت الحرب أوزارها فى ايطاليا •

ولكن بقيت هذه الاسئلة : هل كان الامر يستحق العناء ؟ وما الذى ربحه ويبل من مخـاطرته بالتدخل فى الامر ؟ وما الذى كسبه دالاس للحلفاء بمشاركته فى النضال ؟ وما هى مكاسب وولف ؟

ولكى نجيب على هذا علينا أن نعود الى جيسان • فنرى أنه لم يكن حاضرا فى أى وقت خلال التطورات التمثيلية فى الجبهة الايطالية ومع ذلك لعب دورا حاسما للوصول الى النهاية . وذلك لأن مراكز الدفاع فى حصن الجبل ووضع الاستعداد المستمر مما اقنع الالمان بأنه لم تكن هناك فرصة سهلة لاختصار الطريق عبر سويسرا ــ ولا حتى فرصة شائكة • وذهب جيسان فى رده على الالمان الى ابعد من ذلك • حيث أدرك الالمان المتقهقرون فى ايطاليا أن سويسرا فى المؤخرة ليست دولة صديقة أو مجرد محايدة • وان الهروب الى سويسرا أمر غير مستطاع لما ترتب على ذلك من احتجازهم ان لم يكن

مصيرهم الى السجون • واحاطت الاحداث بالالمان من كل جانب منذ أن قرر جيسان أنه لن يكون هناك ضمان لاستقلال سويسرا مالم تلحق الهزيمة بهتلر وجيوشه . **ومن هنا تطورت سياسته الى حياد فعال مسلح . ولم يكن حياد سويسرا أكثر فاعلية مما كان خلال هذه الأسابيع •**

ومنذ سنة ١٩٤٣ كان جيسان يراقب الجبهة الايطالية بمزيد من القلق • وأخذ يواصل تقوية وتدعيم الحدود السويسرية المواجهة للجنوب • وكان رئيس أركان حربه يحذره من أن الالمان اذا كانوا فى خطر من عدم استقرارهم في ايطاليا فانهم سيحاولون الاستيلاء على ممرات جبال الالب عبر سويسرا • وخلال الاسابيع الاولى من سنة ١٩٤٥ تبين لجيسان مدى التهديد المتزايد من ناحية الجنوب •

وعلى ذلك عند ما علم باتصال الالمان بميجر ويبل وما ترتب عليه من تدخل ويبل فى الامر • رأى جيسان فى هذه الحركة اكثر مما أدركه رئيس قسم مخابراته الذى كان متأثرا بنواحيها الانسانية التى لا شك فيها•وكان جيسان رجلا واقعيا في قرارة نفسه حيث شارك ويبل فى اهتمامه بالوجهة الانسانية كما أدرك مدى النتائج السياسية والعسكرية التى تنجم عن توسط ويبل فى الامر • ووافق جيسان على مقترحاته عند ما تبين له موطن الخطر • وذلك لانه رأى اذا قدر النجاح لويبل فسوف يتم تسريح الجيوش الالمانية فى ايطاليا ونزع سلاحها قبل أن تشكل تهديدا محققا فى آخر الامر •

ولم يكن جيسان يؤمن بالاسطورة التى ملأت صحف الحلفاء حول عزم الالمان على اقامة حصن وطنى فى جبال بافاريا • وسبق أن فسر موقفه فى سنة ١٩٤٤ بأن انشاء مراكز الدفاع فى الجبال قد استغرق ما يزيد عن السنتين لتكون ذات أثر فعال ضد المهاجمات البرية والغارات الجوية • وفى الواقع لم يبدأ الالمان فى عملياتهم بصورة جدية حتى صيف سنة ١٩٤٤ حيث كانت تنقصهم القوى العاملة والمعدات اللازمة • كما ذهب جيسان فى ايضاحه الى أبعد من ذلك حيث قال أن طبيعة جبال بافاريا لا تصلح لاقامة الحصن كالجبال السويسرية لان أوديتها اكثر اتساعا وأقل عمقا • وتكوين الجبال يجعل من السهل مهاجمتها من الجو بخلاف الجبال السويسرية • وقال جيسان أنه لا يمكن اقامة حصن بهذه الصورة الارتجالية وهذا ما كان الالمان يحاولون تنفيذه • والحقيقة الوحيدة أن الالمان لا يزال لديهم جيش قوى سليم فى ايطاليا • وسوف يصبح هذا مشكلة أمام السويسريين أو الحلفاء أو أمامهما معا •

ورأى جيسان فى مشروع ويبل وفى جهوده الانسانية وسيلة لتقليم أظافر الجيش الالمانى فى ايطاليا وهو لا يزال على جانب من الخطورة • ولضمان التجائه الى التسليم • لان ويبل لم يساعده فى انقاذ ايطاليا الشمالية من الدمار وانقاذ الكثير من أرواح الالمان والايطاليين والحلفاء من موت محقق فحسب • بل صان سويسرا ايضا من قيام جيش يائس بتهديدها فى النهاية • وكان لجيسان الحق فى اقناعه بهذا المثال المثال الاخير للحياد ذى الاثر الفعال •

ولكن ويبل باصراره وتصميمه على انقاذ ايطاليا الشمالية قد اتاح ايضا لألن دالاس أن يلعب دورا كانت نتيجته قرار القيادة الالمانية فى ايطاليا بايقاف مقاومة فعلية اخرى • وكان ذلك بتاريخ ٢٢ ابريل • ولم تكن خطط ويبل أو دالاس ترمى الى هذا الهدف ولكن مهارة دالاس فى استغلال المواقف التى أوجدها ويبل لاسباب اخرى اتاحت للحلفاء خلق ظروف جعلت من المستحيل للجيش الالمانى فى ايطاليا أن يستأنف مقاومته • وكان هذا القرار أحد القرارات البالغة الاهمية خلال فترة الحرب حيث انقذ أرواح عدة آلاف من قوات الحلفاء •

وبسبب هذا البرنامج الدقيق استطاع الحلفاء ايضا أن يتكهنوا بثورة الشيوعيين ومقابلتها بحضور بارى وأوسميانى اللذين تمكن ويبل من الحصول على الافراج عنهما فى وقت مناسب . كما تمكن دالاس ــ بمساعدة السويسريين من التأثير على الالمان بأنهم انما يضيعون وقتهم سدى اذا كانوا يأملون فى انقسام الحلفاء والحصول على صلح منفرد مع الغرب • ولكن وولف أوجد ارتباكا فى الامر بتصرفاته المزدوجة التى اثارت شكوك الروس وكادت تسبب اشتباكا طالما سعى دالاس لتجنبه • وقد كان من دواعى اغتباط دالاس تلك المكاسب التى حصل عليها الحلفاء نتيجة لهذه المفاوضات الغريبة التى جاءت من وحى السويسريين •

وليس من شك فى أن وولف قد ساهم ــ الى حد كبير ــ فى انقاذ ايطاليا الشمالية من تدمير شامل • وفى خلاص كميات كبيرة من كنوز الفن الايطالية من ايدى النازى • كما ساهم فى انقاذ أرواح عديدة من الحلفاء والايطاليين والالمان وبضع مئات من سجناء النازى البارزين ومن بينهم ليون بلوم Blum وشوشنج Schuschnigg وباستور نيمولر Niemoeller ثم ان وولف كان فى موقف صعب دون شك• ولم يكن أمامه الطريق واضحا فى كل وقت لكى يتبين مداه أو يدرك أنه يعمل لمصلحة من • ولكن أعماله

فى ايطاليا أنقذته من النتائج الاشد خطورة التى دلت عليها ملفاته ايام أن كان نائبا لهملر والنازى فى أوج عظمتهم وجبروتهم · وأوحى اليه خياله أن يتقدم للمحاكمة بدلا من رئيسه المتوفى · ولكنه لم يقبل فى نورنبرج ممثلا لهملر The Ersatz · وبعد ذلك حضر عدة محاكمات لتقديم أدلته على الدفاع بما فى ذلك محاكمة هوس Hoess قائد Auschwitz · ثم نجا من اتهامه فيما يتعلق « بالحل الاخير » للمشكلة اليهودية (وكان ذلك مكافأة له على سلوكه فى ايطاليا) ولكن فى سنة ١٩٤٦ حوكم أمام محكمة ألمانية وصدر الحكم بسجنه أربع سنوات مع الشغل لما نسب اليه من التجارب التى أجريت على السجناء فى معسكر الاعتقال فى داشو Dachau وافرج عنه فى سنة ١٩٤٩ ·

وهكذا تسنى لجيسان ـ وقد اقتربت النهاية ـ ان يعود بنظره الى هذه الاسابيع والاشهر الاخيرة ليجد مبررا لموقفه العنيد ضد سياسة التراخى التى انتهجتها حكومته · ولم تكن سياسة الاستعداد هى التى أدت رسالتها فحسب بل أيضا تفسيره للحياد بأن يكون حيادا مسلحا يتيح له التدخل بصورة ايجابية · ففى الجنوب قام ويبل بعمله خير قيام وكذلك الحصن ومراكز الدفاع حققت الغرض منها · وفى الشمال نجح بتعاونه مع القائد الفرنسى جنرال دى لاتر دى تاسينى De Lattre de Tassigny فى منع هروب الالمان الواسع النطاق ودخولهم سويسرا · فقد شجع القائد الفرنسى على التحرك بقواته المسلحة بسرعة الى الفجوة بين الحدود السويسرية وقوات الالمان المتقهقرة وكان على اتصال وثيق به اثناء تقدم القوات الفرنسية ·

وقد تبين لجيسان ـ اكثر من أى وقت مضى ـ فى نهاية هذه الحرب الطاحنة لماذا بقيت سويسرا سليمة مستقلة ـ وعلى حد التعبير الرسمى ـ محايدة · فلم يكن هذا يرجع الى ضمان الدول لها · أو نتيجة لقبول الدول المحاربة فكرة الحياد · أو لان السويسريين كانوا يلوحون بالتزام الحياد فى كل الأوقات الممكنة وفى بعض الظروف المحرجة . **بل بقى السويسريون أحرارا وفى سلام لأنهم كانوا على استعداد للحرب · وهيأوا أنفسهم للقتال . وفوق كل ذلك لانهم أدخلوا فى روع كل من فكر فى مهاجمتهم أنهم لن يهزموا الا بعد أن يدفع المهاجم الثمن غاليا . وكان الثمن الذى قدره جيسان لاستقلال سويسرا أكثر بكثير مما كان فى مقدور هتلر ·**

فقد كان جيسان على استعداد للتضحية بثروة البلاد والشعب من أجل الحرية والاستقلال ومن ذلك ادخل فى روع كل من يحتمل أن يعتدى على البلاد أنه مصمم على المقاومة كما انطبع ذلك الاتجاه فى أذهان القوم فى سويسرا • ووقف السواد الاعظم من الشعب وراء تصميمه هذا • وكان يأخذ بيدهم ويشجعهم كلما استولت عليهم عوامل التردد والخذلان • وعمل على حفظ مستوى روحهم المعنوية حتى فى أحلك الازمات وفترات التهديد •

ولما كان القوم على غير استعداد فى سنة ١٩٣٩ و سنة ١٩٤٠ أرغم جيسان الالمان على التوقف بتمويهه المتقن بعرض قوته التى لم يكن يملك منها شيئا • ولكن الامر لم يعد تمويها بعد سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٤٥ حيث أصبحت قوته أمرا واقعيا • ولانها كانت قوة حقيقية لم يلجأ الى تجربتها • وعلى ذلك يمكن القول بأن سويسرا كانت مدينة باستقلالها وحريتها طيلة فترة الحرب الثانية الى مذهب الاستعداد للدفاع الذى اعتنقه جيسان مع الوحدة القومية وروح التصميم • وكانت هذه هى العناصر الاساسية للسياسة التى فرضها على البلاد بارادته • وضد ارادة الحكومات التى كانت قائمة فى عهده • وضد رغبة الكثيرين من كبار زملائه فى الجيش • وكان جيسان رمزا للمقاومة عند ما كان بمفرده فى القارة ضد الريخ الالمانى وعلى رأسه هتلر • كما كان مثالا للحياد المسلح الفعال • الذى بدونه لم تستطع سويسرا البقاء فى ظل الحرية والاستقلال محتفظة بكرامتها وسلامتها •

الخــاتمة

الجهد المستحيل : التزام الحياد

بعد أن قضى الامر حذر جيسان مواطنيه من اساءة فهم مذهب الحياد · فقد أدرك أكثر من أى فرد آخر أن الحياد ليس شيئا مرسلا من السماء الى السويسريين أو درسا عليهم أن يلقنوه لغيرهم واضـاف أن التزام الحيـاد والحذر من الارتباط بعهد ليس شيئا مفضـلا على حين يقوم آخرون بأداء واجباتهم والتزاماتهم · وكانت تلك عبرة جاءت فى حينها دلت على أن الحياد المسلح ليس افضل سبل الحياة ولكنه لون من الوان السياسة الخارجية التى تتغير مع الايام والتى ينبغى أن توضع بحيث تناسب الاحتياجات الجـارية طبقا لزيادتها أو قلتها ·

ولم يلق تحذير جيسان اهتماما كبيرا من السويسريين أو من غيرهم · فعلى مر السنين سرعان ما اصبحت مادة الحياد فى زوايا النسيـان واتخـذ الشبح لونا جديدا من السلطة · واصبحت الامم الحديثـة ترغب كثيرا فى التزام موقف الحياد · وكانت الهند على رأس القافلة وتلاها الرئيس جمال عبد الناصر · وفى مستهل سنة ١٩٦٠ سار على النهج اكثر الدول النامية فى آسيا وافريقيا وبعض الدول القديمة العهد·واصبح الحياد وعدم الانحياز والحيادية والحيـاد الايجـابى ــ على اختلاف مسمياتها ــ شـعارات لامعة للسياسات الدولية ·

والايضاحات الواردة بالقاموس يرجع عهدها الى اربعة قرون مضت · وكانت جميع العبارات المستعملة قديما تتناول العـلاقات الدوليـة · ففى القرن الخامس عشر كانت الدولة المحايدة هى التى تلتزم الحياد بين دولتين· وفى القرن السادس عشر كانت التى لا تنحاز الى أحد الفريقين فى حالة الحرب · أو لا تعبأ بأى نزاع يقوم بين طرفين · وفى القرن الثامن عشر كان يعنى : قوة لاتقوم بأى نشاط خلال نشوب الحرب ، مع اختلافات فى هذه الآراء · ولكن فى القرن التاسع عشر تطورت المعـانى الجـديدة فاصبحت تتناول الميكانيكيات والكهرباء والضوء بصورة مطلقة · ثم فى أوائل الحرب

العالمية الاولى سنة ١٩١٣وجهت الطبعة الجديدة مندوائر المعارف البريطانية عناية خاصة الى موضوع الحياد · ووصفته وصفا واضحا بانه الفرع المتقدم أكثر من أى فرع من فروع القانون الدولى . وأن الرغبة فيه أكثر من غيره . ووضع الحياد مفصلا فى سبع واربعين مادة تم الاتفاق على اعتبارها الاسس الجوهرية للحياد فى مؤتمر الصلح فى لاهاى سنة ١٨٩٩ · وكان منالمتوقع أن يتقدم أكثر فى هذه النـاحية عندما أعيد عقد مؤتمر الصلح وأدرجه فى جدول اعماله سنة ١٩١٥ ·

وقد يعتبر القارىء فى سنة ١٩٦٠ هذا موضوعا مسليا نوعا ما · ولكن هل كنا واقعيين اكثر فى ايامنا نحن · وهل نحن أحسن حالا اليوم ؟وأمامنا الحرب العالمية الثانية التى تضمنت دولا كبرى ذات نفوذ اعلنت حيـادها وكانت فى الواقع اقوى الـدول المتحـاربه : فأعلنت حـكومات الاتحـاد السوفييتى والولايات المتحدة التزامها الحياد عدة مرات وكذلك اسكندناوه والأراضى المنخفضة قبل اشتراكها فى الحرب ·

ومما يرشدنا لفهم معنى هذه الاتجاهات أن نبين موقف كل من الدولتين العظيمتين فى عالم اليوم . ثم نعود بتفكيرنا الى الموقف الذى اتخذتاه خلال السنين السابقة لقيام الحرب العالمية الثانية · فنجـد أن الرئيس روزفلت ذكر فى رسالته الى الكونجرس فى ٣ يناير سنة ١٩٣٦ فيمـا يتعلق بقوة النازى المتزايدة فى أوروبا وقال « ان الولايات المتحدة وبقية الامريكيين فى استطاعتهم أن يلعبوا دورا واحدا : بواسطـة حيـاد منظم على أحسن وجه نتجنب أن نفعل شيئا يشجع على اثارة النزاع · وباعداد الدفاع المناسـب ننقذ أنفسنا من التورط فيما بين صراع ومهاجمة ··· » وفى تلك السنـة فيما بعد فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ وجه الرئيس تقديرا الى بلاده من الاف الامريكيين الذين ينتهزون فرصة حرب عامة « فيطيحون بحيادنا أو يتجـاوزون عنـه » سعيـا وراء منـافع أكثر ــ « الذهب الذى يجرى وراءه الاغبياء » · وهـكذا وصفهم روزفلت · واختتم تحـذيره بان أعلن « نحن نتحاشى الالتزامات السياسية التى قد تورطنا فى حروب خارجية : كمـا نتجنب أن تكون لنا علاقة بعصبة الامم » ·

ولم يحدث هناك انحراف عن هذا الاتجاه · وقبل قيام الحرب العالميـة الثانية فى أوروبا بستة اسابيع لخص وزير خارجية امريكا ــ كوردل هل Hull ــ رسالة الرئيس والشعور السائد فى مجلس الشيوخ فىحديث له بتاريخ ١٤ يولية سنة ١٩٣٩ حيث قال « ان الجانبين متفقان على أن هذه

الامة ينبغى لها فى كل وقت ألا تتورط فى أحلاف أو ارتباطات مع الامم الاخرى • واتفق الجانبان على أنه فى حالة قيام حروب خارجية يجب على هذه الامة أن تلتزم جانب الحياد المطلق • وحول مبنى الحياد نستطيع أن نشكل سياستنا بحيث نجعل هذه البلاد فى منأى عن الحرب • »

ولم يكن اتجاه السوفييت يختلف كثيرا عن ذلك • فقد وصفه ايزاك دوتشر Deutscher فى كتابه عن « تاريخ حياة ستالين » بأن ستالين لم يفته شيء فى هذا الاتجاه الا أعجب به • فقد كانت فكرته الاساسية أن يتجنب الحرب لانه « لا شيء يناسبه أفضل من أن يقف موقف المتفرج فى أول الامر ثم يكون حكما فى النزاع بعد ذلك • وانه لا يستطيع أن يشبع رغبته هذه الا بمعاملته مع هتلر : لأن التحالف مع الغرب كان لابد أن يرغم الروس على القتال فى أول يوم اشعلت فيه نار الحرب • »

وقد أوضح مولوتوف سياسة ستالين أمام المؤتمر الثامن عشر للحزب فى اجتماعه فى مستهل الحرب فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٩ . وتحدث عن سلوك الاتحاد السوفييتى حيال الدول الاخرى وقال أنه سيكون كما يأتى : « مواصلة سياسة السلام وتدعيم العلاقات التجارية مع جميع الدول • مع التزام جانب الحذر بالا نسمح لمحبى الحروب بجر بلادنا الى اتون الحرب • وهم الذين اعتادوا أن يجعلوا من الآخرين مخالب القطط •

وبعد مضى شهرين فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٣٩ كان حديث مولوتوف واضحا معبرا عند ما خاطب مجلس السوفييت الاعلى فى الدورة غير العادية حيث قال لأعضاء الوفد « ان بلادنا بوصفها دولة محايدة لا تهتم بتوسيع نطاق الحرب وسوف نتخذ كل اجراءات ممكنة للتخفيف من ويلات الحرب وما تحدثه من الدمار وسوف نضعف من حدتها ونعجل بنهايتها لصالح السلام • وبناء على هذا الاتجاه فان قرار الحكومة الامريكية برفع الحظر المفروض على تصدير لاسلحة الى الدول المتحاربة سوف يثير شعورا خطيرا بعوامل الشك والخوف » • وأخذ مولوتوف يندد بمساعى روزفلت لتزويد بريطانيا وفرنسا بالاسلحة •

ولكن هاتين الدولتين القويتين لم تستطيعا الاحتفاظ بحيادهما أكثر من معظم الدول الضعيفة الاخرى التى اعتمدت كل الاعتماد على وعود هتلر وتأكيداته المتكررة . فلم تكونا فى موقف يتيح لهما منع هجمات اليابانيين والالمان عند ما شنوا هجومهم •

ثم هناك نوع آخر من الحياد الفاشل علينا أن نتدبره لحظة • وهو الحياد النظرى • فقبل الحرب العالمية الاولى كانت الحركة القوية للاشتراكية الدولية منصرفة لمواجهة الحروب ومناهضتها باتخاذ اجراءات دولية • واعلنت أن المصالح الدولية للطبقات العاملة ليست فى جانب أحد الطرفين • ولما اقبلت الحرب فشلت كل محاولة لالتزام أى نوع من الحياد فشلا تاما • ولم ينجح التدخل الامن ناحية لينين والبلشفيك ولكنهم لم يكونوا فى موقف محايد • وكان أن فرضوا فرضا جائرا توصلوا منه الى أن الطريقة الوحيدة لايقاف الحرب هى التأكد من هزيمة بلادهم (وهو الغرض الذى ـ بعد خمس وعشرين سنة ـ احجمت عنه المعارضة الالمانية لهتلر حتى فاتهم الاوان) •

ولكن هذا التدخل من ناحية لينين كان باتصاله غالبا بالحريات المعادية فى للحرب فى الفترة مابين الحربين العالميتين واستمرت حتى فقدت مفعولها فبينما كان هتلر يكتسح أوروبا كان زعماء الديمقراطية الاشتراكية يدعون الى عدم التدخل ويعارضون فى التسليح • وكان الاوان قد فات عند ما قاد أرنست بيفن المعارضة فى حزب العمال البريطانى ضد لانسبرى وكريبس وشجعه فى فرنسا ليون بلوم والجبهة الشعبية •

هذه اذن كانت الانواع الفاشلة للحياد • فقد كانوا جميعا يمارسون الحياد على أنه اهتمام شخصى بالقومية أو من الوجهة النظرية • وفشلوا جميعا لان الحياد لا يكون له أثر فعال الا فى ظروف خاصة محددة : فأما أن يكون هناك ارتباط لابد منه بكلا الجانبين وان الدول الاخرى غير المحايدة يهمها سلامة وطن الدولة المحايدة • أو لابد أن تكون الدولة المحايدة فى موقف قوى مرهوب الجانب مما يثبط همة الدولة المهاجمة • وذلك لان مجرد اعلان الحياد بذاته ليس ضمانا لان يكون موضع احترام أو حتى لكى تعترف به الدول الاخرى •

وبطبيعة الحال يكون الحياد عمليا اذا لم يكن هناك نزاع حول المصالح الوطنية • لبريطانيا وبلجيكا عند ما بقيتا محايدتين خلال الحرب الالمانية الفرنسية سنة ١٨٧٠ وعند ما التزمت سويسرا الحياد فى الحرب العالمية الاولى • وينطبق هذا ايضا ـ والى مدى بعيد ـ على مجموعة من الدول التى نجحت فى التزامها الحياد خلال الحرب العالمية الثانية • فقد ظلت تركيا واسبانيا والبرتغال والسويد بعيدة عن دائرة النزاع • فلم تجر هذه الدول الى الحرب كما حدث للبلجيك وهولندة والدانيمارك والنرويج وسويسرا • وكذلك دبر الالمان للحصول من هذه الدول المحايدة على كل شىء احتاجوه من هذه الدول • كما كان هتلر مقتنعا بانه يستطيع أن يكسب منها بوصفها

دولا محايدة اكثر من الدول التى تسير فى ركابه وحلفائه ممن يحوم حولهم الشك • وفى محادثات بورمان ـ قبل انتحاره بقليل ـ اتضح أنه كان يعتقد أن موسولينى كان فى استطاعته أن يشد أزره أكثر بحياده مما كان وهو من حلفائه •

ولكن سويسرا كانت فى موضع مختلف • فهى أولا دولة لها قيمتها الاستراتيجية • وكان الاستيلاء عليها أمرا مرغوبا فيه بالغ الاهمية • ولما تقدمت الحرب فى سيرها كان عدم انحيازها وحمايتها لاستقلالها مصدر قلق متزايد لزعماء النازى • واذا هى ـ فى المراحل الاخيرة للحرب ـ تصبح اكثر من مصدر قلق وارهاب • حيث أصبحت جزءا لازما « لقلعة أوروبا » وهى تشرف على طرق وممرات المحور فى أوروبا • وكان الاستيلاء على مواقع الدفاع السويسرية بمثابة تحويل للموقف العسكرى للجيوش الالمانية فى ايطاليا وفى الغرب • وربما كان سببا لاطالة الحرب مدة سنة اخرى • ولكى يتجنب هذه الاحتمالات كان على جيسان ان يعمل على حماية استقلال بلاده وحيادها • وقد رأيناه كيف اختار ان يفعل ذلك • فلم تنطق اجراءاته على أى تعريف للحياد مما جاء فى القاموس ولكنها عرضت المميزات السياسية والعسكرية للحياد الفعال من حيث السياسة الخارجية •

وفى ضوء هذه التجارب كيف نقدر الاوضاع الجديدة التى اتخذتها سياسة الحياد فى النصف الثانى من القرن العشرين • فقد اتخذت هذه السياسة تحت اسماء مختلفة تؤدى نفس المعنى بطبيعة الحال : فكانت فى الهند « سياسة عدم الانحياز » وفى بعض الدول العربية « سياسة الحياد » ثم « سياسة الحياد الايجابى » التى انتهجها الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة و « سياسة عدم الالتزام » فى الدول غير الملتزمة • وكل هذه اسماء لاعلان الحياد اكثر من اعلان سياسة الحياد • وكلها ما أسفرت عنه بيانات الدول عن مقاصدها من جانب واحد • وليس الحياد هنا ـ كما كان الحال فى سويسرا ـ موقف معاهدة دولية حيث تعهد السويسريون والدول المعنية أصلا بالمشاركة فى تحمل التبعات • وكانت سياسة الحياد فى سويسرا التى اتفق عليها فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ تفرض عليها واجبات والتزامات بأن تقف موقف الحياد بقوة السلاح اذا لزم الامر •

وكانت النتيجة ـ في مدى قرن ونصف من الزمان وبعد عدة تجارب متناقضة ان انسحب السويسريون من السياسات الدولية وتجنبوا جميع المنازعات الدولية حتى تلك التى بقيت مقصورة على المجالس التشريعية • والدرس الذى تلقنوه من الحرب العالمية الثانية ان ذلك لم يكن كافيا لكى يفي باغراضهم•وان ضمان استقلال البلاد يتطلب اختيار نوع من السياسة ـ أولها الحياد أم الاستقلال لان الوضعين لم يعودا متشابهين ـ وكما رأينا • اجرى جيسان اختياره بقدر ما استطاع • وبفعله هذا ابدى للعالم في النهاية أن الحياد وسيلة وليس غاية • وان ممارسته يجب أن تكون على هذا النحو •

ولكن هذا الدرس لم يجد اذنا صاغية • فان الغرض ان جزءا كبيرا من العالم يستطيع أن يحتل موقفا خاصا فى الصراع المتفاقم بين الدول الكبرى قد وجد له فراغا جديدا فى مؤتمر الدول الاسيوية الافريقية في باندونج سنة ١٩٥٥ • حيث أوضح هذا الوضع سوكارنو رئيس أندونسيا فى خطابه الافتتاحي عند ما سأل ماذا يستطيع المؤتمر أن يؤديه • وأجاب بنفسه على السؤال حيث قال « نستطيع أن ندخل صوت العقل فى شئون العالم • وفى مقدورنا أن نعبىء جميع القوى الروحية والادبية والسياسية فى آسيا وأفريقيا فى جانب السلام • ونحن شعوب آسيا وافريقيا التى تتألف من ١٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة بما يزيد عن نصف سكان العالم نستطيع أن نعبىء ما سميته القوة المعنوية الخارقة فى الامم لصالح السلام • كما نستطيع أن نظهر للاقلية فى العالم التى تعيش فى القارات الاخرى أننا ـ نحن الاغلبية ـ فى صف السلام وليس الحرب • ومهما كان لدينا من قوة فسوف نلقى بها فى جانب السلام » •

واختتم سوكارنو حديثه بعبارات تبين مدى الفرق بين الحياد القديم والحيادية الحديثة • وحذر القوم قائلا « ان شئون العالم جميعا شئوننا وان مستقبلنا يتوقف على حل جميع المشاكل الدولية مهما بدت بعيدة المنال » • وهكذا فسر مؤتمر باندونج حياده على أساس التدخل فى الشئون العالمية . على النقيض تماما من فكرة الحياد السويسرى التقليدية • وأعلن عن نفسه فى موضوع الجزائر وتونس ومراكش وفلسطين واليمن وعدن وايريان الغربية وفى المسائل الرئيسية التى ظلت معلقة بين كتل الدول الكبرى . كما اشتمل المؤتمرين بين صفوفه على جمهورية الصين الشعبية والهند فى آسيا ثم الرئيس عبد الناصر وامبراطور الحبشة هيلاسيلاسى فى أفريقيا •

وفى السنين القليلة الماضية منذ مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ نستطيع أن نرى الى أى مدى قد تساوت نظرية التدخل مع اعتبارات الحياد المطلق فى الدول « غير المنحازة » فى أفريقيا والى مدى أبعد فى آسيا • وعلى ذلك يكون الدرس المتواضع الذى أخذناه من جنرال جيسان السويسرى يمكن اعادة تطبيقه والحصول على المنافع المترتبة عليه • فقد كان كل من النشاط الحيادى والتدخل أمرا ميسورا وضروريا فى حالة السويسريين وذلك تشدة حاجته لصيانة البلاد والدفاع عنها • ولم يكن ذلك شعارا لحرب صليبيبة قامت لاسباب حقة صادقة • وكان السويسريون دائما يعرضون عن استخدام قاعدة الحياد كسبب لقيام حرب صليبية • ومن المحقق أن ميزة الحياد هذه فشلت فى تفهمها الدول الخمس والعشرون « غير المنحازة » التى اجتمعت فى بلغراد فى سبتمبر سنة ١٩٦١ برئاسة المارشال تيتو • وهى الميزة التى أظهرت مرة أخرى أن التنافس السياسى بين الحيادية والحرب الصليبية اسفرت عن أن لحياد هو الضحية دون تغير أو تبدل • واذا حدث ذلك تصبح الحيادية أو عدم الانحياز تمويها أو أسطورة سياسية •

ذلك لان الحيادية الحديثة ــ كما رأينا فى باندونج وفى مصر (التى كانت مثلها العليا) ــ وهى زحف مقدس بضرورة الحال وعلى ذلك يجب أن تتخذ لها مكانا فى المنازعات الدولية بصورة علينية حتى ولو كان ذلك يتعارض مع مصلحة الوطن فى بعض الاحيان ــ وهذا لا يقضى على فكرة الحياد فحسب بل على تطبيقها أيضا • ثم أن سجل جيسان يبين أن الحياد ليس فلسفة أو دبلوماسية وليس عقيدة أو سبيلا فى الحياة•فهو لون من السياسة الخارجية والدفاع وليس تابعا لايهما • وهو نوع من توازن القوة المعنوية التى يستخدمها الضعيف ضد القوى • ولكن الحياد لا يكون ضامنا لصيانة البلاد الا اذا كان الشعب من ورائه سندا له وكذلك فاعلية الحكومة والقوات المسلحة • وقد تأكد جيسان من هذه العناصر الثلاثة وعلى ذلك تمكن ــ بعد ست سنوات ــ من المثول أمام البرلمان الذى انتخبه جنرالا وسلم مكتبه رسميا الى السلطات المدنية فى ٢٠ يونية سنة ١٩٤٥ • فقد نفذ الاوامر التى صدرت اليه وانتهت حالة الطوارىء وبقيت سويسرا حرة مستقلة فى سلام وامان وحياد •

وبعد شهرين تقاعد جيسان من الجيش وعاد الى منزله بجانب البحيرة خارج لوزان • ثم توفى بعد خمسة عشر عاما ودفن فى لوزان بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٩٦٠ • ثم ان العالم الخارجى اذا كان قد سمع بجنرال جيسان فقد نسيه من أمد بعيد • ولكن فى سويسرا ـ دون أوامر أو تعليمات ودون تظاهر ـ ارتدى ما يزيد عن مائتى الف من جنود الجنرال السابقين ملابسهم الرسمية الكاملة وعليها شارات الحداد وسافروا الى لوزان على نفقتهم الخاصة للاعراب عن تقديرهم له الذى لم ينله أى قائد عسكرى آخر فى أى مكان • وذلك لان هؤلاء السويسريين يعلمون ماذا هم مدينين به ـ والعالم معهم ـ الى قائدهم جنرى جيسان •


Bibliotheca Alexandrina
0670904